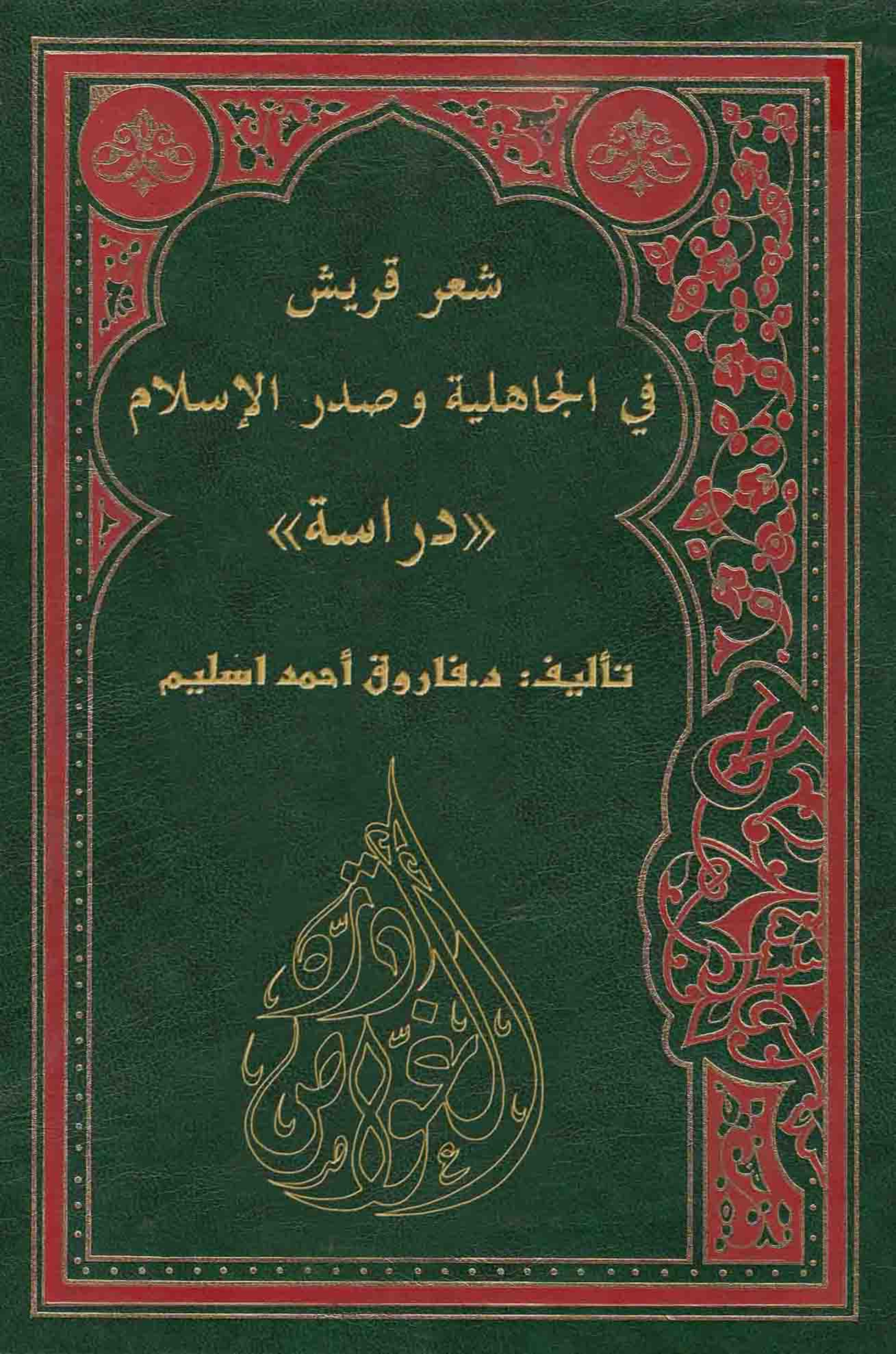

شعر قريش
في الجاهلية وصدر الإسلام
«دراسة»
تأليف: د.فاروق أحمد اسليم



شعر قريش

في الجاهلية وصدر الإسلام

«دراسة»

تأليف: د.فاروق أحمد اسليم

شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف: فاروق أحمد اسليم

الإخراج: بنان قسطنطين

تصميم الغلاف: زكريا شريف

الطبعة الأولى ١٩٩٧، ١٠٠٠ نسخة



منشورات دار معد للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سورية - ص. ب ١٠٨٧٧ - هاتف: ٢١١٧٦٦٥

إهداء ودعاء

إلى والدي ووالدتي

«ربِّ ارحمهما كما ربّياني صغيرا»



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــــة

اعتاد قدماء العرب تقديم قريش على القبائل العربية في الجاهلية وصدر الإسلام في كلّ شيء عدا الشعر. وقد دفعني ذلك إلى التساؤل عن سلطان قريش الأدبيّ قبل العصر الأمويّ، وبعد النظر في كتب التراث، والدراسات الأدبية للشعر العربي القديم وجدت ما يثير الرغبة في دراسة شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام وتراءت لي دوافع أجملها في الآتي:

١- أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم، وكبار الصحابة من قريش، ودراسة ذلك الشعر تلقي مزيداً من الأضواء على البيئة التي انبعثت منها رسالة الإسلام الخالدة.

٢- أنّ شعر قريش تأثّر بالإسلام، وبالأحداث التي رافقت انتصاره، وانتشاره تأثُّراً كبيراً، وصل إلى بعض الشعر الذي أنشده أصحابه قبل إسلامهم.

٣- أنّ أكثر نقّاد الشعر القدماء لم يهتموا بشعر قريش قبل العصر الأمويّ، وكذلك فعل معظم المحدثين الذين درسوا الشعر العربي القديم، فقلّة منهم خصّوا شعر قريش في صدر الإسلام ببعض الاهتمام، ولكنّ اهتمامهم لم يُنر إلا زاوية ضيقة من ذلك الشعر.

٤- أنّ شعر قريش متميّز؛ فأكثره وليد بيئة مكّة، وهذا ما يجعله نموذجاً للشعر الحضري في الجاهلية وصدر الإسلام، ومن المعلوم أن الاهتمام بشعر الحواضر العربية في تلك الفترة لم يلق الرعاية التي يستحقها.

٥- أنّ دراسة شعر القبائل تساهم في تعميق المعرفة بشعر العرب الجاهلي والإسلامي، وبنواحي نشاطهم الإنساني.

ولذلك انصرفت إلى كتب التراث العربي استخرج من بطونها البيت والبيتين، والمقطعة، والقصيدة حتى تجمع لديّ ركام من الشعر، والأخبار المتصلة به، فبذلت جهدي لتنقية ذلك الركام من الأشعار المنحولة والمصنوعة، ومن

الأخبار الملفقة، حتّى استقرّ في نفسي أن مادة البحث أصبحت وافرة، فعقدت العزم – مستعيناً با لله – على إخراج هذه الدراسة.

******

كانت النظرة المتأنية في بنية الأخبار والنصوص، وفي محيطها الخارجي – رائدي في التخليل والتركيب للوصول إلى الأحكام والنتائج في هذه الدراسة، ولكنّ عنوانها (شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام) يفرض التعامل مع التاريخ لتحديد إطار البحث الزماني، ولجلاء تارخ قبيلة قريش قبل البدء في دراسة شعرها.

و لم يعفني النظر في بنية النص الشعري، لتفسيره وإطلاق الأحكام بشأنه من الاستعانة بأحداث التاريخ، وبالبيئة الطبيعية، وبالمظاهر الاجتماعية، مبرزاً أثر العامل الاقتصادي في ظهور القيمة المادية في ذلك الشعر، وفي تنوعه بمعانٍ، هي وليدة بيئة مكّة التجارية.

******

تقع هذه الدراسة في أربعة أبواب وخاتمة، وهي موزعة على النحو الآتي:

الباب الأول: قبيلة قريش في الجاهلية وصدر الإسلام.

الباب الثاني: توثيق شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام.

الباب الثالث: شعر قريش في الجاهلية

الباب الرابع: شعر قريش في صدر الإسلام.

الخاتمة: تشمل أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة.

******

لأستاذي العلاّمة **الدكتور فخر الدين قباوة** تقديري واحترامي،فقد رعى الخطوات الأولى لهذه الدراسة (الرسالة)*، ثم حالت إعارته إلى المملكة المغربية

* أصل هذه الدراسة رسالة جامعية ناقشتها لجنة مؤلفة من الأساتذة: الدكتور محمد التونجي مشرفاً، والدكتور عصام قصبجي عضواً، والدكتور عبد الكريم يعقوب عضواً، وقد منح مؤلفها درجة الماجستير في الدراسات الأدبية بتقدير (جيد جداً)، وذلك بقرار من مجلس جامعة حلب رقم (٩٧٥) تاريخ ١٩٨١/٩/٢٧م.

دون إتمامها برعايته فتفضل الأستاذ الأديب الدكتور محمد آلتونجي بالإشراف عليها مشكوراً، وكان لنصحه وإرشاده أثر كبير في نفسي، وفي تكامل فصولها، ثم أُتيح لي إطلاع الأستاذين: الدكتور عصام قصبجي، والدكتور عبد الكريم يعقوب عليها، فتفضّلا بتقديم ملاحظات قيمّة، وتوجيهاتٍ مفيدة، فلهم ولجميع أساتذتي في قسم اللغة العربية بجامعة حلب شكري الخالص، وتقديري المتنامي. أسأل الله تعالى النجاح والتوفيق والأجر، وهو حسبي ونعم الوكيل.

فاروق أحمد اسليم




درة الغواص

الباب الأول

قبيلة قريش
في الجاهلية وصدر الإسلام

- نسب قريش ومنازلها
- نشاط قريش

الفصل الأول

نسب قريش ومنازلها
في الجاهلية وصدر الإسلام

-١-

نسب قريش

١- أصل قريش:

روي عن النبّي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «نحن بنو النضْر بن كِنَانة، من قال غير ذلك فقد كذَب»(١). وقد روى ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) أن النضر وَلَد: مالكاً ويخلد(٢). فأمّا يخلد بن النضّر فيقال إن بنيه في بني عمرو بن الحارث من كنانة، ومنهم قريش بن بدر بن يخلد صاحب عير قريش، ودليل قومه في الجاهلية في متاجرهم، وبه سمّوا قريشاً. والمرجح أن بني يخلد قلّة انطفأت في بني كنانة، فضاعت أنسابها، وخرجت من جماع قريش(٣).وأما مالك بن النضْر فهو وحده صاحب العقب الصريح من أبناء النضر(٤). وولد مالك فهراً، وقد أرجع أكثر النسّابين قريشاً إلى فهر، وفي ذلك يقول الزبير بن بكار: «أجمع النساب من قريش وغيرهم على أن قريشاً إنّما تفرقت عن فهر، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه

---

(١) الطبقات الكبرى ٢٣/١. وانظر سيرة ابن كثير ٨٥/١-٨٦.

(٢) أضاف إليهما ابن هشام (ت ٢١٣هـ) الصلتَ (سيرة ابن هشام ٨٧/١). وقيل: إن الصلت هو ابن مالك ابن النضر (جمهرة أنساب العرب ص١٠). وقد زعم قوم من خزاعة أنهم من ولد الصلت، وردّ ذلك الزبير بن بكار، وابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، وغيرهما (انظر نسب قريش ص١١-١٢)، والأغاني ٣/٩-٤، وجمهرة أنساب العرب ص٢٢٢ و٢٢٧).

(٣) تاريخ الطبري ٢٦٣/٢-٢٦٤. وقيل: صاحب عير قريش هو قريش بن مخلد بن غالب بن فهر (القاموس: قرش).

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب ص١٠.

ليس من قريش - وأضاف مهاجماً من يرجع قريشاً إلى غير فهر - نحن أعلم بأمورنا، وأرعَى لمآثرنا، وأحفظ لأسمائنا، لم نُعْلَم، و لم نُدْع قريشاً.... إلاّ ولد فهر بن مالك»[١].

ولا تعارض بين القول بأن أصل قريش يرجع إلى النضر بن كنانة، والقول بأن أصل قريش يرجع إلى فهر بن مالك بن النضر، لأن النضر لم يعقب من غير مالك صراحة، ومالك لم يعقب سوى فهر بن مالك، وبذلك نُفَسِّر عدم تحرج بعض علماء الأنساب كابن الكلبي (ت ١٤٦ هـ) من إرجاع أصل قريش إلى النضر تارة، وإلى فهر أخرى[٢].

٢- تسمية قريش

ذهب القدماء مذاهب شتّى في تسمية بني فهر قريشاً، ويمكن إجمالها فيما يلي:

أ - قيل: إن اسم النضر بن كنانة هو قريش، وقيل إن قريشاً لقب للنضر[٣].

ب- قيل إن اسم فهر بن مالك بن النضر هو قريش، وإنّ فهراً لقب له[٤].

وأرى في القولين السابقين تلفيقاً ظاهراً، فالقرشيون كان يقال لهم بنو النضر حتى جمعهم قصي بن كلاب[٥]، وكان يقال لهم بنو فهر أيضاً، والشواهد على ذلك كثيرة في الجاهلية والإسلام. فقريش تسمية متأخرة لبني فهر.

ج- قيل: إنّما سُمّيتْ القبيلة بقريش بن بدر بن يخلد بن النضر[٦]. وهذا قول مستبعد لأن الشكوك تحوم حول شخصية المذكور، ولأنّ بني يخلد ليسوا في جماع قريش.

---

(١) الروض الأنف ٣٩٦/١-٣٩٧.

(٢) المصدر السابق ٣٩٦/١. وانفرد مؤلف إنسان العيون (١٨/١-١٩) بالقول: "في جماع قريش خمسة أقوال: قيل: قصي، وقيل: فهر، وقيل: النضر، وقيل: إلياس، وقيل: مضر". ولايصح منها إلا الثاني والثالث.

(٣) تاريخ الطبري ٢٦٤/٢-٢٦٥. وفيه روايات كثيرة لتعليل تلقيب النضر بقريش.

(٤) نهاية الأرب ـ النويري ٣٥٢/٢.

(٥) العقد الفريد ٣١٢/٣.

(٦) جمهرة أنساب العرب ص١٠.

د- قيل: إنّما سميت القبيلة بتصغير دابة القرش. وقد روي في ذلك شعر منسوب إلى رجل يمان قديم، مختلَف في اسمه[1]. وهذا ممّا يدفع إلى إهمال هذا القول، ولا سيما أن الصنع واضح في ذلك الشعر.

هـ- قيل: «لم يزل بنو النضر بن كنانة يدعون بني النضر حتى جمعهم قصّي بن كلاب، فقيل لهم: قريش، من أجل أن التجمع هو التقرّش، فقالت العرب: تقرّش بنو النضر: أيّ تجمّعوا[2]. فالفعل قرش يقرُش قرشاً: جمع وضمّ من هنا وهنا. وقيل: إنما يقال: اقترش وتقرّش للأهل[3]. وهذا التعليل للتسمية منطقي، ينسجم مع أول حدث بارز في تاريخ القبيلة، وهو تجميع قصي بن كلاب لها بعد افتراق طويل، ولذلك لقب مُجَمّع، وبقريش[4]، ثم نسبت القبيلة إلى هذا اللقب، ويقوي هذا الرأي أن ابن الكلبي الذي أخذ النسب عن عقيل بن أبي طالب الهاشمي[5] يقول: «إنما قريش جماع نسب، ليس بأب ولا أمّ ولا حاضن ولا حاضنة»[6].

و- ثمة أقوال أخرى في تسمية قريش، منها أن بني النضر لقبوا بقريش لغلبتهم على سائر القبائل مثلما تغلب دابة القرش دواب البحر وتأكلها[7]، أو لأنهم كانو يقرّشون (يفتشون) عن حاجة أهل الموسم فيسدونها[8].

وقيل: قريش من أجل أنها تقرّشت عن الغارات[9] أو من أجل أن التقرش هو التجارة، والمعروف أنهم كانوا أهل تجارة لا أهل زرع وضرع[10].

---

(١) الروض الأنف ١/٣٩٧.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٨٧.

(٣) اللسان: قرش.

(٤) أخبار مكة ١/٦١.

(٥) نهاية الأرب - القلقشندي ص٣٩٨.

(٦) تاريخ الطبري ٢/٢٦٤.

(٧) سيرة ابن كثير ١/٨٧.

(٨) تاريخ الطبري ٢/٢٦٤.

(٩) أخبار مكة ١/٦١.

(١٠) اللسان: قرش.

والروايات الآنفة تنسجم مع طبيعة حياة القبيلة، وتصلح أن تكون تعليلاً لتسميتها ولكن هذه الصفات لم تشتهر بها قريش إلا بعد تجميع قصي لها، وبذلك يستقر الرأي على أن تجميع قصي -والتجميع هو التقرش- لقريش وتلقيبه لذلك بمُجَمِّع، وبقريش هو سبب تسمية بني فهر (بني النضر) بقريش.

٣- بطون قريش الصريحة:

هي البطون التي صح انتسابها إلى فهر بن مالك بن النضْر بن كِنانَةَ بن خزيمة بن مدركة بن إلياسَ بن مضرَ بن نزار بن معَدّ بن عدنانَ. وهي:

أ- بنو الحارث بن فهر، ومن رجالهم عمرو بن شقيق الشاعر في الجاهلية، وأبو عبيدة بن الجراح في الإسلام.

ب-بنو محارب بن فهر، ومنهم ضرار بن الخطاب الشاعر الفارس، وحبيب بن مسلمة القائد الفاتح.

ج-بنو تيم الأدرم بن غالب بن فهر، واشتهر منهم في الجاهلية عوف بن دهر الشاعر.

د-بنو عامر بن لُؤَيّ بن غالب بن فهر، وهم بطن كبير تفرع إلى فخذين هما: بنو حسل بن عامر، ومنهم عمرو بن عبدودّ الفارس المقتول في غزوة الخندق، وسهيل بن عمرو خطيب قريش، وبنو معيص بن عامر، ومنهم مكرز بن الأخيف الشاعر الجاهلي، وابن أمّ مكتوم مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم.

هـ-بنو عَدِيّ بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وقد تفرعوا إلى فخذين هما: بنو عويج بن عدي، ومنهم حذافة بن غانم الشاعر، والنعمان بن عدي عامل عمر على ميسان، وبنو رزاح بن عَدِيّ، ومنهم زيد بن عدي الشاعر المتحنف، وعمر بن الخطاب.

و- بنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، ومنهم أبو عزّة الشاعر الجاهلي، وعثمان بن مظعون الصحابي الجليل.

ز- بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، واشتهر منهم نبيه، ومنبه ابنا الحجاج، المقتولان ببدر، وعبد الله بن الزبعرى الشاعر، وعمرو بن العاص. وقد كثر بنو سهم في الجاهلية، وكادوا أن يعدلوا بني

عبد مناف[١].

ط- بنو مخزوم بن يقظة بن مـرّة بـن كعـب بـن لـؤي بـن غـالب بـن فهـر، واشتهر منهم في الجاهلية عمارة بـن الوليـد الشـاعر، وأبـو جهـل بـن هشـام، وفي الإسلام خالد بن الوليد.

ي- بنو زهرة بن كلاب بن مرّة بـن كعـب بـن لـؤي بـن غـالب بـن فهـر، ومنهم آمنة بنت وهب، أم الرسول (ص)، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بـن عوف.

ك- بنو عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بـن غـالب ابن فهر، ومنهم النضر بن الحارث الذي قتله الرسول صبراً في بـدر، ومصعـب بـن عمير حامل لواء المسلمين في بدر وأحد.

ل-بنو عبد قصي بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لـؤي بـن غـالب ابن فهر، ومنهم طُليب بن عمير الصَّحابي.

م- بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرّة بـن كعـب بـن لـؤي ابن غالب بن فهر، منهم ورقة بن نوفل، وأم المؤمنين خديجة بنت خويلـد، والزبـير ابن العوام.

ح- بنو تيم بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهـر، واشـتهر منهـم في الجاهلية عبد الله بن جدعان وتشرفوا في الإسلام بأبي بكر الصديق.

ن- بنو عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بـن غـالب ابن فهر. وهم بيت قريش، وفخرها، وقد تفرع بنو عبد مناف إلى بني هاشم، وبني عبد شمس وبني المطلب وبني نوفل. وبنو هاشم هم الأشرف، لأن منهـم محمـد بـن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، خير الناس، وخاتم الأنبياء.

٤- بطون قريش غير الصريحة

أشرنا إلى الشكوك التي أحـاطت ببـني الصلـت، وبـني يخلـد[٢] . وثمـة بطـون أخرى اختلف في نسبها إلى قريش، وهي:

---

(١) انظر نسب قريش ص٤٠٠-٤١٢.

(٢) انظر ص١١ من هذه الدراسة.

أ-بنو الخلج: يقال إن الخلج هو قيس بن الحارث بن فهر. وكان بنوه في عدوان ثم انتقلوا إلى بني نصر بن معاوية. وقد أنكر عمر بن الخطاب نسبهم إلى قريش، ولكن عثمان أثبتهم في بني الحارث بن فهر حين استخلف، غير أن الشك ظلّ ملازماً نسبهم[1].

ب- بنو عوف بن لؤي: كانوا في ذبيان، وذلك لأن الباردة بنت غنم نزلت في قومها بعد موت زوجها لؤي بن غالب، ومعها ابنها عوف، فتبناه سعد ابن ذبيان حن تزوج الباردة[2]. وكان بنو عوف يقولون عن نسبهم في قريش: «ما ننكره، وما نجحده، وإنّه لأَحَبّ النسب إلينا»[3].

ج- بنو سامة بن لؤي: قيل إن سامة خرج إلى عُمان بعد خلافه مع أخيه عامر، واختلِف في أبنائه، فقيل: إنه أعقب من ابنه الحارث، وأيدت هذه الرواية بحديث عن الرسول (ص)[4]، وقيل: إن ابني سامة، غالباً والحارث، لم يعقبا، وروي في ذلك قول الرسول (ص): «عمّي سامة لم يعقب»[5].

د- بنو جشم بن لُؤي: قيل إن بني جشم دخلوا في بني هَزّان، وفيهم يقول جرير:

بنو جشَم لَسْتُمْ لِهَزَّانَ فانتموا ... لأَعْلَى الرَّوابي من لؤيّ بن غالبِ

ويقال: إنهم أعطوا جريراً على هذا الشعر ألف عير، وكانوا ينتسبون إلى ربيعة فما انتسبوا بعد إلاّ إلى قريش[6].

هـ- بنو سعد بن لؤي: ويقال لهم بنو بنانة أيضاً، وقد اختلف كثيراً في بنانة[7]. وكان بنو سعد في بني الحارث بن ضبيعة بن ربيعة بن نزار، وقد ألحقهم

---

(1) انظر الأغاني ٤/٣٦٧-٣٦٩. وقيل: إن عمر هو الذي ألحقهم بنسب قريش (نهاية الأرب للقلقشندي ص٥٣).

(2) تاريخ الطبري ٢/٣٦١. وقيل في بقاء عوف في أبيات غير ذلك. انظر سيرة ابن هشام ١/٩١.

(3) سيرة ابن هشام ١/٩٠. وذكر أن عمر دعا بني عوف الى الرجوع الى نسبهم القرشي (الإصابة ٣/٦١٦).

(4) سيرة ابن هشام ١/٩٠-٩١. وانظر الروض الأنف ١/٤٠٧.

(5) الأغاني ١٠/٢٠٣-٢٠٥.

(6) الروض الأنف ١/٤١٠. وانظر ديوان جرير ص١٠٢١.

(7) انظر نسب قريش ص٤٤١، وتاريخ الطبري ٢/٢٦١.

عثمان بقريش، ولكن عليًا نفاهم عن قريش وألحقهم بشيبان، حين استخلف[1] .

و- بنو خزيمة بن لؤيّ، وهم عائذة قريش[2] ، نسبة إلى عائذة بنت الخمس ابن قحافة، امرأة خزيمة، وقيل في عائذة غير ذلك[3] . وهم في بني شيبان، وقد شك في نسبهم إلى قريش، وقيل: إنهم «قومٌ تكثّر بهم معاوية فأدخلهم في قريش»[4] .

ز- ثمة بطون أخرى تدّعى الانتساب إلى قريش، فبنو عصية من سُليم يدّعون أنهم من أبناء عامر بن لؤيّ[5] ، وبنو غنم من علكّ يدّعون أنهم من بني السبّاق بن عبد الدار[6] ، وبنو العَمَى في الحيرة، يدّعون أنهم أبناء عبد الله بن عبد شمس[7] .

إن الخلاف في نسب تلك البطون إلى قريش كبير، وهو خلاف يتناول أصول بعضها، كبني بنانة وعائذة. ومن الواضح أثر الأهواء السياسية في تأكيد نسب تلك البطون إلى قريش أو نفيه، ونجد ذلك ظاهراً في بعض الروايات الخاصة بجشم وبنانة وعائذة، وغيرهم[8] .

ونستطيع القول إن أصول تلك البطون، أو أصول أكثرها يرجع إلى قريش، ولكن هذه البطون أقامت بعيداً عن تجمع قريش في مكة، ودخلت في عداد قبائل أخرى، وهذا يستدعي استبعاد بطون قريش غير الصريحة من هذه الدراسة، لأن نشاطها أضحى جزءاً من نشاط القبائل التي انضوت تلك البطون تحت ألويتها.

---

(١) الروض الأنف ١/٤٠٣. وكان بنو ضبيعة بن ربيعة يقولون: إن بني بنانة هم أبناء الحارث بن ضبيعة (الأنساب المتفقة ص٢٠).

(٢) نسب قريش ص٤٤١. وفي قريش بنو عائذ بن مخزوم أيضاً (انظر الأنساب المتفقة ص١٠٤).

(٣) انظر المؤتلف والمختلف ص١٠٧، وجمهرة أنساب العرب ص١٦٥.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢/٣٥٥.

(٥) جمهرة أنساب العرب ص١٦٣.

(٦) حذف من نسب قريش ص٤٩.

(٧) نسب قريش ص٩٨. وقد أنكرت قريش ذلك النسب.

(٨) انظر الأغاني ١٠/٢٠٥.

-٢-

منازل قريش

١- في الجاهلية:

قريش من العرب العدنانيين الذين ينتهي نسبهم إلى إسماعيل عليه السلام، الذي نشأ في مكة ثم كثر ولده، فضاقت مكة عليهم، وعلى جُرهم ولاة البيت آنذاك، فانتشر لذلك بنو إسماعيل في البلاد[١].

ويفهم من روايات الإخباريين أن بعض بني إسماعيل لم يتركوا مكة، وأنّ صلة بعضهم لم تنقطع بها[٢]، كما ذُكر أن بعضهم عاد إلى مكة، فقد روي أن أول من نزل مكة من مضر هو خزيمة بن مدركة، فلم يزل بنوه بمكة حتى ورث ذلك فهر بن مالك (من أحفاد خزيمة) فخرج بنو أسد، ومن كان من كنانة بمكة منها، كما خرج أولاد فهر منها، ونزلوا مكانا من تَهَمتها لأسباب مجهولة[٣].

وحين انتصرت خزاعة على جرهم، ووليت أمر مكة، كانت قريش خارج دائرة الصراع على ولاية البيت، فهم آنذاك «حُلول وصُرم وبيوتات متفرقون في قومهم من كنانة»[٤]. وقد طلب بنو إسماعيل من خزاعة أن تسمح لهم بالسكن معهم، وحولهم فأذنت لهم خزاعة بذلك[٥]. ومن المرجح أن المقصود ببني إسماعيل - هنا - قريش، فهم آنذاك صريح وَلد إسماعيل[٦]. وهذا يعني أن بعض قريش رجع إلى مكة، وأن بعضها الآخر ظل يعيش في الشعاب المحيطة بها[٧].

---

(١) أخبار مكة ٦٦/١.

(٢) قيل: إن منازل بني نزار بن معد بن عدنان هي مكة. (معجم ماستعجم ٥٠/١). وقيل: إن معد بن عدنان زار مكة (تاريخ الطبري ٥٦/١).

(٣) الطبقات الكبرى ٦٩/١.

(٤) سيرة ابن هشام ١٠٨/١.

(٥) أخبار مكة ٥١/١.

(٦) معجم البلدان: مكة.

(٧) قال الطبري في تاريخه (٢٨٦/٢): "وأما قريش فلم يفارقوا مكة". وقال في موضع آخر (٢٥٧/٢) إن قريشا كانت قبل تجميع قصي لها تسكن مكة والشعاب ورؤوس الجبال المحيطة بها.

وقد ذكر الإخباريون أن قصي بن كلاب كان مقيماً عند أخواله بني عذرة، فلمّا بلغ سن الشباب سأل أمه عن قومه، فقالت له: «قومك بمكة، عند البيت الحرام، وفيما حوله»(١) . وكان سكان مكة من قريش آنذاك قلة مختلطة بخزاعة(٢) ، وأما بقية قريش فكانت متفرقة حول مكة في بني كنانة(٣) ، فجاء قصي إلى مكة، وجمع بطون قريش وأنزلهم فيها وفيما حولها، وطرد خزاعة من مكة، وجعلها خالصة لقريش(٤) ، وذلك حوالي ٤٤٠م.

انقسمت قريش بحسب منازلها إلى قسمين: الظواهر، وهم بنو معيص بن عامر، وبنو تيم الأدرم، وبنو محارب، وبنو الحارث، وسمّوا بذلك لأنهم أقاموا بظهر مكة(٥) ، والبطاح، وهم بقية بطون قريش الصريحة، وسمّوا بذلك لأنهم هبطوا مع قصي إلى أبطح مكة، وسكنوا فيه(٦) . ورتّب قصي قريش البطاح على منازلها في النسب بمكة(٧) .

وسرعان ما عقدت بطون قريش تحالفات مع رجال من غير قريش، فسكنوا معها في مكة(٨) ، وأما الحرم المحيط بها فقد سكنت فيه كنانة وهذيل إلى جانب الظواهر(٩) .

٢- في صدر الإسلام

لقي المسلمون الأوائل الاضطهاد، فهاجر بعض القرشيين المسلمين إلى الحبشة، ثم عادوا منها حين اشتد عود الإسلام، وظهر أمره(١٠) .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٥٥.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٥٦.

(٣) العقد الفريد ٣/٣١٣.

(٤) نهاية الأرب للنويري ٢/٣٥.

(٥) الطبقات الكبرى ١/٧١. وقد نزل بعض بني الحارث بن فهر الأبطح. انظر المحبر ص ١٩٢-١٩٣.

(٦) المحبر ص١٦٧-١٦٨.

(٧) مروج الذهب ٢/٢٢.

(٨) انظر هذه الدراسة ص

(٩) سيرة ابن هشام ١/٤٣. وانظر لحدود الحرم أخبار مكة ٢/١٠٤-١٠٥.

(١٠) سيرة ابن هشام ١/٢٨٠ ومابعدها.

وحين أذن الله بالهجرة إلى يثرب (المدينة) انطلق كثير من القرشيين إليها، فسكنوا في يثرب، وفيما حولها(١)، وبعد فتح مكة آثر الرسول صلى الله عليه وسلم الإقامة في يثرب، المدينة، وهذا ما شجع على استمرار هجرة القرشيين إليها، حتى أضحت المدينة موطناً ثانياً لقريش بعد مكة(٢).

وبعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام والعراق ومصر وغيرها استوطن كثير من القرشيين تلك البقاع المفتوحة والشواهد على ذلك كثيرة ومعروفة(٣).



---

(١) لم يبق أحد من بني عدي بن كعب، ولا أحد من بني مظعون الجمحيين بمكة قبل فتحها. انظر سيرة ابن هشام ١٠٤/٢ و٢٠١/٣، وانظر لتوزع قريش في يثرب سيرة ابن هشام ٨٠/٢ ومابعده.

(٢) مما يدل على اتساع نطاق الهجرة أن بني أسد بن عبد العزى هاجروا جميعاً الى يثرب عقب فتح مكة عدا بني زهير بن الحارث بن أسد. انظر جمهرة نسب قريش ٣٧٥/١.

(٣) من هذه الشواهد أن الحارث بن هشام المخزومي خرج الى الفتح في سبعين من أهل بيته (تاريخ الطبري ٦٥/٤) وأن المرقال بن عتبة بن أبي وقاص كان يقاتل في الشام ومعه بنو زهرة (فتوح الشام ٩٩/١). وقد ازداد تدفق القرشيين الى الشام والعراق بخاصة حين اشتد الصراع على الخلافة.

نشاط قريش في الجاهلية وصدر الإسلام

-١-

حياة قريش الاقتصادية

١ – في الجاهلية:

إن مركز مكة الديني وموقعها الجغرافي وفّرا لها موقعاً تجارياً متميّزاً، فتجمع لدى أغنياء قريش فيض من الأموال، استثمروها في أعمال مربحة، ويضاف إلى ذلك اهتمام بعض القرشيين بالغزو والرعي لكسب الرزق.

آ- التجارة: كانت التجارة مقياساً للشرف في قريش. قيل: من لم يكن تاجراً من قريش فليس عندهم بشيء[1]. وكانت تجارة قريش قبل تجميع قصي بن كلاب لها - محدود داخل مكة[2] ثم تخطّت هذا النطاق إلى ميدان التجارة الرحب مع القبائل العربية، والدول المحيطة بشبه الجزيرة العربية، وذلك حين خرج بنو عبد مناف، وأخذوا الإيلاف لقريش من ملوك الشام والعراق واليمن والحبشة. وأمراء القبائل العربية التي تمرّ قوافل قريش في أراضيها[3]. وقد وصل بعض القرشيين

---

(١) عيون الأثر ٤٨/١. وانظر سيرة ابن هشام ١٧/١.

(٢) انظر ذيل الأمالي والنوادر ص١٩٩.

(٣) المحبر ص١٦٢-١٦٣. وقد ضرب المثل بني عبد مناف. انظر مجمع الأمثال ١٢٧/٢ و٢٧٨.

بتجارتهم إلى مصر[١]. وهذا التوسع التجاري يعبّر عن تطلع القبيلة إلى تطوير وضعها الاقتصادي والسياسي بعد تدهور مركز الحيرة بين القبائل العربية[٢].

ويرى الأستاذ الأفغاني أن الإيلاف يعني بلغة عصرنا المعاهدات التجارية[٣]. وهي معاهدات تحقق مصالح المتآلفين المادية والأمنية[٤]. وبتلك المعاهدات نمّت قريش تجارتها، ونظّم هاشم بن عبد مناف رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى اليمن والحبشة. وكانت قوافل قريش تخرج من مكة آمنة إلى مقاصدها، وكذلك كانت قريش تخفر التجار الذين يمرّون ببلاد مضر[٥]. وركب تجار قريش البحر الأحمر للوصول إلى الحبشة، من ميناء الشعيبة القريب من مكة[٦]. وحضرت قريش الأسواق الموسمية المستقلة عن النفوذ الأجنبي كعكاظ، وحباشة، والرابية[٧]، والأسواق الواقعة تحت النفوذ الفارسي كسوق الحيرة[٨]، أو النفوذ البيزنطي كدومة الجندل، وبصرى، ودير أيوب.

كانت قريش تستورد الطعام من الطائف واليمامة[٩]، وتبتاعه من بلاد الشام في سني القحط[١٠]. وكانت تصدر الأدم، وهو أجود متاع كانت تقدم به إلى النجاشي[١١]، كما كانت تقدم بالفضة إلى الشام[١٢].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص٤٩-٥٠

(٢) الحيرة ومكة ص٤٣ ومابعدها.

(٣) أسواق العرب ص١٢١.

(٤) انظر أخبار مكة ١/١٠١.

(٥) المحبر ص ٢٦٥ و٢٦٧.

(٦) الروض الأنف ٢/٢٧٧.

(٧) جمهرة نسب قريش ١/٣٦٧-٣٦٨ و ٣٧١.

(٨) الأخبار الموفقيات ص٤٠٣.

(٩) سيرة ابن هشام ٤/٢١٠.

(١٠) انظر حذف من نسب قريش ص٣.

(١١) تاريخ الطبري ٣/٣٠

(١٢) سيرة ابن هشام ٣/٧.

وزعت قريش مصالح الوافدين إلى مكة، فحين وقعت بعض المظالم على الوافدين تداعى عدد من زعمائها إلى عقد حلف الفضول، وفيه تعاهدوا على الدفاع عن حقوق التجار الوافدين إلى مكة. فازدادت الثقة بتجار قريش وبوفائهم[1]. فنمت تلك التجارة، فكان القرشيون يربحون للدينار ديناراً[2].

ب- استثمار الأموال: اتجه تجار قريش إلى استثمار أموالهم في الرّبا والزراعة وبعض الحرف. وقد انتشر الربا في مجتمع مكة، وتعاطاه سادة كثيرون، كالعباس بن عبد المطلب[3]، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى هذه الظاهرة الشّاذة.

واشترى بعض القرشيين أراضي زراعية في الطائف، واستغلّوها، روى البلاذري (ت ٢٧٩هـ) أنه كان لعامة قريش أموال بالطائف، يأتونها من مكة، فيصلحونها حتّى غدت الطائف مخلافاً لقريش[4]، كما امتلك قرشيون أراضي في نواحي الطائف كالظربية[5].

وظهرت في مكة حرف بدائية تلبّي حاجات الناس اليومية والتجارية، كالصياغة[6]، والحدادة والنجارة، وصناعة الفخّار، وبري النّبل، والحدادة، ونسبت هذه الحرف إلى بعض سادة قريش[7]، ومن المستبعد أن يباشر أولئك تلك المهن عدا بري النبل[8].

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١٧/٣، والكامل لابن الأثير ٢٢٣/٢.

(٢) أنساب الأشراف ٣١٢/١. ومما يؤكد ذلك أن عمرو بن العاص بدأ حياته التجارية وهو لايملك سوى بعيرين (فتوح مصر وأخبارها ص٤٩) ثم استطاع أن يشتري في الجاهلية حلة بمائة من الإبل (الأغاني ١٢٣/١٨).

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١٨٥/٤.

(٤) فتوح البلدان ص٦٦.

(٥) من هؤلاء أبو أحيحة القرشي الذي مات ودفن في أرضه بالظربية (الطبقات الكبرى ٤/١٠٠-١٠١).

(٦) فتوح البلدان ص٤٨.

(٧) المعارف ص٥٧٥.

(٨) كان عبيد مكة يعملون بالمهن والحرف لصالح سادتها. انظر سيرة ابن هشام ٧/٢، والأغاني ٦٥/١ وأنساب الأشراف ٤٨/١.

ج- الغزو والرّعي: كان ظواهر قريش يغيرون على القبائل، فيسلبون، وينهبون طلباً للمعاش(١)، كما كانت حياتهم المتبدّية تدفعهم إلى مزاولة الرعي.

واهتمت قريش البطاح بتربية الحيوان كالإبل والغنم والماعز. وقد لقيت الإبل الاهتمام الأكبر لحاجة قريش إليها في التجارة، فاشتهر بعض التجار بكثرة الإبل التي يملكونها(٢)، كما اشتهر بعض بني أسد بن عبد العزى بتربية الماعز(٣) ومراعي قريش هي الشعاب المحيطة بمكة، وقد رعى الرسول (ص) الغنم لبعض أهل مكة(٤)، كما رعى عمر بن الخطاب الإبل لقريش في الجاهلية(٥).

د- التفاوت الطبقي: إن اعتماد قريش على التجارة أدى إلى ظهور طبقة غنية بشكل فاحش في مقاييس مجتمع مكة، فأبو ربيعة بن المغيرة ـ مثلاً ـ كان يكسو الكعبة سنة وتكسوها قريش بجتمعة سنة، فسمّوه العدل، لأنّه عَدَل بفعله قريشاً كلها(٦). وفي غزوة حنين استعار الرسول من صفوان بن أمية مائة درع(٧)، واستلف الرسول بعد فتح مكة من عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم، ومن صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم(٨).

وقد عانى بعض قريش في الجاهلية الفقر الذي ألجأ فئة من فقراء قريش إلى الاعتفاد، في سني القحط. روى ابن عباس أن قريشاً كانوا إذا أصابت الواحد منهم مخمصة جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباء، فماتوا(٩). وقد خرج بعض فقراء قريش إلى البادية سراً ليهلكوا جوعاً أنفة من طلب

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء ص٢٠٩.

(٢) انظر الروض الأنف ٢/٧٨.

(٣) ضرب بتيوسهم المثل. انظر مجمع الأمثال ١/٤٩.

(٤) انظر الطبقات الكبرى ١/١٢٥.

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب ص١٧٦.

(٦) أخبار مكة ١/١٦٧.

(٧) حذف من نسب قريش ص٨٩.

(٨) أنساب الأشراف ١/٣٦٣.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٠٤. وانظر المفصل في تاريخ العرب ٥/٨٠.

المساعدة(١)، وبعضهم طلب المساعدة فلم ينلها، فخرج بأولاده إلى الصحراء علانية ليهلك مغهم(٢). وهاجر بعض فقراء قريش من مكة طلباً للرزق، ومنهم عامرة بن عميرة الذي هاجر إلى اليمن(٣).

أدرك هاشم بن عبد مناف الخطر المحدق بمجتمع قريش، فحمل لواء إنصاف فقرائها ومساعدتهم حفاظاً على وحدة القبيلة، ومصالح تجارتها ـ ظهر في مكة التسول، والسّرقة ـ وكثرة رجالها، ودعا إلى إشراك الفقراء في تجارة قريش إلى الشام واليمن، وأقرّه على ذلك سادة القبيلة وأغنياؤها(٤). وقد أدى ذلك إلى تقوية عرى الترابط بين أبناء قريش، ولكن شبح الفقر ظل يلازم كثيراً من أبنائها حتى ظهور الإسلام(٥).

٢ ـ في صدر الإسلام

احترم الإسلام حق التملك، ولكنه وضع حداً لمظاهر الفساد الاقتصادي، كالاحتكار والرّبا. واستطاع بعض تجار قريش التكيف مع العصر الجديد فنمت أموالهم، وعظم استثمارهم لها. وهيأت الفتوح الإسلامية مجالاً رحباً للتجارة، ومورداً للمحاربين، ويضاف إلى ذلك أن عمر بن الخطاب فرض للمسلمين العطاء فنالت قريش منه حظّاً وافراً، فعَمّ الرخاء، وأثرى بعض القرشيين ثراءً فاحشاً، وقد يكون مريباً، وهذا ما جعل عمر بن الخطاب يقول: «لو استقبلت من أيامي ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين»(٦)، وذلك في أخريات أيامه.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب ٥/٨٠ نقلاً عن الدرّ المنثور للسيوطي ٤/٣٩٧.

(٢) فعل ذلك عنبسة بن أمية. انظر جمهرة أنساب العرب ص٧٢-٧٣.

(٣) نسب قريش ص٤٤٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٥.

(٥) لم يتمكن بعض أسرى بدر من افتداء أنفسهم لفقرهم (انظر سيرة ابن كثير ٢/٤٨٤-٤٨٥) وحين قدم الرسول (ص) مكة "أتاه أصحاب الصُّلُب... الذين يجمعون العظام إذا أخذت عنها لحومها، فيطبخونها بالماء، فإذا خرج الدسم منها جمعوه وائتدموا به" (اللسان: صلب).

(٦) تاريخ الطبري ٤/٢٢٦.

وفي خلافة عثمان خرج كثير من أغنياء قريش من المدينة إلى الشام والعراق ومصر، فامتلكوا الضياع، والقصور، واستثمروا أموالهم بنشاط ملحوظ وأصبح غنى بعض القرشيين لافتاً للنظر، فعبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، ترك ألف بعير، وثلاثة آلاف شاة، ومائة فرس، ترعى بالبقيع، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحا، وترك ذهباً قطع بالفؤوس، وأربع نسوة، أخرجت الواحدة من ثمنها بثمانين ألفاً، وقيل بمائة ألف[1].

-٢-

حياة قريش الاجتماعية

١- مجتمع قريش

ثمة معالم بارزة في مجتمع قريش، أهمها كثرة الحلفاء والعبيد، وشيوع الترف والمجون، وبلوغ المرأة منزلة تتناسب وتحضر القبيلة.

آ- حلفاء قريش وعبيدها: ساعد ازدهار قريش التجاري في الجاهلية على كثرة حلفائها وعبيدها، ولذا تركز وجودهم عند أهل البطاح المشهورين بالتجارة، وندر وجودهم عند الظواهر الفقراء، الذين يعتمدون في حياتهم على الغزو والرعي.

وأغلب حلفاء قريش تجار، يمثلون مصالح قبائلهم في مكة، وقد أحسنت قريش معاملة الحليف، فكانت تزوجه[2]، وتعدّه منها، وتعزه وتكاد تلحقه بالصميم[3]. وقد توافرت لبعض الحلفاء فرص الكسب التجاري في مكة، ومنهم يعلى بن منية، حليف بني أمية، وكان من أغنى أهل مكة[4].

---

(١) الطبقات الكبرى ١٣٦/٣. وانظر في المصدر السابق (١٠٩/٣-١١٠) ماتركه الزبير ابن العوام.

(٢) نسب قريش ص٩١.

(٣) كانت العرب تفعل ذلك ولقريش فيه تقدم (انظر لكامل للمبرد ص١١٧٨).

(٤) الأغاني ٣٣٥/١٢-٣٣٦.

وعبيد قريش قسمان: عرب وعجم. وقد حصلت قريش على عبيدها العرب شراء من الأسواق[1] أو سباء في حروبها[2]. واستعاد بعض هؤلاء حرّيتهم بمكاتبة أسيادهم على قدر من المال لأجل مسمّى[3]، أو بتبني أسيادهم لهم، ومن ذلك أن الرسول (ص) تبنى في الجاهلية زيد بن حارثة. وأغلب عبيدهم العجم أحباش وفيهم روم وفرس[4]، ومولدون من إماء حبشيات في أحياء العرب[5]، وكانت قريش تشتريهم من الأسواق،ويضاف إلى ذلك بعض المولدين في مكة[6].

عمل العبيد بالحرف والخدمات المنزلية، كما استعانت بهم قريش في بعض حروبها[7]. وكانت لهم شعاب خاصة يسكنون فيها إلى جوار مخلفات بيوت مكة[8].

عانى عبيد قريش الذين أسلموا بطش أسيادهم وتعذيبهم، وأظهر المكابرون القرشيون استياءهم لأن الإسلام أعزّ الضعفاء من العبيد، وكاد الغيظ أن يأكل أكبادهم حين شاهدوا بلالاً الحبشيّ يؤذن فوق الكعبة، بعد فتح مكة[9].

وزاد عبيد قريش في صدر الإسلام، وكانت الفتوح الإسلامية مصدراً رئيساً لهم، وقد أوصى الإسلام بمعاملتهم معاملة حسنة، تحفظ لهم إنسانيتهم، كما شجع على عتقهم.

ب- الترف والمجون: التمس القرشيون وسائل اللهو المتاحة لهم في مجالس الغناء والشراب، والسمر. ولم تعرف قريش في الجاهلية من الغناء إلاّ النصب، ثمّ تأثرت بغناء الشعوب المجاورة؛ روي أن النضر بن الحارث القرشي قدم الحيرة،

---

(١) انظر جمهرة نسب قريش ١/٣٦٧.

(٢) انظر أنساب الأشراف ١/٢٠٠.

(٣) انظر المعارف ص٣١٧.

(٤) انظر أنساب الأشراف ١/١٧٥-١٧٦ و٣٥٧.

(٥) انظر المصدر السابق ١/١٨٤ و١٩٣.

(٦) انظر الاستيعاب ص١٢١٩.

(٧) انظر حذف من نسب قريش ص٤٥.

(٨) فتوح البلدان ص٤٨.

(٩) الكامل لابن الأثير ٢/٢٥٤، وأخبار مكة ١/١٨٤-١٨٥.

فتعلم ضرب البربط، وغنّى غناء أهـل الحيرة، وعلـم ذلـك قوماً مـن أهـل مكـة، فاتخذوا القيان لذلك(١). ولوجود الرقيق في مكة لم يستبعد د.جواد علي وجود من كان يغني فيها بلغته الرومية أو الحبشـية(٢)، ويقـوي هـذا الـرأي أن أوّل مـن غنّـى الغناء العربي في مكة قينتا عبد الله بن جدعـان(٣)، وذلـك في الجاهلية القريبـة مـن الإسلام.

وترافق الغناء مع فن الرقص، حيث كان أهل مكة يحضـرون الحبـش لـلرقص والغنـاء علـى طريقتهـم الخاصـة في الاحتفـالات المفرحـة(٤). وكـــان فتـــاك مكـــة وخلفاؤهـا يجتمعـون في بعـض البيـوت للاسـتماع إلى الغنـاء، ومشـاهدة الرقـص، وشرب الخمرة(٥). وقد عرف بعض القرشيين مضار الخمرة فاجتنبوها قبل أن تحّـرم في الإسلام(٦).

وظهرت في مكة مفاسد اجتماعية فاحشة، ومنها مواخير فيها بغايا متعالمات لهن رايات يعرفن بها يأتيهن أهل مكة وغيرهم(٧)، طلباً للمتعة والمجون. وحين جـاء الإسلام حرّم الخمرة والزنا، ومظاهر اللهـو المـاجن، فـاختفت تلـك الموبقـات مـن مجتمـع قريـش، ولكـن ذلـك لم يمنـع الاسـتمتاع بـالعفيف مـن الوسـائل، كالغنـاء المهذب(٨).

ج- المرأة القرشية: شـاعت في قريـش ظـاهرة تعـدد الزوجـات في الجاهليـة،

---

(١) أنساب الأشراف ١/١٤٠. وانظر المعارف ص٥٧٦، والمفصل في تاريخ العرب ٥/١١٤. واستخدمت قريش غناء قيانها في هجاء الرسول، والكيد للمسلمين. انظر أنساب الأشراف ١/٣٥٤ و٣٥٩-٣٦١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب ٥/١١٨.

(٣) نهاية الأرب للنويري ٥/٣٨.

(٤) المفصل في تاريخ العرب ٥/١٢٢.

(٥) حذف من نسب قريش ص٨٤، وكانت قريش تجلب الخمرة من العراق والشام (انظر المصدر السابق ص٢١-٢٢، وشرح ديوان حسان ص١٠٣-١٠٤، وتهتم بجودتها (انظر المحبر ص١٧٨).

(٦) الاستيعاب ص١٠٥٤، والعقد الفريد ٦/٣٣٨-٣٣٩.

(٧) انظر جامع البيان ١٨/٥٧ ومابعدها، والاستيعاب ص١٣٨٤-١٣٨٥.

(٨) انظر بعض ذلك في الروض الأنف ٣/٢٨١ والمؤتلف والمختلف ص٩٧.

وندر اكتفاء الرجل بزوج واحدة[1]. وثمة مظاهر في مجتمع قريش تدلّ على امتهان المرأة، كالإكراه على الزواج[2]، وزواج المقت، وهو زواج الابن من زوج أبيه بعد وفاته، واستخدم كوسيلة لمنع المرأة من الزواج أو لحملها على التنازل عن حقوقها في الميراث[3]، وطلاق الظهار، وهذا النوع من الطلاق يجعل المرأة محرّمة على زوجها مع بقائها في عصمته، وبذلك يبتزّ الرجل المرأة مادياً، ويمسكها أنفة من أن يتزوجها رجل آخر[4]، وقريش هي التي سنّت طلاق الظهار[5]، وطلاق العضل، وفيه يفارق الرجل زوجه، ويظل مفارقاً لها إلى أن ترضيه بدفع شيء له، فيسمح لها بالزواج من غيره[6]، وقيل: إن العضل كان في قريش بمكة[7]. ومن تلك المظاهر وأد البنات القرشيات. يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): إنّ قريشاً لم تئد بنتاً حيّةً أبداً تديناً[8]. ولكن القرطبي (ت ٦٧١هـ) يروى أن مضر - وقريش منها - كانت تئد البنات حَمِيّةً[9]. وروي في السيرة الحلبية أن قريشاً كانت تئد من البنات من كانت زرقاء شيماء (سوداء)، وتمسك من لم تكن على هذه الصفة، مع ذلّ وكآبة[10]. فالوأد كان في قريش، ولكنه نادر.

وفي مقابل مظاهر الامتهان نجد مظاهر الإعزاز والتكريم، فبعض نساء قريش امتلكن أمرهن، وأعطين حق اختيار الزوج كخديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهند بنت عتبة، التي خيّرت، فاختارت أبا سفيان بن حرب على سهيل بن عمرو، واحتجت لاختيارها بأن أبا سفيان يمتلك صفات البطل الذي يستطيع أن يحامي

---

(١) انظر نسب قريش ص١٥٩-١٦٠ و٣١١-٣١٢.

(٢) العقد الفريد ٨٧/٦.

(٣) انظر عصر النبي ص٢٤٣.

(٤) انظر المصدر السابق ص٢٤٠-٢٤١.

(٥) الأغاني ٥٢/٩.

(٦) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٢٧١/٥.

(٧) جامع البيان ٢١٠/٤.

(٨) الحيرة ومكة ص٦٤، نقلاً عن مخطوط مختارات وفصول للجاحظ ص٢٠٢ ومابعدها.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ٩٦/٧-٩٧.

(١٠) إنسان العيون ٥٠/١.

عن قبيلته[1]. واشترطت امرأة قرشية على زوجها ألاّ يشرب الخمر، وألا يزني، وأن عليه أن يطلقها إذا لم يفِ بذلك[2].

وكان للمرأة القرشية شأن كبير في سياسة قومها، فبعض القبائل دخلت نظام الحمس مع قريش لأن أمهم قرشية، وكانت قريش تشترط أن تكون ذرية بناتها اللواتي يتزوجن في القبائل من الحمس[3]. ويوم عكاظ أجارت سبيعة بنت عبد شمس قبائل قيس، فقبل حرب بن أمية قائد قريش إجارة عمّته[4]. ورافقت النساء الرجال في بعض الحروب لتحميس المحاربين، كما فعلن في غزوة أحد.

وبلغت المرأة القرشية منزلة رفيعة من الرقي والتحضر، فكانت ترسل أولادها إلى المراضع كي تتفرغ لزوجها[5]، وكي ينشأ ولدها نشأة صحية سليمة. وعرفت المرأة القرشية بالعفة، فلم يعرف مجتمع قريش العلاقات الشاذة كالمخادنة والمضامدة التي عرفت في بعض القبائل[6]. وكان الزنا مستنكراً عند القرشية، ومما يدل على ذلك أن هند بنت عتبة استغربت قول الرسول (ص) لنساء قريش: «ولاتزنين» فقالت له: يارسول الله، هل تزني الحرة[7]؟ ويؤكد رفعة منزلة المرأة القرشية أن لها عيداً خاصّاً بها، فقد روى ابن عباس أن نساء مكة احتفلن في عيد كان لهن في رجب، فلم يتركن شيئاً من إكبار ذلك العيد إلاّ أتينه.

وفي صدر الإسلام نالت المرأة أعظم مظاهر التكريم والإعزاز، فقد ساوت شريعة الإسلام بين الرجل والمرأة، فأعطتها كل ما يتناسب مع الخلقة التي فطرها الله عليها.

---

(1) الأمالي ٢/١٠٤-١٠٥.

(2) انظر نهاية الأرب للنويري ١٠٣/٤.

(3) الحيرة ومكة ص٦٥، نقلاً عن مخطوط مختارات وفصول للجاحظ ص٦ ومابعدها.

(4) الأغاني ٦٧/٢٢-٦٩. وقد تسببت ريطة بنت عبد مناف في قيام حلف الفضول (نسب قريش ص١٥).

(5) الروض الأنف ١٦٧/٢.

(6) المخادنة والمضامدة ضربان من الزنا غير المستنكر عند بعض العرب (انظر المفصل في تاريخ العرب ١٤١/٥-١٤٢).

(7) الطبقات الكبرى ١٥/٨.

٢- القيم في مجتمع قريش

سادت مجتمع قريش بمجموعة القيم التي عرفها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. ولكن بيئة مكة في الجاهلية أعطت قيم قريش الاجتماعية خصوصية تمثّلت في تقدم القيمة المادية على العصبية القبلية والقوة، وفي بروز القيمة الدينية.

أ- القيمة الماديّة: أثّرت التجارة في تقدم القيمة المادية في مجتمع قريش، ولاسيما عند البطاح. فمناقب قريش في الجاهلية كانت بيد أغنيائها، وكان الفقر من أسباب انتقال تلك المناقب من يد إلى أخرى، وأكثر حلفاء قريش آثروا محالفة بطونها الغنية كبني عبد مناف وبني مخزوم[١]. وكانت البطون الفقيرة تقرّ بأنها أقل منزلة من الغنية، ومما يدل على ذلك قول سهيل بن عمرو العامري: «إنّ بني عامر لا تجير على بني كعب»[٢]. وبنت قريش علاقاتها مع غيرها على أساس المحافظة على مصالحها التجارية، فجنحت إلى مسالمة القبائل، ومن أجل تلك المصالح اشتد عداء قريش للإسلام حين تعرض المسلمون لقوافلها القادمة من الشام.

ومن الدلائل على علو منزلة القيمة المادية في قريش أن بعض النسوة كنّ يطلبن الطلاق لفقر الزوج[٣]، وأن بعض الفقراء كانوا يشعرون أن الأغنياء أكثر فائدة، وأنهم يستحقون لمالهم التقدير والفداء بالأرواح[٤]، وكان المال سبباً لقيام بعض القرشيين بمهام خطيرة جداً[٥].

وحافظ أغلب أغنياء قريش في صدر الإسلام على مكانتهم المميزة في قومهم، وكان المال من أسباب تقديرهم واحترامهم.

لكن القيمة المادية لم تكن المقدمة مطلقاً، فقد ساد بعض القرشيين في

---

(١) انظر هذا البحث ص٢٨.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢١. وبنو كعب أكثر غنى من بني عامر.

(٣) انظر نسب قريش ص٤٠٤.

(٤) انظر لذلك قصة نجاة حكيم بن حزام من الموت في بدر (جمهرة نسب قريش ١/٣٦٠-٣٦١).

(٥) انظر أنساب الأشراف ١/٣٠٤-٣٠٥.

الجاهلية لسداد رأيهم، ورفعة نسبهم كعتبة بن ربيعة[1]، وفي صدر الإسلام ساد بعض القرشيين وهم فقراء لسبقهم في الإسلام، ولملكاتهم القيادية، ولنسبهم، ومنهم عمر وعليّ رضي الله عنهما.

ب- **قيمة العصبية القبلية**: ثمة روايات تدل على ضعف العصبية القبلية عند قريش البطاح، ومن ذلكَ جبنها عن الثأر لقتلاها من بني عامر بن عبد مناة[2]. وأما قريش الظواهر فكانت متمسكة بقوة بالعصبية القبلية لتبديها، ولذا كانت تحرص على أخذ الثأر من أعدائها[3]. ومّما يؤكد الاختلاف في منزلة العصبية بين الظواهر والبطاح موقفهما من الإسلام، فالظواهر قاتلوا عصبية، والبطاح قاتلوا دفاعاً عن مكتسباتهم المادية في ظلّ الشرك[4].

لكن الواقع التجاري في مكة لم يلغِ طابعها القبلي، فضعفُ العصبية القبلية لدى قريش البطاح هو ضعف نسبي قياساً إلى قريش الظواهر. فالعصبية برزت لدى البطاح في مواقف كثيرة، ومنها أن قريشاً اتفقت على مقاطعة بني هاشم رهط الرسول(ص)، فدخل بنو هاشم وبنوا المطلب شِعب أبي طالب، وهم كما وصفهم علي بن أبي طالب بقوله: «مؤمننا يرجو بذلك الثواب، وكافرنا يحامي به عن الأصل»[5]. وحين هاجر الرسول إلى مكة تعاطف معه أكثر بني هاشم.

ج- **قيمة القوّة والبطولة**: إن حياة العرب في الجاهلية أوجبت عليهم إعلاء شأن البطولة، فهي أساس الحفاظ على كيان القبيلة، واستمرار التدفق لموارد رزقها، واحترام القبائل لها. واشتغال قريش بالتجارة التي تزدهر في ظل الأمن والسلام أضعف قيمة البطولة والقوة عندها. وحين وقع الصراع بين مكة والمدينة عظم أمر البطولة، وعلا شأنها للدفاع عن مصالح القبيلة. وقد تنامى شأن البطولة في قريش في صدر الإسلام، وتمثل ذلك في مشاركتهم النشطة في غزوات الرسول (ص) وفي حروب الرّدة، والفتوح الإسلامية والصراع على الخلافة.

---

(١) الخزانة ٣/٩٠-٩١.

(٢) الأغاني ٧/٢٨٦. ومن ذلك السكوت عن مقتل الحليف (انظر سيرة ابن هشام ٢/٤١-٤٤).

(٣) من ذلك مافعله مكرز بن حفص بن الأيف بقاتل أخيه (انظر سيرة ابن هشام ٢/١٨٤-١٨٥).

(٤) انظر موقف ضرار بن الخطاب من عمر بن الخطاب في أحد (طبقات فحول الشعراء ص٢١١).

(٥) وقعة صفين ص٩٠.

د- **القيمة الدينية:** كانت مكة في الجاهلية قبلة العرب، ومهوى أفئدتهم، إليها يحجون ولكعبتها يعظمون، وهذا مما دفع قريشاً إلى التدين، والاهتمام بأمور الدين ليكونوا جديرين بولاية البيت والقيام بأمره، فنظموا أمور الحج، وذللوا الصعاب التي تواجه الناس في أثناء الموسم، ولاسيما تأمين الطعام والماء للناس.

وعظمت منزلة قريش الدينية بعد إخفاق أبرهة الحبشي في احتلال مكة، وتدمير كعبتها عام ٥٧٠م، فقال العرب عن قريش لذلك: إنهم أهل الله، قاتل عنهم، ودحر أعداءهم[1]. واستفادت قريش من ذلك إذ أحاطت نفسها بهالة وثنية مقدسة، واستخدمت ذلك في تأمين مصالحها السياسية والاقتصادية عبر نظام الحمس، وقوامه أن يعظم العرب قريشاً، ومن دخل معها هذا النظام بأمور الدين، وغايته خدمة تجارة قريش وسياستها.

-٣-

حياه قريش السياسية

١- في الجاهلية

أصبح لقريش كيان قبلي موحد في منتصف القرن الخامس الميلادي، حين جمعها قصي بن كلاب، وأنزلها منازلها في مكة. واهتم بذلك الكيان أصحاب السيرة والتاريخ فتركوا لنا مادة وافرة من الأخبار التي تبرز ملامح علاقات قريش السياسية: الداخلية والخارجية في العصر الجاهلي.

أ- **علاقاتها الداخلية:** أوجدت قريش وضعاً سياسياً يرضي نوازع بطونها نحو السيادة وذلك بتوزيع المناقب على تلك البطون غير أن ذلك لم يمنع الصراع داخل قريش أحياناً.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤٤٧/١.

(١) مناقب قريش: جمع قصي أمر مكة إليه، وأصبح أوّل قرشِيّ يصيب ملكاً، ويطيعه قومه، فقد جمع إليه الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة، واللواء، والقيادة[١].

وهذه المناقب هي مفاخر قريش في الجاهلية.

-دار الندوة: بناها قصي بن كلاب لتقضي فيها قريش أمورها السياسية والحربية والاجتماعية المهمة. ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين، أو كان فتى معروفاً بنباهته[٢] . وقد وليها بعد قصي ابنه عبد الدار ثم بنو عبد الدار[٣] ؛ ثم انتقلت إلى بني أسد بن عبد العزى، وجاء الإسلام وهي بيد الثريّ حكيم بن حزام الأسدي[٤] . ومن الممكن أن يكون عجز بني الدار عن القيام بأعبائها من أسباب انتقالها إلى حكيم بن حزام.

- الحجابة: خدمة البيت وسدانته، ومع القائم بأمرها مفاتيح الكعبة، ولا تقام الشعائر الدينية إلاّ بمعرفته[٥] وقد وليها بعد قصي ابنه عبد الدار، وجاء الإسلام وهي في أبنائه[٦] .

- اللواء: هو راية قريش في حروبها، وقد ولي أمره بعد قصي أبناء عبد الدار، وجاء الإسلام، وهو في يد أبناء عبد الدار يليه منهم ذوو السن والشرف[٧]

- الرّفادة: خَرْج تدفعه قريش من أموالها في كل موسم حج إلى صاحب رفادتها ليصنع به طعاماً للمحتاج من الحجاج. وقد وليها بعد قصي ابنه عبد الدار، ثم انتقلت إلى بني عبد مناف، وجاء الإسلام وهي بيد أبي طالب[٨] .

---

(١) أخبار مكة ٦٢/١.

(٢) جمهرة نسب قريش ٣٥٤/١.

(٣) أخبار مكة ٦٢/١.

(٤) جمهرة نسب قريش ٣٥٤/١.

(٥) تاريخ العرب القديم ص٢٢٣.

(٦) أخبار مكة ٦٢/١.

(٧) المصدر السابق ٦٣/١.

(٨) المصدر السابق ٦٢/١-٦٣. وقيل: جاء الإسلام وهي بيد حكيم بن حزام (جمهرة نسب قريش ٣٥٤/١). وقيل غير ذلك (نسب قريش ص١١٢ والعقد الفريد ٣١٤/٣).

- السقاية: تأمين مياه الشرب للناس في موسم الحج، ولها أهمية كبيرة لندرة الماء في مكة. وصاحب السقاية يجلب الماء من آبار خارج مكة على ظهور الجمال إلى فناء الكعبة ثم تجمّع المياه في حياض من جلد ليشرب الناس منها. وقد وليها بعد قصي ابنه عبد الدار، ثم انتقلت إلى بني عبد مناف، وجاء الإسلام وهي في يد العباس بن عبد المطلب[1].

- القيادة: هي رئاسة قريش في المعارك، وقد وليها بعد قصي ابنه عبد الدار، ثم انتقلت إلى بني عبد مناف، وجاء الإسلام وهي في يد أبي سفيان صخر بن حرب[2].

واستحدثت قريش بعد موت قصي مناقب جديدة، استدعتها متطلبات الحياة، والرغبة في إرضاء مطامح بعض البطون. وأهم هذه المناقب مايلي:

- القبة: خيمة كبيرة كانت تضرب لتجمع فيها قريش العتاد الذي تجهز به جيشها.

- الأعنة: مهمة توكل إلى فارس من قريش، يكون مقدماً على فرسانها في الحرب. وجاء الإسلام والقبة والأعنة في يد خالد بن الوليد المخزوميّ[3].

- المشُوَرة: يراد بها عدم إجماع قريش على أمر إلا بعد عرضه على صاحب مشورتهم، فإن وافق رأيه رأيهم سكت، وإلاّ شغب في الأمر وخاصم حتى يرجعوا عنه، وجاء الإسلام وصاحبها يزيد بن زَمَعَة الأسديّ[4].

- السفارة: مهمة التفاوض مع القبائل في الحروب باسم قريش، وصاحبها يمثل القبيلة في المناظرات والمفاخرات، وجاء الإسلام وهي بيد عمر بن الخطاب العدوي[5].

- الأشناق: الديات. وكان صاحبها إذا حمل دية صدّقته القبيلة، وأمضت حمالته، وحمالة من قام معه، ولا تقرّ لغيره بذلك. وجاء الإسلام وهي بيد أبي بكر

(١) أخبار مكة ١/٦٢-٦٥.

(٢) المصدر السابق ١/٦٦.

(٣) العقد الفريد ٣/٣١٤.

(٤) جمهرة نسب قريش ١/٤٧١.

(٥) الاستيعاب ص١١٤٥.

الصديق التيمي[1] .

- العمارة: هي عمارة الكعبة بالخير، وصاحبها لا يدع أحداً يسبّ في البيت الحرام، ولا يقول فيه سوءاً وهذه المنقبة أحدثت بسبب بعض التصرفات التي دفعت سادة قريش إلى الاجتماع وإحداثها، وسلموها إلى العباس بن عبد المطلب[2] .

- الأيسار: هي الأزلام، ومهمة صاحبها أن يشرف على السهام التي يستقسم بها لمعرفة رأي الآلهة في الأمور التي تستخار فيها[3] . وكانت في بني جمح، وجاء الإسلام وهي في يد صفوان ابن أمية الجمحي[4] .

- الأموال المُحَجَّرَة: هي أموال تسميها قريش لآلهتها، وجاء الإسلام وصاحبها الحارث بن قيس السهمي[5] .

إن توزع مناقب قريش على النحو المذكور دفع المستشرق (لامنس) إلى القول: إن مكة جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية. ويرى د محمد بيومي مهران أن قول (لامنس) مبالغ فيه، وأن تنظيم قريش قبلي في جوهره، وإن بدا في الظاهر تنظيماً جمهورياً[6] .

(٢) الصراع داخل قريش: كان التنافس يقع بين بطون قريش، ويصل إلى درجة الصراع المسلح أحياناً، في ظل الافتقار إلى السلطة المركزية الفاعلة التي يمكن لها أن تخضع أبناء القبيلة. وأدى الصراع الداخلي إلى ظهور أحلاف داخل قريش، أبرزها حلفان هما: المطيبون والأحلاف. ويرجع وجودهما إلى مطالبة بني عبد مناف بالمناقب التي ورثها بنو عبد الدار من قصي بن كلاب؛ فقد اعتقد بنو عبد مناف أنهم أحق بحيازة تلك المناقب لشرفهم وفضلهم في قريش، فانقسمت القبيلة

---

(١) العقد الفريد ٣/٣١٤.

(٢) الاستيعاب ص٨١١.

(٣) تاريخ العرب القديم ص٢٢٦.

(٤) العقد الفريد ٣/٣١٤.

(٥) المصدر السابق ٣/٣١٤.

(٦) دراسات في تاريخ العرب القديم ص٤٠٨.

فريقين، وتناهد القوم إلى القتال، ثم تداعوا إلى الصلح، وأعطي بنو عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة(١) .

ومن الصراع داخل قريش ما وقع بين بني عبد شمس وبني عديّ، وفيه قتل من الفريقين ناس، وحالف بنو عدي بني سهم، وساكنوهم، بعد أنْ باعوا أكثر رباعهم (منازلهم)(٢) . وتقاتل بنو زهرة مع بني عبد مناف، وبنو عدي مع بني جمح، وأصلح بين المتخاصمين في الصراع قيس بن عدي السهمي(٣). ومن المرجح أن الخلاف على السكن كان سبب الصراع بين تلك البطون(٤) .

وكان عداء بعض القرشيين للإسلام يمثل مظهراً من مظاهر الصراع داخل قريش. فبعض البطون رأت في النبوة مفخرة تضاف إلى بني هاشم. وهذا يفسر وقوف أغلب بني هاشم وبني عبد المطلب مع الإسلام، وأكثرهم من المشركين، وبالمقابل نجد أن أغلب بني مخزوم ـ مثلاً ـ حاربوا الإسلام بضراوة؛ يقول أبو جهل المخزومي: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنّا كفرسَي رهان قالوا: منا نبيّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه»(٥) .

ب- **علاقاتها الخارجية**: إن اهتمام قريش بسلامة قوافلها التجارية دفعها إلى توثيق صلاتها بالقبائل والدول التي تصل تجارتها إليها، كما دفعها إلى ذلك رغبتها في المحافظة على مركزها الديني بين العرب.

(١) علاقاتها بالقبائل: عظمت منزلة قريش في الجاهلية دينياً واقتصادياً، ولاسيما بعد أن حال الله بين الأحباش ودخول مكة، فقال العرب عن قريش:

---

(١) سيرة ابن هشام ١/١٢٠-١٢٢. وقيل في تسمية الحلفين غير ذلك (انظر الروض الأنف ٢/٦٧).

(٢) أخبار مكة ٢/٢١٠-٢١١.

(٣) نسب قريش ص٤٠١.

(٤) لعبد الله بن الزبعرى أبيات تشير الى ذلك (جمهرة نسب قريش – مخطوط ص١٨٤/ب).

(٥) سيرة ابن هشام ١/٢٧٦.

أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم[1]. ومما يؤكد منزلة قريش الرفيعة بين القبائل تحاكمهم إليها في منافراتهم[2]، وتسليم أسلحة من يؤم سوق عكاظ، وموسم الحج إليها[3]، وسعي بعض القبائل إلى التحالف معها[4]، وتخفّر التجار الذين يؤمون سوق المشقر بها، وكذلك تخفّر الذين يخرجون من اليمن بها، ماداموا في بلاد مضر[5].

(أ) علاقاتها السلمية: أشرنا سابقاً إلي أثر الحياة التجارية والدينية في ميل قريش إلى مسالمة القبائل. وتظهر علاقاتها السلمية بالقبائل بشكل واضح في نظامي الحمس والإيلاف، وفي تحالفات بين قريش وبعض القبائل، وفي حلف الفضول.

ونظام الحمس تحالف ديني ينطوي على أهمية سياسية كبيرة. عقد هذا التحالف عام الفيل (٥٧٠م) ويضمّ «قريشاً كلها، وخزاعة لنزولها مكة، ومجاورتها قريشاً، وكلّ من وَلدت قريش من العرب، وكل من نزل مكة من العرب»[6]. وقد عَزّز هذا النظام نفوذ قريش السياسي والديني، ولقي لذلك مقاومة من بعض القبائل، ومنها غطفان، التي بنت حرماً في أرضها لتضاهي به الكعبة، فهاجمهم زهير بن جناب الكلبي وحطم حرمهم[7]. وتتضح أهمية هذا النظام حين نعلم أن بني كلب، قوم زهير كانوا من الحمس. وقام هذا النظام بدور رئيس في تأمين سلامة الطرق التجارية لقريش، ويظهر ذلك في توزع أراضي بعض القبائل المنضوية تحت لواء ذلك النظام، «فقد سكنت ثقيف في جنوب شرقي مكة، وكنانة في الجنوب، حيث تسيطر على طريق مكة ـ اليمن، وعامر بن صعصعة في شمال شرقي مكة، وقضاعة (كلب) في الشمال تسيطر على طريق التجارة إلى

---

(١) الكامل لابن الأثير ٤٤٧/١.

(٢) الأغاني ٢٨٧/٦.

(٣) المصدر السابق، ٥٩/٢٢. وكانت قريش ترد الأسلحة الى أصحابها بعد فراغهم من أسواقهم وحجهم

(٤) سعت الأوس الى عقد حلف مع قريش ضد الخزرج فأبت قريش (أنساب الأشراف ٢٣٨/١).

(٥) المحبر ص٢٦٤-٢٦٥.

(٦) المصدر السابق ص١٧٨-١٧٩.

(٧) الأغاني ١٥/١٩-١٦.

سورية ويربوع ومازن تسيطران على طريق الحيرة وفارس»[١] . ونـاقش المستشرق (م.ج كستر) هذا النظـام بإسهاب في مقالته (مكـة وتميـم) وخلـص إلى أن المبـدأ الأساسي لنظام الحمس هو عدم انتهاك منطقـة الحـرم، واستقلال مكـة وحيادهـا، وسلامة الطرق التجارية[٢] .

ونظام الإيلاف يهـدف إلى تـأمين سـلامة طـرق قريـش التجاريـة مـن غـزو القبائل. ويرى (كستر) أن الإيلاف نظام مكمل للحمس، فهو يحمـي القوافـل مـن قبائل لا تحترم الأشهر الحرام مثل طيّيء وخثعم، وأفخاذ مـن قضاعـة، وغفـار مـن كنانة، فكانت قريش تعطيها نصيباً من الأرباح لتدع القوافل آمنة[٣] .

ومن علاقات قريش بالقبائل تحالف بطن منها مع بطن من قبيلـة أخـرى[٤] . ومن المرجح وجود عامل اقتصادي وراء هذه التحالفات؛ فبنو شيبان من سُليم بـن منصور حالفوا بني هاشم، وربما كان هذا الحلف وسيلة لتسويق المعادن المستخرجة من أراضي بني سليم[٥] .

وتحالفت قريش مع الوافدين إلى مكة من الأفراد والأسر، وكثر تحالف هؤلاء مع بني هاشم[٦] وبني عبـد شمـس[٧] وبـني مخـزوم[٨] وبـني نوفـل[٩] .وهـذه البطـون

---

(١) الحيرة ومكة ص٦٣.

(٢) المصدر السابق ص٦٠ ومابعدها.

(٣) المصدر السابق ص٦٣-٦٤.

(٤) انظر بعض هذه التحالفات في سيرة ابن هشام ٤١/٢، وحذف من نسب قريش ص٢٩، وجمهرة أنساب العرب ص١٧٩، ونسب قريش ص١٩٨-١٩٩.

(٥) ذكر وجود المعادن في أراضي سليم. انظر معجم البلدان: معدن بني سُليم.

(٦) انظر مثلاً حذف من نسب قريش ص٢٩، ونسب قريش ص١٩٨-١٩٩، والطبقات الكبرى ٤٧،٣ والاشتقاق ص٣١١، وأخبار مكة ١٨٨/٢.

(٧) انظر حذف من نسب قريش ص٢٣، ونسب قريش ص١٢٣، وأنساب الأشراف ١٩٩/١-٢٠٠ والطبقات الكبرى ٨٩/٣-٩٧ و١١٦/٤، والمعارف ص١٥٦، وأخبار مكة ١٩٩/٢.

(٨) انظر الطبقات الكبرى ٢٦٤/٣ و١٣٦/٤ والمعارف ص٢٥٦، وأنساب الأشراف ٢٩٦/١، ٢٩٩-٣٠١، وأخبار مكة ٢٠٨/٢.

(٩) انظر حذف من نسب قريش ص٤٤ و٥١، والطبقات الكبرى ٩٨/٣ ١٢٣/٤، وأنساب الأشراف ٩٨/١-٢٠١ وأخبار مكة ٢٥٤/٢-٢٥٥.

عرفت بالغنى، وهذا يعني أن العامل الاقتصادي الذي يحقق منافع متبادلة كان سبباً رئيساً لعقد تلك التحالفات. ومن النادر أن يكون سبب التحالف طلب الوافد للحماية والأمن عند قريش كتحالف حرب بن أمية مع البّراض بن قيس الكناني(١).

وحين وقعت في مكة بعض المظالم على الوافدين إليها. دعا بعض عقلاء قريش إلى التحالف والتناصر لمؤازرة من يظلم بمكة وسموا تحالفهم حلف الفضول. ومن الذين دعوا إليه عبد الله بن جدعان التيمي، والزبير بن عبد المطلب الهاشمي، وقد شهده الرسول (ص) قبل البعثة(٢). واستطاع هذا الحلف أن يضمن استمرار التوافد إلى مكة، وأن يمتّن صلات قريش الحسنة بالقبائل.

(ب) علاقاتها الحربية: سكنت قريش البطاح بجوار البيت، واشتغلت بالتجارة فلانت نفوسها، وسعت إلى السلام، وتجنبت الحروب والغارات حتى دعيت بالضّب للزومها الحرم(٣). وأما قريش الظواهر فكان الغزو وسيلة رئيسة لمعاشها ولذا كانت في حالة حرب مع القبائل المجاورة، واشتهر الظواهر بكثرة غاراتهم حتى دعي بنو معيص بن عامر وبنو محارب بن فهر بالأجربين لشدة بأسهما، وإلحاقها الشرّ بأعدائهما مثلما يلحق الجرب الشرّ بمن يصيبه(٤). ولقريش الظواهر أيام ورد ذكرها في بعض المصادر(٥).

لكن قريشاً كلها أجبرت على خوض بعض المعارك دفاعاً عن منازلها، ومصالحها، ومن ذلك تصديها لقبيلة تميم التي وثبت على البيت الحرام قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً، وإلحاقها الهزيمة بتميم(٦).

---

(١) الأغاني ٢٢/٥٦-٥٧. وانظر حلفا مشابها في أنساب الأشراف ١/٤٣٤.

(٢) عقد حلف الفضول منصرف قريش من الفجار، للتفصيل انظر الأغاني ١٧/٢٨٧ ومابعدها. والدولة العربية الكبرى ص٦٧-٦٨.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢/٢١.

(٤) الأغاني ٥/٧٣. وانظر لحروب الظواهر طبقات فحول الشعراء ص٢٠٩، وجمهرة أنساب العرب ص١٦١ و١٦٩.

(٥) انظر نسب قريش ص٤٣٩، وجمهرة أنساب العرب ص١٦٩.

(٦) الأغاني ٩/٣٢٨.

وحين شعرت قريش بالحاجة إلى القوة المقاتلة عقدت حلف الأحابيش. والروايات عن هذا الحلف كثيرة، وأقربها إلى المنطق رواية المصعب الزبيري حيث قال: إن بني الهون بن خزيمة، وبطنين من خزاعة هما: الجيا والمصطلق - حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهم كلهم يقال لهم: الأحابيش، أحابيش قريش، لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة على بني بكر بن عبد مناة، فبنو الحارث وحلفاؤهم هم حلفاء لقريش[1]. ويرى بعض القدماء والمحدثين أن الأحابيش جالية كبيرة، تنسب إلى الحبشة وأنهم سود البشرة، اشتراهم أثرياء مكة للعمل في مختلف الأعمال ولخدمتهم[2]. وهذا الرأي مبني على التقارب اللفظيّ بين أحابيش وحبشة، فهم «ليسوا من الحبشة كمايتوهم بعضهم»[3]. وقد سمّوا الأحابيش باسم جبل بأسفل مكة، اجتمعوا بجنبه وتحالفوا، وقيل: سموا بذلك لاجتماعهم، والتّجمّع في كلام العرب هو التحبّش[4]. وساند الأحابيش قريشاً، ولم يكونوا تبعاً لها[5].

وأشهر حروب قريش في الجاهلية كانت مع كنانة، ومع قيس عيلان، ثم مع المسلمين قبل فتح مكة.

(الصراع مع كنانة): جمع نظام الحمس وحلف الأحابيش بين قريش وأغلب بطون كنانة. ولكن ذلك لم يمنع الصراع بين قريش وبعض بطون كنانة.

كان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة مبغضين لقريش لأن قصيّاً قهرهم، وأخرجهم من مكّة. وفي عهد عبد المطلب أراد بنو بكر إخراج قصيّ من الحرم، فجمعت قريش جموعها، وعقدت حلف الأحابيش، وخرجت بهم لمقاتلة بكر، فالتقى الجمعان بذات نكيف خارج مكة، فانهزم بنو بكر، ولم يعودوا إلى حرب

---

(١) نسب قريش ص٩.

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ١٩٨/٤.

(٣) نهاية الأرب للقلشندي ص١٦٤.

(٤) المعارف ص٦١٦.

(٥) كانت قريش تحترم رأي الأحابيش المخالف لها (انظر سيرة ابن هشام ٢٠٠/٣).

قريش[1] . وجاء الإسلام والتئام لأزالت بين الفريقين[2] . والمرجح أن استحكام العداء بين الطرفين أبعد بني بكر عن نظام الحمس.

وقتل بنو عامر بن عبد مناة بن كنانة - وهم من الحمس - قرابة عشرين رجلاً من قريش، لأنهم أخفوا في رحالهم في أثناء مرورهم بديار بني عامر رجلا من أعداء بني عامر وأرادت قريش أن تقاتل بني عامر فخذلها الأحابيش، فاستكانت قريش، ولم تفعل شيئاً[3] . وهذا دليل على ضعف نظام الحمس؛ فالصراع وقع بين أطرافه، وعلى استقلالية الأحابيش عن قريش استقلالية تنفي التبعية، وتؤثر في مقدرة قريش الحربية.

(الصراع مع قيس عيلان): أطلق على هذا الصراع اسم حروب الفجار، لأنّ المشتركين فيها انتهكوا قدسية الأشهر الحرم، ومنطقة الحرم[4] . وهي فِجاران: الأول ثلاثة أيام شاركت قريش في أحداث الآخرين منها. وسبب اليوم الثاني فتية من قريش آذوا امرأة من بني عامر بن صعصعة فاقتتلت قريش وهوازن، ثم توسط حرب بن أمية، واحتمل دماء القوم، وأرضى بني عامر. وفي اليوم الثالث تقاتلت كنانة وهوازن ولم تقع دماء، وفيه تحمل عبد الله بن جدعان التيمي القرشي غرم المتحاربين[5] .

والفجار الثاني أعظم من الأول، وهو خمسة أيام في أربع سنين. وسببه أن البراض بن قيس الكناني حليف حرب بن أمية القرشي قتل عروة الرحال سيد هوازن في عكاظ، فانطلقت قريش من سوق عكاظ سرّاً إلى مكة لتجنب الاشتباك

---

(1) الكامل لابن الأثير ١/٥٨٧، ٥٨٨. وذكر أن الأحابيش كانوا يوم ذات نكيف مع بني بكر على قريش (أخبار مكة ١/٦٦). وهذا وهم لأن من المتعذر على قريش أن تنتصر وحدها على بني بكر والأحابيش معاً، ولأن أكثر الروايات تتحدث عن مقاتلة الأحابيش مع قريش آنذاك. وذات نكيف: موضع على ليلتين أو ثلاث من مكة (معجم البلدان. ذات نكيف، ويلملم).

(2) انظر سيرة ابن هشام ٢/١٨٤.

(3) انظر الأغاني ٧/٢٨٦.

(4) انظر الكامل للمبرد ص١١٧٨.

(5) انظر الأغاني ٢٢/٥٥-٥٦. وقيل: إن الفتية الذين آذوا العامرية كانوا من كنانة.

مع هوازن ولكن هوازن لحقت برجال قريش في نخلة(١) فاقتتل الفريقان حتى دخلت قريش الحرم وجنّ الليل، وتواعد المتقاتلون هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ، وكان ذلك سنة ٥٨٥م. وبعد عام التقى الجمعان بموضع (شَمْطَة) من عكاظ، ومع قريش كنانة والأحابيش، ومع هوازن سليم وأحلافهم فانهزمت قريش ومن معها، ثم التقى الجمعان بعد عام في (العبلاء) فانهزمت قريش وحلفاؤها أيضاً، ثم التقوا بعد عام آخر في (شَرِب) وقد جمعت قريش كلّ قوتها، وثبت في هذا اليوم بنو أمية، وبنو مخزوم، وظهرت بطولتهم، وانتهى هذا اليوم بهزيمة منكرة لقيس عيلان، فاستجارت قبائلها بخباء سبيعة بنت عبد شمس القرشية، وكانت تحت مسعود بن معتب الثقفي، فأجارتهم، وأجاز حرب بن أمية قائد قريش إجارة عمّته، فالتفت قيس حول خباء سبيعة، وقيل لذلك الموضع مدار قيس، ثم التقى الجمعان بعد عام في الحريرة، فكان قتال قليل انتهى بالصلح، وبه انقضت حروب الفجار(٢).

(الصراع مع الإسلام): خاضت قريش معارك دامية مع المسلمين دفاعاً عن مصالحها وامتيازاتها. واتخذ هذا الصراع طابعاً داخلياً من جهة الصراع بين المسلمين والمشركين من قريش، وطابعاً خارجياً من جهة الصراع بين المشركين: قريش وحلفائها، والعرب المسلمين، ولاسيما الأوس والخزرج. وأبرز أحداث هذا الصراع غزوة بدر الكبرى(٢هـ)، وفيها انتصر المسلمون، وتلتها غزوة أحد (٣هـ)، وكانت لصالح قريش التي استعانت فيها بأحابيشها، وتلتها غزوة الخندق (٥هـ)، وهي غزوة الأحزاب الذين بلغوا عشرة آلاف مقاتل من قريش وأحابيشها وحلفائها، ومن غطفان وحلفائها ومن اليهود، وفيها اندحر الأحزاب بعد أن حاصروا المسلمين أكثر من شهر. وفي العام السادس الهجريّ عقد صلح الحديبية بين المسلمين وقريش، ثم نقضت قريش شروط الصلح، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مقاتل قاصداً فتح مكة، فدخلها دون مقاومة تذكر (٨هـ). وبذلك كتبت نهاية العصر الجاهلي في مكة، وأسلم مشركوها، وعادت

---

(١) موضع قريب من مكة، فيه نخل وكروم (معجم البلدان: نخلة).

(٢) انظر لحروب الفجار الأغاني ٢٢/٥٦-٧٣، وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٤/٣٧٣-٣٧٤.

الوحدة إلى صفوف قريش بعد صراع دامٍ امتد قرابة عقد من الزمن، وترك في نفوس الكثيرين آلاما، وفي قلوبهم حزازات امتد أثرها إلى عصور تالية.

(٢) علاقاتها بالدّول: رسمت تجارة قريش قنوات اتصالاتها بالدول المحيطة بالجزيرة العربية. فمكة مركز تجاري مهم عند العرب، وعند الفرس والروم آنذاك. وكانت أهمية مكة تزداد حين يشتد الصراع بين الفرس والروم، إذ تصبح طريقاً لا غنى عنه لمرور التجارة بين الشرق والغرب. وقوّى ذلك المركز استقلال مكة، وحيادها. وكان في مكة بيوتٌ رومانية استخدمت للتجارة، ورعاية مصالح الروم، والتجسس على أحوال العرب، كما وجد فيها أحباش وفرس وأنباط لرعاية مصالح أقوامهم(١). وبداية علاقات قريش الرسمية بالدول كانت حين خرج أولاد عبد مناف من مكة وأخذوا الإيلاف لقريش من الروم وأتباعهم، ومن الفرس وأتباعهم.

(أ) علاقاتها بالروم وأتباعهم: أخذ هاشم بن عبد مناف الإيلاف لقريش من سادة الشام، الروم والغساسنة، ووصلت تجارة قريش إلى بلاد الشام، وامتدت من فلسطين إلى مصر(٢). وأخذ عبد شمس بن عبد مناف الإيلاف لقريش من النجاشي ملك الحبشة(٣)، وكانت الحبشة آنذاك في حالة التبعية الدينية والسياسية للروم. وأخذ عبد المطلب بن عبد مناف الإيلاف لقريش من أقيال اليمن(٤)، وكانت تحت سيطرة الأحباش الذين احتلوها عام ٥٢٥م.

خاول الروم وأتباعهم السيطرة على مكة، فقد حاول أبرهة الحبشي أن يستولي عليها عام ٥٧٠م، وأخفق على النحو الوارد في القرآن الكريم(٥). وعلى الرغم من ذلك ظلت التجارة مزدهرة بين مكة والحبشة(٦)، وكانت العلاقة بين

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لأحمد هبو ص٣٠٩-٣١٠.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/٢٥٣، وفتوح مصر وأخبارها ص٤٩-٥٠.

(٣) تاريخ الطبري ٢/٢٥٢.

(٤) ذيل الأمالي والنوادر ص٢٠٠.

(٥) سورة الفيل. وانظر أخبار مكة ١/٨٥-٩١، وتاريخ العرب القديم ص١٠٥-١٠٦.

(٦) انظر الأغاني ٩/٥٥-٥٦.

قريش والنجاشي حسنة ومما يدل على ذلك أن رجال قريش كانوا يتحاكمون إليه، وأنه كان يتجنب الحكم، مؤثراً الجياد، وحسن العلاقة[1] .

وحاول الروم بسط سيطرتهم على مكّة مستخدمين رجلاً كان يطمح إلى السيادة على مكة. روي أن عثمان بن الحويرث الأسدي القرشي قصد قيصر ـ كذا في الروايات ـ وذكر له مكة، وَرَغّبَه فيها، وقال له: تكون زيادة في ملكك، كما ملك كسرى صنعاء فملّكة قيصر على مكة، وكتب الى قريش بذلك فلما قدم عثمان على قريش قال: ياقوم إن قيصر من قد علمتم أمانكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وإنّما أنا ابن عمكم، وأخاف إن أبيتم أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا فيه. فخافت قريش القيصر، وأجمعت على تمليك عثمان، ثم تأبّت عليه، فلحق بقيصر ليعلمه. والظاهر أن القرشيين اتصلوا بالغساسنة في الشام، وطلبوا منهم المساعدة في إفساد أمر عثمان عند الروم، ويدل على ذلك أن الغساسنة حاولوا الإيقاع بعثمان عند القيصر، وأن المحاولة انتهت بمقتل عثمان بالسمّ عند الغساسنة[2] . وبذلك ساهم الغساسنة في بقاء مكة بعيدة عن النفوذ الرومي، يدفعهم إلى ذلك الرابطة القومية أو الخوف من وجود منافس عربي لهم عند الروم أو كلا الدافعين.

(ب) علاقاتها بالفرس وأتباعهم: روي أن الفرس حاولوا فرض نفوذهم على مكة عن طريق نشر المزدكية فيها، ولكن مكة قاومت ذلك بقيادة عبد مناف بن قصيّ الذي جمع قومه، وأخبرهم أنّه لن يتخلّى عن دين إسماعيل[3] . وبذلك حافظت مكة على استقلالها. ولم تمنع هذه المحاولة قريشاً من توثيق صلاتها التجارية بالفرس، فقد أخذ نوفل بن عبد مناف الإيلاف لقريش من الفرس، وبذلك وصلت تجارة قريش إلى أرض العراق وفارس[4] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٢٥٣.

(٢) جمهرة نسب قريش ١/٤٢٥ ومابعدها.

(٣) الحيرة ومكة ص١٠-١١، نقلاً عن نشوة الطرب، مخطوطة توبنجن، الورقة ٩٦.

(٤) انظر تاريخ الطبري ٢/٢٥٢.

واتصلت قريش بملوك الحيرة الموالين للفرس، ووثقت صلاتها بهم[1]. ومن اللافت أن قريشاً كانت تميل إلى الفرس في صراعهم مع الروم. فأصحاب التفاسير يذكرون في تفسير الآيات الأولى من سورة الروم، أن الفرس تغلبوا على الروم في أثناء احتدام الجدل بين المسلمين والمشركين في مكة، وأن مشركي مكة وجدوا في ذلك انتصاراً للوثنية على الذيانة السماوية (المسيحية)، وأن صدورهم انشرحت لذلك[2]. وهذا الموقف من الصراع لا يلغي حياد مكة، لأنها لم تتخذ على أرض الواقع أي موقف داعم للفرس. وسبق لقريش أن اتخذت موقفاً سياسياً أظهرت فيه العداء للروم، فقد أرسلت إلى اليمن وفداً لتهنئة سيف بن ذي يزن بانتصاره بمساعدة الفرس على الأحباش حلفاء الروم عام ٥٧٥م[3]. ويشير إرسال هذا الوفد إلى تلاقي المصالح في معاداة الأحباش الذين حاولوا السيطرة على مكة، وإلى إرهاصات الوعي القومي الذي يشدّ عرب الشمال إلى عرب الجنوب.

٢- في صدر الإسلام

انطلق المسلمون بزعامة قريش ينشرون الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ويوحدون عرب الجزيرة لأول مرّة تحت ظل حكومة مركزية، عاصمتها المدينة المنورة، ويفتحون بلاد الشام والعراق ومصر وفارس، ولم تكد حركة الفتوح تهدأ حتى قتل عثمان رضي الله عنه، وانقسم العرب والمسلمون إلى فئات متصارعة على الخلافة، وكان لقريش في كلّ ذلك دور القيادة والزعامة.

أ - علاقاتها الداخلية: حكمت العلاقات الداخلية بين بطون قريش في صدر الإسلام ظاهرتان رئيستان هما: الصراع على الخلافة، والتعصب القبلي.

(١) الصراع على الخلافة: تولى أبو بكر الصديق التيميّ القرشي الخلافة، وكان عمر بن الخطاب العدوي أول المبايعين له، ثم تتابع الناس بعده. ويقال: إن بعض القرشيين لم ترق لهم تلك البيعة، ولاسيما بني قصي بن كلاب[4]. وكان بنو

---

(١) انظر مايدل على هذه الصلات الأغاني ٤/٥٠ و١١/٤٤.

(٢) انظر جامع البيان ٢١/١١-١٥، والجامع لأحكام القرآن ٤/١-٣.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٥٥ ومابعدها.

(٤) انظر تاريخ الطبري ٣/٢٠١-٢٠٣.

عبد مناف أكثر بني قصي إحساساً بالغبن[1] ، وأثار بعضهم الشغب، ومن هؤلاء أبو سفيان بن حرب الذي أعلن أن الخلافة يجب أن تكون في بني عبد مناف وليس في بني تيم، لأنهم أذلّ قريش[2] ، ودعا إلى نقض بيعة أبي بكر، وإلى مبايعة علي بن أبي طالب، ولو بالسيف[3] ، واتهم بني تيم وبني عديّ بالتآمر لإقصاء بني هاشم عن الخلافة[4] !! واهتمام أبي سفيان بأحقية بني هاشم بن عبد مناف بالخلافة يمهد لأحقية أبناء عمومتهم، بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بها. فلم يكن باستطاعة أبي سفيان ان يدعو لبني أمية دون بني هاشم ولاسيما أن بني أمية قادوا معسكر المشركين في عصر البعثة.

عظمت منزلة بني أمية في قلوب الناس لمشاركتهم النشطة في حركة الفتوح، ولقدرتهم على استمالة الناس إليهم، ولأنّ لبعض رجالهم فضلاً عظيماً في الإسلام، ومنهم عثمان بن عفان، الذي ولي الخلافة بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ومن المعروف ان رجال الشورى الذين اختارهم عمر قد حصروا الترشيح للخلافة بين رجلين: عثمان الأمويّ، وعليّ الهاشمي قبل أن يسندوها إلى عثمان، وعلى الرغم من مبايعة عليّ لعثمان فقد أسندت إلى علي أقوال، ورويت عنه أخبار تشير إلى امتعاضه[5] .

أثارت سياسة عثمان استياء بعض المسلمين، وأدى ذلك إلى مقتل عثمان رضي الله عنه بمشاركة بعض القرشيين، وتولى عليّ بن أبي طالب الخلافة. لكن الفتنة لم تهدأ، بل تشعبت، وانقسم العرب المسلمون فرقاً يرأسها سادة قريش، فعليّ الهاشمي أمير المؤمنين بالمدينة، وطلحة التيمي، والزبير الأسدي - ومعهما عائشة أم المؤمنين التيمية - في العراق لتأليب الناس على عليّ، ومعاوية بن أبي

---

(1) انظر تاريخ الطبري ٢٠٧/٣ ومابعدها، والعقد الفريد ٤/٢٥٩-٢٦٠.

(2) أنساب الأشراف ٥٨٨/١.

(3) تاريخ الطبري ٢٠٩/٣.

(4) العقد الفريد ٢٥٧/٤. ارتقى أبو بكر الى الخلافة بالإسلام، ولذا دهش الذين في نفوسهم بقايا الجاهلية، ومنهم والد أبي بكر، الذي قال حين سمع بولاية ابنه: «فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة» (الاستيعاب ص٩٧٦).

(5) انظر تاريخ الطبري ٤/٢٢٨-٢٣٣.

سفيان الأمويّ بالشام يطالب بدم عثمان، ولا يقرّ لعليّ بالخلافة، ويتهمه بالتآمر مع قتلة عثمان، وانقسم ولاة الأمصار - وأغلبهم من قريش - انقسموا بين مؤيد ومعارض لهذا الفريق أو ذاك.

بلغ الصراع ذروته في وقعة الجمل عام ٣٦ھ، وفيها انتصر علي، وقُتل طلحة والزبير، ثم في وقعة صفين عام ٣٧ هـ التي انتهت برفع جند معاوية للمصاحف، ودعوتهم إلى التحكيم، فقبل علي بذلك. لكن التحكيم انتهى بالحيلة لصالح معاوية، واستمر الخلاف بين الفريقين حتى قتل الخوارج علياً عام ٤٠ هـ، وبذلك انقضى عصر صدر الإسلام، وبدأ فصل جديد من التاريخ مع بني أمية.

(٢) العصبية القبلية: ظهرت العصبية في بني هاشم وبني أمية خاصة. ووضحت عصبية بني أمية بعد تولّي عثمان للخلافة إذ حرصوا على حصر مقاليد السلطة بأيديهم، فقد دخل ابو سفيان بن حرب على عثمان، وقال له: «إنّ الأمرَ أمرُ عالمية، والملك ملك جاهلية، فاجعل أوتاد الأرض بني أمية»[١]. والواقع التاريخي يظهر اعتماد عثمان على أقاربه في إدارة شؤون الدولة، فقد ولّى الوليد ابن عقبة الأموي الكوفةَ، ثم حدّه بالشراب واستبدل به سعيد بن العاص الأمويّ، وجعل على البصرة عبد الله بن عامر الأموي، وأبقى معاوية بن أبي سفيان الأموي على دمشق والأردن، ثم ضمّ إليه بقية أمصار الشام، كما جعل على مصر أخاه في الرضاع عبد الله بن أبي سرح، وأخذ على عثمان رضي الله عنه أنّه آوى الحكم بن أبي العاص طريد الرسول صلى الله عليه وسلم[٢]، وأنّه أغدق الأموال على أقاربه، وأقطعهم الأراضي[٣]. وقد أثار التعصب لبني أميّة حفيظة قريش إثارة أدت إلى مشاركة بعضهم في مقتله. وحين استلم علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة ولّى أبناء عمّه العباس بن عبد المطلب، فجعل على البصرة عبد الله، وعلى البحرين وما يليها واليمن ومخاليفها عبيد الله، وعلى الطائف ومكة قُثَم[٤]. لكنّ عَلِيّاً كان

---

(١) الأغاني ٦/٣٥٥.

(٢) العقد الفريد ٤/٢٨٣-٢٨٤

(٣) المصدر السابق ٤/٢٨٣.

(٤) تاريخ الطبري ٥/١٥٥-١٥٦.

متشدّداً مع ولاته، حريصاً على مراقبتهم، وإبعادهم عن الشبهات.

ب – علاقاتها الخارجية: ظلت الكيانات القبلية في صدر الإسلام محتفظة بوجودها. وكان للقبائل دور حاسم في صنع الأحداث السياسية. ومن هذا المنطلق سننظر في علاقات قريش بالقبائل العربية.

كان التعصب على قريش في عصر البعثة عاملاً مهماً في محاربة الإسلام، فبعض العرب رأى في انتشار الإسلام انتشاراً لنفوذ قريش[1]، وحين قبض الرسول صلى الله عليه وسلم كاد الخلاف يقع بين المهاجرين والأنصار على الخلافة، وقد دافع المهاجرون (القرشيون) عن حقهم بالخلافة بمثل قول أبي بكر الصديق: «لن تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش وهم أوسط العرب نسباً وداراً»[2]. وكان إقرار العرب بمنزلة قريش الرفيعة بينهم سبباً رئيساً من أسباب مبايعة أبي بكر بالخلافة. ولكن بعضهم رأى في خلافة أبي بكر سيطرة قرشية، ودار في خلد بعض زعماء القبائل أنّهم أحقّ بالرئاسة من قريش، وكان ذلك من أسباب حروبّ الرّدة التي انتهت بتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، وإمرة أبي بكر الصديق.

وخرج المسلمون إلى الفتح بقيادة عظماء قريش، ولم ير العرب الفاتحون في ذلك غضاضة، ولكن الأمر اختلف حين هدأت حركة الفتح، وظهر تعصب قريش لنفسها، واستئثارها بالسلطة، وبموارد الدولة في أواخر خلافة عثمان، والواقع يشير إلى أنّ مقاليد الدولة الإسلامية تمركزت في قريش قبل خلافة عثمان، وكان ذلك لدواعٍ تصبّ في مصلحة الأمة، فالرسول صلى الله عليه وسلم استعمل بعض القرشيين تأليفاً لقلوبهم كأبي سفيان بن حرب، أو تقديراً لإمكاناتهم القيادية، ولمنزلتهم في الإسلام كأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص[3]. وأما أبو بكر وعمر فأكثر ولاتهما من غير قريش، عدا قادة الفتح. واعتماد الشيخين على قريش في قيادة الجند يرجع إلى دواعٍ دينية تتعلق بمنزلة قادة الفتح في الإسلام ولدواعٍ عسكرية ترجع إلى ملكاتهم القيادية، وخبرتهم بأرض العدو منذ الجاهلية، ولدواعٍ

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٤/٨٩.

(٢) المصدر السابق ٤/٢٢٧. وتحدث بمثل ذلك عدد من القرشيين. انظر تاريخ الطبري ٣/٢٢٠-٢٢١.

(٣) انظر لولادة الرسول (ص) أنساب الأشراف ١/٢٢٩-٢٣١، وفتوح البلدان ص٧١ و٨٢-٨٣.

قبلية تتصل بمنزلة قريش المتميزة بين العرب[1]. ويسجل التاريخ للشيخين أن آيا منهما لم يتعصب لرهطه.

اعتمد عثمان على بني أمية في إدارة ولايات الدولة. وأظهر بعض ولاته تعصباً شديداً لقريش، ورغبة في الاستئثار بموارد الدّولة، ومن أبلغ الروايات الدالة على ذلك أن سعيد بن العاص الأمويّ، والي الكوفة قد قال عن سواد العراق: إنّما هذا السواد بستان قريش. فأجابه الأشتر النخعي: أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه ا لله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟! وا لله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلاّ أن يكون كأحدنا[2]. وكان ذلك من أسباب الفتنة الكبرى.

ولم يلبث بعض الذين شغبوا في أمر عثمان أن أظهروا امتعاضهم لتقلّد بني هاشم أمور الدولة في عهد عليّ، فحين ولّى عليٌّ عبدَ ا لله بن عباس البصرة، عقب وقعة الجمل قال له الأشتر النخعي: علام قتلنا الشيخ (عثمان)! إذ اليمن لعبيد ا لله، والحجاز لقُثم، والبصرة لعبد ا لله، والكوفة لعليّ[3].

شعرت فئة من العرب بأن الصراع على الخلافة هو صراع قرشي داخلي يحرقها في أتونه. وقد أفصح بعض الشعراء عن موقف تلك الفئة المتألمة عقب وقعة الجمل بأشعار تشير إلى أن الصراع على الخلافة كان صراعاً على المكاسب بين زعماء قريش[4]. ونبّه إلى ذلك بعض الزعماء كأبي موسى الأشعريّ الذي حثّ أهل الكوفة على القعود عن القتال بقوله: «خلّوا قريشاً - إذ أبوا إلاّ الخروج من دار الهجرة، وفراق أهل العلم بالإمرة - ترتق فتقها، وتشعب صدعها، فإنْ فعلتْ فلأنفسها سعت، وإنْ أبت فَعَلَى أنفسها مَنَتْ»[5].

---

(١) انظر لولادة أبي بكر وعمر تاريخ الطبري ٣/٤٢٧ و٤/٤٢١.

(٢) تاريخ الطبري ٤/٣٢٣.

(٣) المصدر السابق ٤/٤٩٢

(٤) انظر بعض هذه الأشعار في جمهرة أنساب العرب ص٢٣٦، وتاريخ الطبري ٤/٥٢٤ ومروج الذهب ٢/٣٩٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/١٠٨.

(٥) تاريخ الطبري ٤/٤٨٤. ومَنَت: جلبت لنفسها المنية.

- وقد نما شعور مماثل لدى بعض أصحاب عليّ، فدفعهم إلى رفض رأي عليّ بأن يكون ممثلهم في التحكيم عبد الله بن عباس الهاشمي(١).

إن تحطم أمل فريق من العرب المسلمين بالإصلاح، وعودة الوحدة إلى الأمة على يد قريش - قد أدى إلى بدء انحسار سلطان قريش، فظهر حزب الخوارج المستقل عن زعامة قريش، وكان لهذا الحزب دورٌ حاسم في إنهاء الصراع بين عليّ ومعاوية حين نجح في اغتيال علي بن أبي طالب عام ٤٠ هـ، وبذلك أعلنت نهاية عصر صدر الإسلام، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العرب والمسلمين.

- ٤ -

معارف قريش

١ - الديانة الوثنية

وثنية العرب في الجاهلية قسمان: طائفة تزعم أن الأصنام هي التي تضر وتنفع، وطائفة تزعم أن الأصنام تقربها إلى الله(٢)، وأغلب قريش منها.

كان القرشيون يطوفون بالكعبة، ويقولون: «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى»(٣). فهم يقسمون بأصنامهم معتقدين أنها تشفع لهم عند الله. وكانت تلبية قريش: «لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وماملك. فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده»(٤).

واعتقاد قريش بقدرة الأوثان والأصنام وما في حكمها على التوسط بينها وبين الله، أو على الضرر والنفع - مرتبط بإيمانها بوجود أرواح تسكن تلك المقدسات. وكان لهذه الأرواح وجود آخر مجرد، تمثل في عبادة الملائكة.

---

(١) المصدر السابق ١٤٣/٥ ومابعدها.

(٢) أيمان العرب في الجاهلية ص١٣.

(٣) الأصنام ص١٩. والغرانيق: الذكور من طير الماء

(٤) سيرة ابن هشام ٧٣/١.

أ - الوثنية المجسدة: كان لكلّ أهل دار في مكة صنم يعبدونه في دارهم،[1] ويضاف إلى ذلك وجود أصنام كثيرة في جوف الكعبة، وفيما حولها. وأعظمها (هُبَل) وعنده كانت قريش تستقسم بالأزلام[2]. وحين فتح الرسول (ص) مكة كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فحطمها[3]، وربما كان بعض هذه الأصنام يخص غير قريش.

وثمة أوثان مقدسة عند قريش وغيرها، أعظمها مناة واللات والعزى، والأخيرة أعظمهن قدراً عند قريش لقربها من مكة في زعم ابن الكلبي[4]. وأصح الروايات عن العزى أنها وثن داخل بيت بجانبه شجرة أو ثلاث شجرات ببطن نخلة[5]. وأما اللات ومناة فصخرتان، الأولى بالطائف[6]، والثانية بقديد، على ساحل البحر، بين مكة والمدينة[7].

ب - الوثنية المجرّدة: ظهرت في قريش عبادة الملائكة، واعتُقِدَ أنها بنات الله، وصرح بعض القرشيين بذلك في قولهم للرسول(ص): «نحن نعبد الملائكة بنات الله... لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا»[8] وقد دلّ هؤلاء على صحة إدعائهم بقولهم: إن المسيحيين يعتقدون أن عيسى هو ابن الله، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبعرى السهمي للرسول: «فنحن نعبد الملائكة والنصارى تعبد عيسى بن مريم[9] وترى قريش أن اعتقادها أفضل من اعتقاد النصارى[10] وربّما كان اعتقاد قريش بالملائكة متصلاً بتقديسهم لمناة واللات والعزى، فقد

---

(١) المصدر السابق ١/٨٧.

(٢) الأصنام ص٢٧-٢٨.

(٣) أخبار مكة ١/٧٠.

(٤) الأصنام ص٢٧.

(٥) جمهرة أنساب العرب ص٤٥٨.

(٦) الأصنام ص١٦.

(٧) أخبار مكة ١/٧٤.

(٨) سيرة ابن هشام ١/٢٦٣.

(٩) المصدر السابق ٢/٨.

(١٠) انظر عصر النبي ص ٥٦١

ذكر «أن الذين يؤلهون الملائكة ويعبدونهم أو أن فريقاً منهم كانوا يعتبرون اللات والعزى ومناة رموزاً وهياكل مادية في الأرض للملائكة الذين هم في السماء و.. أن الذين يعتقدون بصلة هذه المعبودات بالملائكة كانوا من الطبقة التي اتخذت الملائكة شفعاء»[1] ويقوي هذا الرأي اعتقاد قريش بأنوثة اللات والعزى ومناة[2].

ج- شعائر وثنية: عَظّمت قريش أصنامها ببعض الشعائر الدينية، ومنها تقديم قرابين من الحيوانات، تنحر عند الأصنام[3]، والطواف حول الأصنام، وكان محرماً على الحائض[4]، وكان آخر ما يفعله القرشي إذا أراد السفر، وأول ما يفعله إذا عاد منه هو التمسح بصنم منزله[5].

وبالغت قريش في تعظيم الكعبة فكانت تحلف عندها[6]، وتصلي حولها[7] وتنذر لها الكسوة[8]. وهذا التعظيم - إضافة إلى بعض شعائر الحج - من بقايا دين إبراهيم عليه السلام، التي تمسكت بها قريش وأدخلت إليها ما يخالف التوحيد[9].

وأعظم ما أحدثته قريش في وثنيتها نظام الحمس. وهو نظام ديني ذو فوائد اقتصادية وسياسية، وقد أنشيء بعد إخفاق أبرهة الحبشي في احتلال مكة، وهدم كعبتها، حين اجتمعت قريش لذلك، وقال سادتها: «نحن بنو إبراهيم عليه السلام، وأهل الحرم وولاة البيت، وقاطنو مكة، فليس لأحد من العرب مثل منزلتنا... فهلموا، فلنتفق على ائتلاف أننا لا نعظم شيئاً من الحِلّ كما يعظم الحرم... فتركوا الوقوف بعرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون، ويقرون أنها من المشاعر والحج

---

(١) المصدر السابق ص ٥٩٨

(٢) الأصنام ص ١٩

(٣) المصدر السابق ص ١٨ - ١٩. وقد يكون القربان من البشر، فقد نذر عبد المطلب أن يقدم أحد ابنائه قرباناً على مذبح هبل (تاريخ الطبري ٢/٢٣٩ وما بعدها). ولم يكن هذا الأمر شائعاً، بل هو بقية شعائر دينية قديمة.

(٤) أخبار مكة ١/٧٠

(٥) الأصنام ص ٣٣.

(٦) نسب قريش ص ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٧) حذف من نسب قريش ص ٢٧.

(٨) الاستيعاب ص ٨١١

(٩) سيرة ابن هشام ١/٧٣

ودين إبراهيم... وقالوا: نحن أهل الحرم، فلا نعظم غيره، ونحن الحمس... ثم ابتدعوا فقالوا: لا ينبغي للحمس أن يعملوا الأقِط، ولا يسلأوا السمن، وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إلا في بيوت الأدم، وقالوا: لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحلّ في الحرم إذا جاءوا حجّاجا أو عماراً، ولا يطوفون بالبيت طوافهم إذا قدموا إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة، فإن أنف أحد من عظمائهم أن يطوف عريانا إذا لم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه ألقاها إذا خرج من الطواف، ولا يمسها هو، ولا أحد غيره، يسمونها اللقى... فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً فنسخه».(١)

وثمة جوانب في وثنية قريش يكتنفها الغموض، كأسطورة إساف ونائلة. وهما رجل وامرأة فجرا - كما يروى - داخل الكعبة، فمسخهما الله صنمين(٢) والمثير للتساؤل أن يحظى هذان الصنمان بالتعظيم بدل اللعن والرجم. ومن الجدير بالملاحظة هنا انتهاك بعض القرشيين لحرمة مقدساتهم الوثنية.(٣) مظهرين بذلك سطحية اعتقاداتهم الدينية.

٢- الديانات السّماوية

تعدّ قريش من أكثر العرب تمسكاً بدين إبراهيم، ولا عجب، فالقرشيون هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الصرحاء، وهم ورثة البيت وسدنته.

وهم معالم الإبراهيمية في قريش أن الله هو المعبود. ولكن الشرك شاب هذا الإيمان كما مرّ بنا. ومن بقايا دين إبراهيم أكثر شعائر الحج، وبعض التصورات عن الحلال والحرام، فقريش كانت تدرك في الجاهلية أن الربا والميسر والبغي حرام(٤) . ولكن البعد الزمني بين جاهلية قريش القريبة من الإسلام وإبراهيم جعل

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤٥١/١.

(٢) أخبار مكة ٦٩/١-٧٠. وروى المسعودي أنهما حجران نحتا ومُثّلا بمن ذكرنا (مروج الذهب ٢٣/٢).

(٣) شرح ديوان حسان ص ١٠٣ وما بعدها.

(٤) أخبار مكة ١٠٢/١.

مواقفها العقدية غير منسجمة، فالزبير بن عبد المطلب - مثلاً - يقرّ بالبعث بعد الموت[1] ، بينما كان عمر بن العاص ينكر البعث في الجاهلية.[2]

ظهرت في قريش بوادر وعي ديني قبيل بعثة الرسول (ص). وقد حمل لواءه رجال متنورون، دعوا إلى الرجوع إلى ديانة إبراهيم (الحنيفية) خالية من الشوائب. والذي دعا إلى ذلك صراحة هو زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، إذ عاب دين قومه كما أعرض عن المسيحية واليهودية، واعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تنحر على أعتاب الأصنام والأوثان، ونهى عن وأد البنات[3] وقد استاءت قريش من زيد فأخرجته من مكة وآذته.[4] وكان حرب قريش لزيد دفاعاً عن أمنها السياسي والاقتصادي في ظل الوثنية. ومن المعروف أن بعض القرشيين كانوا يتحنثون في الجاهلية، ويصعدون إلى غار حراء للتعبد في شهر رمضان[5] والظاهر أن قريشاً تركتهم يفعلون ذلك لأنهم لم يعيبوا عبادة الأوثان.

عرفت مكة الدين المسيحي، وقد تنصر ثلاثة رجال منها، وهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث الأسديان[6] ، وشيبة بن ربيعة الأموي[7] . وقد تعمق ورقة في المسيحية، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب. ووصف شيخ الإسلام، ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ورقة بأنه من أحبار نصارى العرب، ومن علماء النصارى الكبار[8] .

والملاحظ أن قريشاً لم تعارض تنصّر بعض رجالها. فهؤلاء لم يهدّدوا مركز قريش الديني، ولم يسفهوا آلهتها، كما أنهم لم يحاولوا نشر المسيحية في مكة. ومن

---

(١) الروض الأنف ٤٣٨/١.

(٢) نسب قريش ص ٤١١.

(٣) المحبر ص ١٧١ - ١٧٢.

(٤) الأغاني ١٢٣/٣.

(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٥/٢. والتحنث: التعبد واعتزال الأصنام. وقيل: هو نفي الحنث والإثم. وقيل: هو التحنف، أبدلت الفاء ثاءً (اللسان، مادة: حنث). وقيل: هو التأله (أنساب الأشراف ٨٤/١).

(٦) سيرة ابن هاشم ٢٠٤/١ - ٢٠٥

(٧) جمهرة أنساب العرب ص ٤٥٨

(٨) الجواب الصحيح لمن غير دين المسيح ٢٥/١ و ٨٨.

غير المستبعد أن تكون قريش قد هادنت المتنصرين منها خوفاً من الروم الذين يستطيعون ادعاء حق حماية المسيحين، والإضرار بتجارة قريش في الشام ومصر والحبشة.

٣- الديانات الفارسية

روي أن الزندقة وجدت في قريش، وأنهم أخذوها من الحيرة في الجاهلية،(١) ومن المؤكد أن قريشاً اتصلت في الجاهلية بالفرس عن طريق التجارة، وأنها تأثرت بهم. ولكنها لم تعتنق شيئاً من ديانة الفرس، ومن المرجح أن بعض مظاهر حياة قريش الماجنة كانت وراء نعت قريش بالزندقة. فالزندقة نوعان: أحدهما في المظهر والسلوك، والآخر في العقيدة المستمدة من ديانات الفرس القديمة: الزرادشتية والمانوية والمزدكية (٢) ويؤكد بعد الصلة بين زندقة قريش والعقائد الفارسية أن بن حبيب حين تحدث عن الزندقة في قريش لم يربطها بالعقيدة الفارسية، ولكنه ذكر تعلم القرشيين للزندقة من نصارى الحيرة.(٣)

وثمة رواية مختلقة تتحدث عن تمزدك بعض أهل مكة،(٤) وروايات تتحدث عن تعظيم الفرس للكعبة، وزيارة بعضهم لمكة في الجاهلية. ومن الواضح أن هذه الروايات الملفقة هي من ظواهر الشعوبية التي اشتدّ عودها في العصر العباسي.(٥)

وبعث الله سبحانه وتعالى محمداً بالهدى ودين الحق، فتقوضت أركان الوثنية، وأزاح نور الإسلام ظلام الشرك، واختفت من قريش كلّ المظاهر الدينية غير الإسلام بعد فتح الرسول (ص) مكّة.

٤- الكهانة والسّحر والقيافة

الكهانة: معرفة المستقبل بوسيط من الجنّ، يعطي الكاهن الأخبار. وقد اعتقدت قريش بالكهانة في الجاهلية، فاحتكمت إلى الكهان، وطلبت نصحهم في

---

(١) المعارف ص ٦٢١.

(٢) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس ص ١٢٦ - ١٤٢.

(٣) المحبر ص ١٦١

(٤) الحيرة ومكة ص ١٠ - ١١

(٥) انظر تيارات ثقافية بين العرب والفرس ص ١٦٠ - ١٦٢

الأمور العويصة. وظهرت في قريش كاهنتان: سعدى بنت كريز الأموية التي تكهنت بزواج عثمان بن عفان من رقية،[1] وسودة بنت زهرة التي تكهنت بأن آمنة بنت وهب نذيرة أو تلد نذيراً.[2] وقد أبطل الإسلام الكهانة.

والسحر: وسيلة مهمة لجأ إليها البشر للتأثير في الأرواح، وهو وثيق الصلة بالوثنية. وقد اعتقدت قريش بقوة تأثير السحر، وفاعليته في الجاهلية. وفي أخبارها ما يدل على استمرار تأثير السحر في مجتمع قريش في صدر الإسلام.[3]

والقيافة: هي التنبؤ والإخبار عن الشيء بتتبع الأثر والشبه. وقد اشتهر بعض القرشيين بها، ومنهم نبيه بن الحجاج السهمي،[4] وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب.[5]

٥- الأخبار والأنساب:

الأخبار والأنساب من المعارف الوثيقة الصلة بالمجتمع القبلي. فبهما يحفظ تاريخ القبيلة، وينقل الى الأجيال وشائج القربى التي تربط بينهم.

وقد اشتهر عدد من رجال قريش برواية الأخبار ومعرفة الأنساب في الجاهلية وصدر الإسلام كأبي بكر الصديق... الذي وصف بأنه أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر[6] . وكان أبو بكر على علم ودراية بأنساب القبائل العربية كلها أيضا[7] . ولذا قصده الناس طلباً للمعرفة، فكان يعقد لهم في الجاهلية مجلساً لهذه الغاية[8] . ومما يدل على علو منزلة أبي بكر أن جبير بن مطعم – وهو من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة – كان يقول:

---

(١) الإصابة ٤/٣٢٠ – ٣٢١.

(٢) إنسان العيون ١/٥٠.

(٣) انظر نسب قريش ص ٣٧٢.

(٤) المغازي ص ٥٥.

(٥) الأخبار الموفقيات ص ٣٦٣.

(٦) سيرة بن هشام ١/٢٣٢.

(٧) انظر العقد الفريد ٣/٣٢٦ - ٣٢٧

(٨) البيان والتبين ٤/٧٦

«إنما أخذت النسب عن أبي بكر»(1) كما أخذت عنه الأخبار والأنساب ابنته عائشة رضي الله عنهما.(2)

وعرف عن أربعة من قريش – غير أبي بكر – أنهم كانوا أعلم الناس بالأخبار والأنساب، وهم مخرمة بن نوفل الزهري، وأبو الجهم بن حذيقة العدوي، وحويطب بن عبد العزى العامري، وعقيل بن أبي طالب الهاشمي.(3) وكان الناس يتحاكمون إليهم في الأخبار والأنساب(4). وقد قام هؤلاء الرهط بعمل جليل في صدر الاسلام إذ نظّموا ديوان العطاء على أساس التقسيمات القبلية بتوجيه مَن الخليفة عمر بن الخطاب.(5)

٦– الكتابة

إن اتصال قريش بمراكز الحضارة في شبه الجزيرة العربية، وفيما حولها وعملها بالتجارة – من دواعي ظهور الكتابة وانتشارها في قريش منذ العصر الجاهلي. وقد لفق الإخباريون روايات عن نشأة الكتابة العربية تلفيقا لا يقره المنطق.(6) وثمة روايات يمكن الاطمئنان إليها، كالرواية التي تقول: إن أول من اخترع الكتابة العربية «على الوضع الكوفي سكان مدينة الأنبار، ثم نقل هذا القلم إلى مكة، فعرف بها، وتعلمه من تعلمه، وكثر في الناس وتداولوه»(7) وذكر نقل هذا الخط إلى مكة عن طريق الحيرة في قول الأصمعي (ت ٢١٦ هـ): «ذكروا أن قريشاً سئلوا: من أين لكم الكتاب؟ قالوا: من أهل الحيرة. وقيل لأهل الحيرة: من أين لكم الكتاب؟ قالوا من الأنبار»(8). ومن المعروف أن الحيرة قد كانت في الجاهلية

---

(1) الاستيعاب ص ٢٣٢

(2) أنساب الأشراف ٤١٦/١

(3) الاستيعاب ص ٢٣٢ و ١٣٨٠

(4) تاريخ الطبري ٦١١/١ و ٢٣/٤.

(5) المصدر السابق ٦١٣/٣ – ٦١٥

(6) انظر العقد الفريد ١٥٧/٤، ومروج الذهب ١٢١/٢ – ١٢٢، والفهرست ص ١٢ – ١٤

(7) نهاية الأرب للنويري ٣/٧

(8) المعارف ص ٢٥٢

مركزاً لتعليم الكتابة العربية في كتاتيب وجدت لهذا الأمر.[1]

عُرف العشرات من القرشيين رجالاً ونساءً بإجادة الكتابة في عصر البعثة النبوية[2] ومن المرجح وجود كتاتيب في مكة لتعليم الكتابة. ويدل على ذلك لقب المعلم الذي نعت به أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة، وكان يجيد الكتابة.[3]

واستخدمت قريش الكتابة في أعمالها التجارية والحسابية، وفي كتابة عهودها ومراسلاتها، وفي ترجمة الإنجيل إلى العربية.[4] وكان للرسول (ص) عدد من الكتاب القرشيين المشهورين، ثم انتشرت الكتابة بفضل الإسلام، وتشجيع الرسول على تعلمها وتعليمها.

٧- معارف أخرى

عرفت قريش بعض الخبرات الطبية البدائية المكتسبة من تجارب الحياة كمداواة الجروح بلصق الرماد أو بلصق العظام البالية بها.[5] وكذلك معالجة النملة، وهي قروح تصيب جلد الإنسان.[6] ولمس بعضهم أثر الخمرة الضارّ فدعوا إلى تجنبها في الجاهلية.[7] واهتم بعضهم بمعالجة الحيوان، ومن هؤلاء العاص بن وائل السهمي الذي عرف بمعالجة الخيل والإبل.[8]

واستخدمت قريش التقويم في جاهليتها، فأرخت بموت بعض عظمائها، مثل كعب بن لؤيّ،[9] كما أرخت بوقوع بعض الحوادث المهمة كعام الغدر، وهو

---

(١) الأغاني ٢/١٠١ و٦/١٣٠. واختلف في اسم من نقل الكتابة إلى مكة، فقيل حرب بن أمية وقيل: عبد بن عبد قصي، وقيل غير ذلك (الروض الأنف ١/٧٩)

(٢) العقد الفريد ٤/١٥٧ - ١٥٨ و أنساب الأشراف ١/٨١.

(٣) أنساب الأشراف ١/١٧

(٤) جمهرة نسب قريش ١/٤١١. وقيل: إن ورقة كان يترجم الإنجيل إلى العبرية (الأغاني ٣٠/١٢٠)

(٥) انساب الأشراف ١/٣٢٢

(٦) الإصابة ٤/٣٣٣

(٧) العقد الفريد ٦/٣٣٨ - ٣٣٩

(٨) المعارف ص ٥٧٦

(٩) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/١١ و٢/٢٥

العام الذي غدرت فيه العرب ببني تميم أيام منى،[1] وبعام الفيل، وبعام الفجار، وببنيان الكعبة.[2] والأحداث المذكورة متقاربة، وأشهرها عام الفيل، وبه كثر التأريخ إلى أن أحدث التقويم الهجري.

والمشهور أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار بإحداث التقويم الهجري لعظمة المناسبة، ولأهمية التقويم في ضبط أمور الدولة.[3]

وكانت لدى قريش في الجاهلية بعض المعارف الفنية المتصلة بمعتقداتها الدينية كالرسم والنحت. فقد وجدت داخل الكعبة صور للملائكة، وصورة لإبراهيم عليه السلام وهو شيخ كبير يستسقم بالأزلام!! وصور للأنبياء، وصورة لعيسى ابن مريم وأمه. وحين فتحت مكة أمر الرسول (ص) بطمس تلك الصور.[4]

والنحت معروف في مكة، ففيها نحتت بعض الأصنام والأوثان وكان البدو يأتون إلى مكة فيشترون تلك المنحوتات، ويخرجون بها إلى بيوتهم.[5] وقد دمّرت تلك المنحوتات لارتباطها بالشرك. ومن الممكن الافتراض أن في تلك المعارف الفنية مؤثرات بيزنطية لرسم عيسى وأمه، وأن فيها أصالة نابعة من البيئة الوثنية كرسم إبراهيم وهو يستسقم بالأزلام.

إن أعظم ميادين الإبداع العربي قبل العصر العباسي تمثلت في الأدب شعراً ونثراً. وكذلك كان الأمر في قريش، فقد اشتهر عدد من رجالها بالخطابة، فمن الجاهليين كعب بن لؤي، وأبو طالب، وسهيل بن عمرو، ومن خطباء صدر الإسلام علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وغيرهم مِمّن ورد نبع الاسلام العذب، فارتوى من إعجاز القرآن، وبيان الرسول عليه الصلاة والسلام.

ورويت عن بعض القرشيين أمثال تختزن تجارب إنسانية عميقة. ومن ذلك

---

(١) المحبر ص ٧ – ٨

(٢) أخبار مكة ٩٦/١

(٣) تاريخ الطبري ٣٨/٤ و ٢٠٩

(٤) انظر أخبار مكة ١٠٤/١ –١٠٧

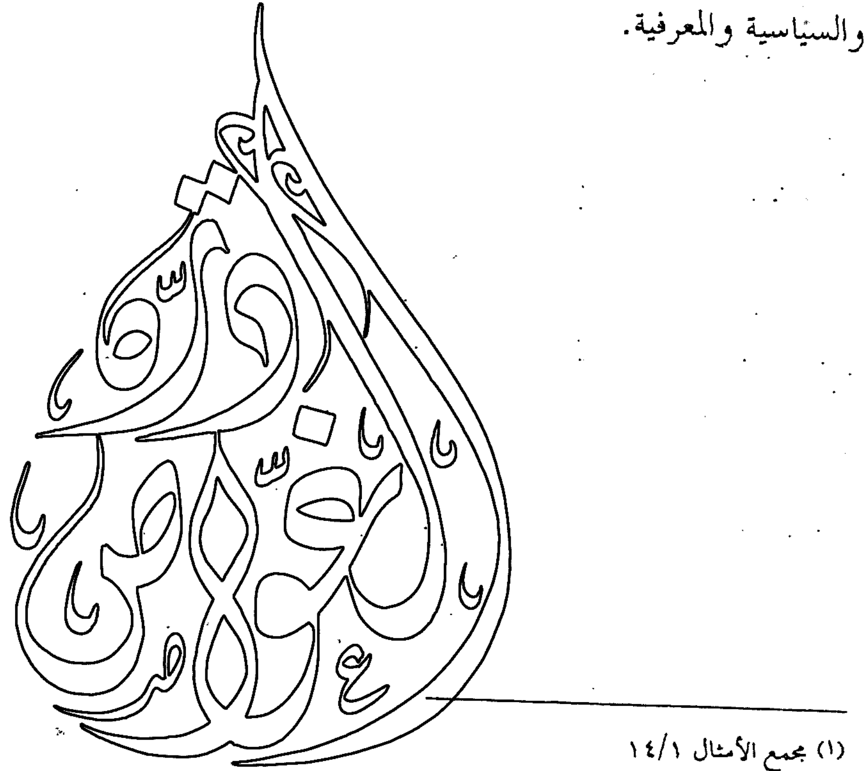
(٥) المصدر السابق ٧٢/١

قول عظيم من قريش في الجاهلية: المقدرة تذهب الحفيظة[1] وقول أبي بكر الصديق: إن البلاء موكل بالمنطق،[2] وقول عمر بن الخطاب: إن النساء لحم على وضم.[3]

ولرسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات جامعة، ذهبت مذهب الأمثال، وتناقلتها الأجيال، ومنها قوله:[4]

- الدين المعاملة
- المرء مع من أحب.
- الدين النصيحة.
- إنّما الأعمال بالنيات.
- اليد العليا خير من اليد السفلى.
- الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار.
- المستشار مؤتمن

وبهذه الكلمات الطيبة يحسن إنهاء الحديث عن قبيلة قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، وفيه عرفنا نسبها ومنازلها، ومعالم حياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعرفية.



(١) مجمع الأمثال ١٤/١

(٢) المصدر السابق ١٧/١

(٣) المصدر السابق ١٩/١. والوضم: كلّ شيء يوضع عليه اللحم.

(٤) انظر أدب الحديث النبوي ص ١٠٤ - ١٠٦

الباب الثاني

توثيق شعر قريش
في الجاهلية وصدر الإسلام

- النحل والصنع في شعر قريش
- مصادر شعر قريش

الفصل الأول

النحل والصنع في شعر قريش
في الجاهلية وصدر الإسلام

بُحثت قضية النحل والصنع في شعر الجاهلية وصدر الإسلام كثيراً، واستقرت معظم آراء الباحثين فيه على توثيق أكثره. ويعد كتاب (مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الدين الأسد قمة الدراسات الرصينة التي وثقت ذلك الشعر، ولاسيما الشعر الذي حوته الدواوين، والمجموعات الشعرية المشهورة كالمفضليات والأصمعيات.

ولما كان شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام متفرقاً في بطون الكتب التراثية المختلفة فإن محاولة توثيقية أمر لابدّ منه لتستقيم هذه الدراسة بتجنب المنحول والمصنوع.

وأسباب النحل والصنع في الشعر العربي القديم ترجع إلى الرواة الوضاعين والعصبية القبلية، والقصّاصين، والأهواء السياسية غالباً. وبعدَ النظر في شعر قريش أمكن تصنيف المصنوع والمنحول ضمن المجموعات الآتية:

١ - أغلب الشعر المنسوب إلى بني هاشم؛ فالرواة الوضاعون أنطقوا كل هاشمي عاش في الجاهلية وعصر البعثة شعراً. وقد جاء في العمدة «ليس من بني عبد المطلب رجالاً من لم يقل الشعر، حاشا النبي صلى الله عليه وسلم»[1] ولكن صاحب العمدة تشكك في صحة ما ينسب إليهم، فلم يعتد بأشعارهم، وقال: «فأما أبو طالب ومن شاكله فلم أذكرهم شيئاً»[2] وفيما يلي مجمل المنحول والمصنوع من الشعر المنسوب إلى بني هاشم.

---

(١) العمدة ١/٣٦

(٢) المصدر السابق ١/٣٧

أ- شعر عبد المطلب في محاولة أبرهة الحبشي احتلال مكة، ومنه هذه الأبيات:(١)

نحن آل البيتِ فيما قد مضى	لم يزلْ ذاكَ على عهد ابْرَهَمْ
نحن دمرْنا ثموداً عَنْوة	ثم عاداً قبلها ذات الإرمْ
نعبدُ الله وفينا سُنّةٌ	صِلةُ القربَى وإيفاءُ الذِّمَمْ

والصنع في الأبيات ظاهر، فهي تتّشح بعبق الإسلام، والفخر فيها تجاوز الانتصار على الأحباش إلى الاعتزاز بتدمير عاد وثمود ...!

وتنسب إلى عبد المطلب أشعار في العطف على حفيده محمد بن عبد الله يظهر فيها الصنع، ومنها:(٢)

الحمدُ للّه الذي أعطاني	هذا الغلامَ الطيب الأردانِ
قد ساد في المهد على الغلمانِ	أُعيذه بالبيت ذي الأركانِ
أنت الذي سُمّيتَ في القرآنِ	في كتبٍ ثابتة المثاني

أحمدَ مكتوب على البيانِ

والأبيات السابقة تظهر سذاجة صانعها أو استخفافه بعقول المستمعين بإيراده لفظة (القرآن) في شعر يفترض أنه يسبق نزول القرآن ببضع وثلاثين سنة، وأتبع ذلك بلفظة (أحمد) الواردة في القرآن الكريم!!.

وقد تنبه ابن هشام إلى هذا الشعر وأمثاله، فأسقطه، ونص السهيلي في الروض الأنف أنه ينقل هذا الشعر عن غير ابن هشام. ونسبت إلى عبد المطلب أشعار كثيرة نسجت على هذا المنوال.(٣)

ب- الشعر المنسوب إلى أبي طالب في طفولة الرسول ونشأته، كالقصيدة المنسوبة إليه في رحلة الرسول (ص) إلى الشام، ولقائه بالراهب بحيرا، ومنها:(٤)

---

(١) مروج الذهب ٢/١٠٦

(٢) الروض الأنف ٢/١٥٧.

(٣) انظر الطبقات الكبرى ١/١١٢، والروض الأنف ١/٤٣٨، وأنساب الأشراف ١/٨٢ و٩٥، وإنسان العيون ١/١١٢، ومروج الذهب ٢/١٠٤ و ٢٧٤، ودلائل النبوة ص ٤٤ و ٤٩.

(٤) الروض الأنف ٢/٢٢٧ - ٢٢٨. وثمة أشعار كثيرة مشابهة. انظر لذلك الطبقات الكبرى ١/١٤٧، ومروج الذهب ٢/٢٧٣، وأنساب الأشراف ١/١٠٠، ودلائل النبوة ص ٥٦.

فلمّا هبطنا أرضَ بُصرى تشرفوا | لنا فوق دورٍ ينظرون جسامِ
فجاء بحيرا عند ذلك حاشداً | لنا بشرابٍ طيبٍ وطعامِ
فقال: اجمعوا أصحابكم لطعامنا | فقلنا: جمعنا القومَ غيرَ غلامِ

والقصيدة نظم لقصة لقاء الرسول بالراهب بحيرا. ومثل ذلك الشعر المنسوب إلى أبي طالب في حضّ النجاشي على رعاية المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة،[1] وكذلك الأبيات المتضمنة إيماناً صريحاً بنبوة الرسول (ص)، كهذا البيت:[2]

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً | نبياً كموسَى خُطّ في أوّل الكُتْبِ

وذلك لأن تصديق أبي طالب بنبوة الرسول أمر غير مسلم به.

ج- معظم الشعر المنسوب إلى شعراء هاشميين في رثاء عبد المطلب، وفي رثاء الرسول (ص). فقد ذكر ابن هشام رثاء بنات عبد المطلب (صفية وبرّة، وعاتكة، وأم حكيم، وأميمة، وأروى) لأبيهن، وعلق على ذلك بقوله: «ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر».[3]

والشعر المنسوب إلى بني هاشم في رثاء الرسول كثير، واللافت فيه أن بعض الشعراء قد نسب إليهم قصائد كثيرة في ذلك، ومن ذلك أن عدد القصائد والمقطعات المنسوبة إلى صفية في رثاء ابن أخيها قد قاربت العشر[4]. وهذا التعدد يدل على وجود أصل صحيح بني عليه الشعر المفتعل. والنظر في بنية النص وفي طريق روايته وفي الأقوال عنه، يساعد في الحكم لمعرفة الصحيح من المصنوع.

٢- شعر أبي بكر وعمر وعلي وغيرهم من كبار الصحابة المهاجرين. فقد نسبت إلى أبي بكر قصائد ومقطعات في هجرة الرسول والصراع مع المشركين[5]، وفي رثاء الرسول، ومنه هذان البيتان:[6]

ياليتني من قبل مَهْلكِ صاحبي | غُيِّبْتُ في جَدَثٍ عَلَيّ صخورُ

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٨/١.

(٢) المصدر السابق ٤/٢.

(٣) المصدر السابق ١٥٦/١.

(٤) انظر الطبقات الكبرى ٣٢٧/٢ - ٣٣٠، وأنساب الأشراف ٥٩٤/١.

(٥) انظر دلائل النبوة ٢/ ١١٥ - ١١٧، وسيرة ابن هشام ١٧١/٢، والعمدة ٣٢/١.

(٦) الطبقات الكبرى ٣٢٠/٢. وانظر أنساب الأشراف ٥٩٢/١.

فلتَحدُثَنّ بدائعٌ من بعدِهِ تعيا بهِنّ جوانحٌ وصدورٌ

وروويت لأبي بكر أشعار أخرى يظهر فيها صنع الرواة القصاصين[1]. ويؤكد صحة ذلك أن عائشة بنت أبي بكر تقول عن أبيها: «إنّه لم يقل بيت شعر في الإسلام حتى مات»[2]، وتقول أيضاً: «وا لله ماقال أبو بكر بيت شعر في الجاهلية ولا في الإسلام»[3] ويؤكد ذلك أيضاً أن عبد الملك بن مروان سأل أبا بكر الزهري (ت ١٢٤ هـ): أرأيت هذه الأبيات التي تروى عن أبي بكر؟ فأجابه الزهري: إنه لم يقلها.[4]

ونسبت إلى عمر بن الخطاب قصائد ومقطعات في إسلامه، وفي رثاء الرسول وفي رثاء عروة بن مسعود الثقفي، تغلب عليها ركاكة الأسلوب، وتفتقر إلى العاطفة ومنها هذان البيتان المنسوبان إلى عمر بمناسبة إسلامه:[5]

الحمدُ للّه ذي المنّ الذي وَجَبَتْ له علينا أيادٍ مالَها غِيَرُ

وقد بدأنا فكذّبنا، فقال لنا صدقَ الحديثِ نبيٌّ عنده الخبرُ

وقد أعلن عمر بن الخطاب أنه لا يحسن الشعر في قوله لمتمم بن نويرة: «لوَدِدْتُ أني أحسن الشعر فأرثي أخي زيداً بمثل ما رثيت به أخاك».[6]

أما علي بن أبي طالب فكان شاعراً، ولكن موهبته لا ترقى إلى مستوى المقتدرين من الشعراء، ويدل على ذلك أن رجلاً من المسلمين قال لعليّ: «أهجُ عنّا القوم الذين قد هجونا. فقال علي (رض): إن أذن لي رسول ا لله (ص) فعلت. فقال رجل: يا رسول ا لله. إئذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا.

(١) الاستيعاب ص ١٢٢٤، وأنساب الأشراف ١٩٣/١.

(٢) إنسان العيون ٩٠/٢.

(٣) الإصابة ٢٣/٤.

(٤) الاستيعاب ص ٩٧٧ - ٩٧٨.

(٥) الروض الأنف ٢٢٧/٣. وانظر نماذج أخرى في المصدر السابق ٥٨٧/٧ - ٥٨٨، وأنساب الأشراف ٥٩٢/١، والاستيعاب ص ١٠٦٧.

(٦) الأغاني ٣٠٨/١٥.

قال: ليس ذلك أو ليس عنده ذلك ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم».[1]

وقد صُنع شعر كثير، ونسب إلى علي، وفيه اضطراب ظاهر[2] وأغلب الشعر المنسوب إلى علي مجموع في الديوان المنسوب إليه. وفيه يظهر اختراع الشيعة.[3]

وتشدّد بعض رواة الشعر المشهورين في توثيق الشعر المنسوب إلى عليّ ومنهم يونس بن حبيب (ت ١٨٥ هـ) الذي قال: إنّ علياً لا يصح له من الشعر المنسوب إليه إلا هذان البيتان:[4]

تِلكُمْ قريشٌ تَمَنّتْني لِتَقْتُلَني ... فلا وَربُّك ما بَرُّوا وما ظَفِروا

فإنْ هلكتُ فَرَهْنٌ ذمتي لَهُمُ ... بذاتِ رَوْقَيْنِ لا يعفُو لها أثَرُ

ومن الصحابة الكبار الذين نسبت إليهم أشعار يكتنفها الشك عثمان بن عفان وحمزة بن عبد المطلب وغيرهما.

إن ضعف الثقة بالشعر المنسوب إلى أولئك الصحابة القرشيين لا ينفي اقتدارهم على إنشاد البيت والبيتين أو أكثر من ذلك. ويؤكد ذلك أن رواة ثقات قد رووا أشعاراً لأولئك الصحابة[5] . وأمّا علي بن أبي طالب فله أشعار كثيرة متفرقة في كتب التراث - إضافة إلى ديوانه - وفيها تظهر روح عصره، وسمات شخصيته، ونلمس عدم الاضطراب في صحة نسبتها إليه، وهذا ما يدفع إلى الاطمئنان إليها، وإلى ما يشبهها من أشعار كبار الصحابة القرشيين.

---

(١) المصدر السابق ١٣٧/٤.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١٠٢/٢ و ٢٦٢، و١١٤/٣ و ١٣٥، والعقد الفريد ٢٨٤/٢ والحماسة البصرية ١٨/١ و ٢٤٨.

(٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١٧٥/١ - ١٧٦. وللديوان طبعات كثيرة أقدمها في القاهرة عام ١٢٧٦هـ.

(٤) نور القبس ص ٥٥.

(٥) انظر جمهرة أشعار العرب ص ١٠ - ١١ و ١٩ - ٢٠، والعمدة ٣٢/١ وما بعدها، وإنسان العيون ٩٠/٢ وتاريخ عمر بن الخطاب ص ٢١٢.

٣- الأشعار التي تنبىء ببعثة الرسول (ص) وانتصاره على أعدائه[١]. ومن ذلك هذا البيت المنسوب إلى كعب بن لؤي:[٢]

على غَفْلَةٍ يأتي النبيُّ محمّدٌ ... فَيُخبرُ أخباراً صَدُوقاً خبيرُها

وكذلك هذا البيت

ياليتني شاهدٌ فحواءَ دَعْوَتِهِ ... حين العشيرةُ تبغي الحقّ خذلانا

ومثل ذلك قصائد نسبت إلى ورقة بن نوفل[٣]، وأبيات نسبت إلى رقيقة بنت أبي صيفي بن هاشم تستسقي فيها بالرسول قبل مبعثه،[٤] وأخرى إلى سعدى بنت كريز الكاهنة.[٥]

٤- الشعر المخالف للحقائق التاريخية، كهذه الأبيات المنسوبة إلى قصي بن كلاب:[٦]

أنا ابن العاصمين بني لؤيّ ... بمكةَ منزلي وبها رَبيتُ

ولي البطحاءُ قد علمت معدٌّ ... ومرَوتُها، رضيتُ بها رضيتُ

فلستُ لغالبٍ إنْ لم تَأثّلْ ... بها أولادُ قيذرَ والنبيتُ

فقيذر والنبيت اسمان غير مألوفين عند الجاهلين.[٧]

٥- أغلب الشعر الذي قيل في تعظيم بني هاشم في الجاهلية، ومنه هذا الشعر المنسوب إلى خويلد بن أسد.[٨]

أقول وما قولي عليَّ بهَيّنٍ ... إليك ابن سَلمى أنت حافظُ زَمْزَم

حضيرة إبراهيمَ يومَ ابن هاجرٍ ... وركضة جبريلَ على عهد آدم

---

(١) انظر في الأدب الجاهلي ص ١٣٣.

(٢) معجم الشعراء ص ٢٢٨.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١/١٧٥ - ١٧٧، والروض الأنف ٢/٢٥١ - ١٥٢ و ٢٥٨ - ٢٦٠، ودلائل النبوة ص ٧٠، وعيون الأثر ١/٥١، والخزانة ٣/٣٩٢ - ٣٩٧.

(٤) الطبقات الكبرى ١/٨٩ - ٩٠.

(٥) الإصابة ٤/٣٢٧

(٦) أخبار مكة ١/٦٠.

(٧) ثمة أحاديث وأقوال تؤيد ذلك. انظر الطبقات الكبرى ١/٥٥ و ٥٨، وسيرة ابن كثير ١/ ٧٦.

(٨) أنساب الأشراف ١/٨٣

فلفظة (جبريل) في البيت الثاني تفضح الزيف في ذلك الشعر، لأنها من الألفاظ التي لم يستخدمها العرب قبل الإسلام. ومثل ذلك الأشعار التي قيلت في تنافر هاشم وأمية، وفي تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية.(١)

٦- بعض الشعر الذي يظهر فيه التعاطف مع علي بن أبي طالب في صراعه مع معاوية خاصة. ومن ذلك قصيدة تنسب إلى رجل من أقرباء عمر بن العاص، وفيها يؤنب الرجل عمراً لتحالفه مع معاوية ضد عليّ(٢) ومثل ذلك الأشعار التي صنعت لإظهار فضل العباس بن عبد المطلب.(٣) وأثر الأهواء السياسية لا يخفى في صنع هذه الأشعار.

٧- الشعر الذي صنع ولفق بتأثير العصبية القبلية، ومن ذلك شعر منسوب إلى عبد المطلب في بيان فضل اليثربيين عليه، ومنه:(٤)

أبلغْ بني النجّار إنْ جئتَهمْ ... أنّي منهُمْ وابنُهُمْ والخميسْ

رأيتهم قوماً إذا جئتهمْ ... هَوُوا لقائي وأحبّوا حسيسْ

فإنّ عَمّي نوفلاً قد أبى ... إلاّ التي يُغضي عليها الخسيسْ

فهذا الشعر يُعلي شأن الأنصار، ويهون شأن القرشيين. وصنع هذا الشعر يدخل في دائرة التنافس بين قريش والأنصار. ويؤكد ذلك أنه روي عن أشياخ من الأنصار، وأن بعض القرشيين نبهوا إلى صنعه. ومن هذا القبيل أبيات منسوبة إلى أبي سفيان بن الحارث الهاشمي في هجاء حسان بن ثابت الأنصاري. وهي أبيات صنعتها قريش، ونحلتها أبا سفيان نكاية بالأنصار، وردّا على شعر لحسان(٥) لكن ظهور العصبية القبلية في الشعر لايعني أنه مصنوع دائماً؛ فالقبلية في الجاهلية وصدر الإسلام كانت نظاماً اجتماعياً يعتد به، ولابدّ أن تظهر آثارها في الشعر، وسوف تمرّ بنا في ثنايا هذه الدراسة أشعار موثقة تظهر فيها العصبية القبلية.

---

(١) المصدر السابق ١/٦١ و٧٣ - ٧٤

(٢) وقعة صفين ص ٤١ - ٤٢.

(٣) انظر أبياتا منسوبة إلى عبد المطلب في العباس في أنساب الأشراف ١/٨٩.

(٤) تاريخ الطبري ٢/٢٤٨ - ٢٤٩.

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

وقد نجد في الشعر الموثق أبياتاً مقحمة يتضح فيها الصنع والافتعال. ومن ذلك شعر لعلي بن أبي طالب يمدح فيه قبيلة همدان لشجاعتها في صفين، مروي في العقد الفريد والعمدة ووقعة صفين، وغيرها. وقد جاء في إحدى روايات ذلك الشعر إقحام هذا البيت:[1]

فلو كنتُ بواباً على بابِ جَنّةٍ   لقلتُ لهمدانَ: ادخلوا بسلامِ

فمن المستبعد أن يخطر ببال علي أن يكون بواباً يرحّب بهمدان!!

٧- الشعر المخالف لروح العصر، كهذا البيت المنسوب إلى عمرو بن العاص في مديح علي بن أبي طالب:[2]

كأنّ سنانَ عاملِهِ ضميرٌ   فليس عن القلوب له ذهابُ

ففي البيت اصطلاحان نحويان (عامل وضمير) لم يعرفا في صدر الإسلام، ويضاف إلى ذلك أن طبيعة التصوير في البيت، والتلاعب بالألفاظ من خصائص الأدب في العصر العباسي. ومن هذا القبيل أبيات تنسب إلى العباس بن عبد المطلب في مديح الرسول بعد غزوة حنين.[3]

وفي الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب كثير من الشعر المخالف لروح العصر، ونجد مثل ذلك في كتاب فتوح الشام، المنسوب إلى الواقدي (ت ٢٠٧هـ) ومن ذلك هذه الأبيات التي ختمت بها قصيدة مطولة من قصائد الفتوح المنسوبة إلى خالد بن الوليد:[4]

وهذا كلامُ ابنِ الوليدِ الذي جَرَى   فكن سامعاً معنى الذي لك أشرحُ
فما مثله في مَعْمَعِ الحربِ سيّدٌ   ولا مِثْله في جوهر النظم أفصحُ
ومن بعد ذا صلّوا على أشرف الورى   نبيٌّ له كلُّ البريةِ تَجنحُ
عليه سلامُ الله ما لاحَ بارقٌ   وما غَرّدَ القمريّ إذا الصبحُ يطفحُ
وأصحابه والآل والعترة التي (كذا)   أقاموا الدين لله والشركَ زحزحوا

---

(١) العمدة ٣٤/١.

(٢) الحماسة البصرية ١٧٦/١

(٣) انظر الأبيات في أمالي الزجاجي ص ٦٥ - ٦٦. ومثل ذلك أبيات منسوبة إلى الزبير بن عبد المطلب (الحماسة البصرية ٥/٢).

(٤) فتوح الشام ١٩٦/١. وانظر تاريخ الشعر السياسي ص ٧٣.

ومن الواضح انقطاع الصلة بين خالد بن الوليد ونسبة وهذا الشعر إليه. فهو شعر مخالف لروح العصر، وفيه تظهر موهبة قاص متواضعة، صنع شعراً مضطرباً وزنه على لسان خالد، ثم ترك العنان لنفسه، فأفصح عن شخصه حين دعا السامعين إلى الانتباه إلى أقواله، ثم مدح خالداً، وأنهى القصيدة بالصلاة والسلام على محمد وآله وعترته على عادة القصّاصين الشعبيين.

٨- الشعر الذي شك القدماء في نسبته إلى شعراء قريش في الجاهلية وصدر الإسلام ونجد ذلك ظاهراً في سيرة ابن هشام بخاصة، وسنعرض لذلك في الصفحات التالية.

ومن الواضح التداخل بين المجموعات المذكورة آنفاً، فبعض الأبيات نجدها مخالفة لروح العصر وتحمل بذور العصبية القبلية أو المذهبية أو غير ذلك. وكان القصد من التفصيل في ذكر المجموعات والتفريعات في الصفحات السابقة الإحاطة قدر الإمكان بالشعر المصنوع والمنحول لتجنبه في هذه الدراسة.



الفصل الثاني

مصادر شعر قريش

في الجاهلية وصدر الإسلام

يؤكد مؤرخو الأدب العربي أن الرواية هي الطريق الرئيسة التي عَبَر عليها الشعر العربي القديم إلى عصر التدوين. واشتهر عدد من رجال قريش في الجاهلية وصدر الإسلام بأنهم كانوا رواة الناس للأشعار وعلماءهم بالأخبار والأنساب.[1] ومنهم عمر بن الخطاب، وفيه يقول الأصمعي: «ما قطع عمر رضي الله عنه أمراً إلا تمثل ببيت من الشعر».[2] وقيل عن عثمان بن عفان: «إنه أروى الناس للبيت والبيتين والثلاثة إلى الخمسة».[3] وعرف عن عائشة رضي الله عنها أنها أخذت الشعر والنسب وأيام العرب عن أبيها،[4] وقد اشتهرت برواية الشعر حتى قيل: لم يكن أحدٌ من أصحاب رسول الله أعلم بشعر ولا فريضة من عائشة.[5] وقيل: ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً.[6] وقد احتفل الرواة القرشيون بشعر قبيلتهم وتمثلوا به في أحاديثهم.[7]

كان اهتمام قريش بإنشاد الشعر وروايته يرقى إلى مستوى الجماهيرية. فقد شهدت بطاح مكة في الجاهلية مجالس شعرية، كالمجلس الذي أنشد فيه لبيد بن

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢١٢.

(٣) تاريخ الطبري ٤/٢٨٠.

(٤) أنساب الأشراف ١/٤١٦.

(٥) العقد الفريد ٥/٢٧٤.

(٦) الاستيعاب ص ١٨٨٣. وانظر لمنزلة عائشة في رواية الشعر العقد الفريد ٥/٢٧٥، والأمالي ٢/١-٢، والطبقات الكبرى ٣/٤٠ و١٩٧ - ١٩٨، وتاريخ الطبري ٥/١٥٠.

(٧) الأغاني ١٨/١٢٥ - ١٢٦.

ربيعة معلقته في حشد من القرشيين.(١)

وكان الرسول يستنشد بعض صحابته الشعر في مسجده، وكذلك فعل عمر وعثمان. ومن المجالس الشعرية المشهورة في صدر الإسلام المجلس الذي ضمّ الشاعرين القرشيين عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب وشاعر الرسول حسان بن ثابت الأنصاري في خلافة عمر، فقد جاء عبد الله وضرار إلى المدينة وطلبا من أبي أحمد بن جحش أن يدعو حسان لتناشد الأشعار وتذاكرها، فلما تم اللقاء وانعقد المجلس لتناشد الأشعار بدأ القرشيان بالإنشاد حتى صار حسان يفور كالمرجل، فقعد القرشيان كلّ على راحلته، يريدان الرحيل، وما كادا يبتعدان حتى لحق بهما طلب الخليفة إليهما بالعودة، فرجعا مكرهين إلى المجلس، وأجبرا على الاستماع إلى شعر حسان(٢) ومن المحتم أن ضراراً وعبد الله قد أنشدا حسان بعض شعر قريش في الضراع بين مكة والمدينة، وأن ذلك سبب غضب حسان وثورانه لما في ذلك الشعر من هجاء للأنصار، ومن فخر عليهم.

وكانت الكتابة وسيلة ثانية لحفظ الشعر القرشي من الضياع، مثله في ذلك مثل الشعر العربي بعامة قبل جمعه والتأليف فيه. وثمة روايات تشير إلى استخدام قريش الكتابة لتدوين الشعر في الجاهلية. ومن ذلك أن قريشاً استيقظت يوماً وعلى دار الندوة مكتوب بيتان من الشعر، فيهما هجاء لبني قصي بن كلاب، فأنكر الناس ذلك، وقالوا: ما قالها إلاّ ابن الزبعرى.(٣) ومما يذكر هنا الرسائل الشعرية التي أرسلها عبد المطلب إلى أخواله في يثرب يطلب فيها أن ينصروه على عمه نوفل.(٤)

وفي صدر الإسلام أصدر الخليفة عمر أمراً بكتابة الشعر، والاحتفاظ به وذلك في قوله لأهل المدينة: «إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا ممّا كان بين المسلمين

---

(١) سيرة ابن هشام ١٤/٢. وروي أن عمرو بن كلثوم قام بمعلقته خطيباً بسوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة (الأغاني ١١/٥٤).

(٢) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٣ - ٢٠٤ والأغاني ٤/١٤٠ -١٤١.

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ١٩٦ - ١٩٧.

(٤) تاريخ الطبري ٢/٢٤٨ وما بعدها.

والمشركين شيئاً دفعا للتضاغن عنكم .... فأما إذ أبَوا فاكتبوه واحتفظوا به».[1]
وكان هذا الطلب بعد المجلس الشعري الذي ضم ضراراً وعبد الله بن الزبعرى وحسان بن ثابت. وهذا يعني أن عمر يرغب بتدوين شعر المسلمين الذي قيل في محاربة المشركين، وبعضه قرشي، وأن شعر قريش كان آنذاك يحفظ مشافهة، وربما كتابة. وسوف نجد في ثنايا هذه الدراسة أن الرسائل الشعرية كانت ظاهرة بارزة في الصراع بين علي ومعاوية.

واهتم بشعر قريش كثير من رواة الشعر والإخباريين والنسابين، ولا عجب، فشعر قريش سجل لحياة أعظم القبائل العربية، ووثيقة تاريخية لكثير من أحداث سيرة الرسول، وسيرة الخلفاء الراشدين، ونستشهد لهذا الاهتمام بقول حماد الرواية: «أرسل الوليد بن يزيد إليّ بمائتي دينار، وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد، فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه قريش وثقيف، فنظرت في كتابي قريش وثقيف، فلما قدمت عليه سالني عن أشعار (بَليّ) فأنشدته منها ما استحسنه».[2] وهذه الرواية تدل على وجود ديوان مجموع لشعر قريش منذ العصر الأُموي. وتدل روايات أخرى على وجود مجاميع لشعر بعض بطون قريش كبني هاشم،[3] وبني مخزوم.[4] ولكن تلك المجاميع أو الدواوين لم تصل إلينا. وقد أعرض الرواة القدماء عن جمع شعر أحد من قريش سوى أبي طالب وابنه عليّ، وهذا الإعراض سببه أن شعر قريش ازدهر في عصر البعثة، وأن أكثره كان معادياً للإسلام، وأن منزلة شعراء قريش الفنية لا تشجع على جمع أشعارهم في دواوين. ولذلك بقي شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام متفرقاً في كتب التراث العربي. وفيما يلي وقفة عند مظان ذلك الشعر.

---

(١) الأغاني ١٤١/٤. وكان عمر قد نهى عن إنشاد شيء من مناقضة الأنصار والمشركين وقال: في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد الضغائن.

(٢) المصدر السابق ٩٤/٩ و ٢٣٥/٢٤.

(٣) المؤتلف والمختلف ص ٤١.

(٤) الفهرست ص ٢٣٢.

١ – كتب السيرة والتاريخ

من المعروف أن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي (ت ٩٢ هـ) هو أول مؤلف في السيرة، ثم تلاه أبان بن عثمان (ت ١٠٥ هـ) ثم عاصم بن عمر الأنصاري (ت ١٢٠ هـ) ثم أبو بكر الزهري (ت ١٢٤ هـ). وعن هؤلاء وغيرهم أخذ ابن إسحاق (ت ١٥١ هـ) مادة السيرة النبوية الرئيسة التي هذبها ابن هشام الأنصاري (ت ٢١٣ هـ).

وسيرة ابن هشام تحفل بشعر قريش في عصر البعثة بخاصة. وفيها يبرز موقف ابن هشام النقدي من الشعر الذي رواه ابن إسحاق في السيرة؛ فقد اهتم ابن هشام بتوثيق شعر السيرة، فأسقط كثيراً منه بعد أن عرضه على أهل العلم بالشعر، وتبين له النحل والصنع فيه. وقد صرح ابن هشام في مقدمة سيرته أنه سيترك أشعاراً ذكرها ابن إسحاق، ولم ير أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها.(١)

لقد أسقط ابن هشام أكثر الأشعار التي رواها ابن إسحاق. ويظهر ذلك جلياً في المقابلة التي أجراها الأستاذ عبد العزيز الدوري بين حوالي ستين صحيفة من مخطوطة سيرة ابن إسحاق والقسم المقابل لها في سيرة ابن هشام فوجد أن ابن هشام أسقط قصائد لأبي طالب في مسير الرسول (ص) إلى الشام وفي غير ذلك، وأسقط مقطعتين للزبير بن عبد المطلب في بناء الكعبة، ومقطعه للوليد بن المغيرة المخزومي، وقصيدة لصفية بنت عبد المطلب.(٢)

واهتم ابن هشام بتسجيل ملاحظات توثيقية على كثير من الأشعار التي أثبتها في سيرته، كقوله: ولم ار أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر(٣) وقوله: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للشاعر،(٤) وقوله: وبعض أهل العلم بالشعر

---

(١) سيرة ابن هشام ٦/١.

(٢) دراسة في سيرة النبي ص ٢١.

(٣) سيرة ابن هشام ١٥٦/١ و ٢٦٢/٢ و ١١٤/٣.

(٤) المصدر السابق ١٧١/٢ و ٢٦٠ و ١٣٥/٣.

ينكرها للشاعر.[1] ويفهم من هذه الملاحظات أنه كان يطمئن إلى صحة هذه الأشعار أو أنه يشعر بأهمية روايتها، ولكن ذلك لم يمنعه من تسجيل ما توصل إليه عنها.

وأهل العلم بالشعر الذين أخذ عنهم ابن هشام يمكن تعرفهم من تتبع مداخلاته النقدية، وشرحه لبعض الأشعار، ومنهم المفضل الضبي، وخلف الأحمر، وأبو عبيدة النحوي وأبو زيد الأنصاري ويونس بن حبيب النحوي.[2] ومداخلات ابن هشام تدل على دراية عميقة في فهم الشعر وروايته.[3]

إن ملاحظات ابن هشام على شعر السيرة جديرة بالاهتمام في مجال توثيق شعر قريش، فقد أسقط كثيراً من الأشعار، وأورد الشك في بعض الأشعار التي أثبتها. وهذا الشك سبب كاف لعدم اعتماد هذه الأشعار. وأما الأشعار التي أوردها و لم يعلق على نسبتها إلى أصحابها فهي موثقة عنده. ولكن هذا الموقف لا يعفي من النظر فيها، فقد يكون بعضها مصنوعاً، و لم يفطن ابن هشام إليه، ومن ذلك الشعر المنسوب إلى أبي طالب في حضّ النجاشي على حسن جوار المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة.[4]

وثمة كتب أخرى في سيرة النبي كالمغازي للواقدي، والروض الأنف للسهيلي، وعيون الأثر لابن سيد الناس. وهذه الكتب تحوي أشعاراً كثيرة تساعد على تصحيح نسبة الشعر وتوضيحه. وقد ينفرد كتاب منها برواية شعر لانجده في غيره. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن مؤلفي تلك السير كانوا يهتمون أحياناً بتوثيق نسبة ما يروونه إلى أصحابه[5] .

وتعد كتب التاريخ مصدراً رئيساً لشعر الفتوح، والصراع على الخلافة بخاصة. ويأتي (تاريخ الرسل والملوك) للطبري (ت ٣١٠ هـ) في طليعة كتب

---

(١) المصدر السابق ٢٧١/٢ و ٢٧٤ و٢٨٢ - ٢٨٣. وكان ابن هشام أحياناً يوثق نسبة الشعر ثم يشك في صحة نسبة بعض الأبيات منه (سيرة ابن هشام ١١٥/٢ و ٥٨/٤)

(٢) انظر المصدر السابق ٦١/١ و ٢٧٨/٢ و ٧٩/٣ و ٨٧ - ٨٩ و ١٠٢/٤ و ١٦٠.

(٣) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٣٥ - ٣٤٥، وقصة الأدب في الحجاز ص ٣٥٩ - ٣٦٦.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٢٨٨/١.

(٥) انظر المغازي ص ٥٥ وعيون الأثر ٥١/٢.

التاريخ أهمية، فطريقة رواية الطبري للأشعار تساعد على توثيقها، فهو يتبع طريقة المحدّثين في إسناد الأشعار إلى أصحابها، وفي إيراد الروايات المختلفة للسند والمتن الشعري. ومن كتب التاريخ المهمة هنا كتاب مروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٥ هـ) وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ).

وإلى جانب الكتب التاريخية الموسوعية توجد كتب أرّخت لأحداث أو معارك محددة، ومن ذلك كتب الفتوح التي تصور ملاحم الفتح العربي الإسلامي، وما رافقها من شعر حربي حماسي. ومنها (فتوح الشام) للواقدي وكتاب (وقعة صفين) لنصر بن مزاحم المنقري. ويحسن أن نشير هنا إلى أن أكثر شعر قريش المنحول والمصنوع مبثوث في كتب السيرة والتاريخ بخاصة. لكن استبعاد تلك الأشعار ممكن اعتماداً على الأسس التي سبقت الإشارة إليها في الفصل السابق.

٢- كتب الأنساب والتراجم

تتصف كتب الأنساب بعامة بالجفاف لأن مؤلفيها يسوقون سلاسل نسب القبائل، وتفرعات بطونها دون الوقوف عند أخبار من يرد ذكرهم من أعلام الرجال والنساء. ولكن بعض المؤلفين اهتموا بترجمة الأعلام مع ذكر نبذ من أخبار أولئك الأعلام وأشعارهم. ومن حسن الطالع أن هذا الصنف من كتب الأنساب خاص بنسب قريش، وأن اثنين مِمّن ألفوا فيه قرشيان وهما المصعب الزبيري مؤلف (نسب قريش) والزبير بن بكار مؤلف (جمهرة نسب قريش). وهذان الرجلان هما حصيلة لمدرسة بالرواية لدى قريش، وقد مرّت بنا جذور هذه المدرسة في الفصل الخاص بنسب قريش.

وفي الكتابين المذكورين أشعار نادرة، وهما مصدران أصيلان لشعر قريش، فقد وثق القدماء روايات الزبيريين عامة[1]، والزبير بن بكار خاصة[2] ومن المؤسف

(١) انظر الروض الأنف ٣/٣٥٤. وأكثر روايات الزبير وعمه عن قرشيين. انظر (نسب قريش ص ١٤ - ١٧)

(٢) الاستيعاب ص ٢٤٨ و ١٦٢٣، وجمهرة نسب قريش ص ٥٥ - ٧٢. وقد شك صاحب الأغاني مرة في رواية الزبير لشعر مختلط ومنسوب إلى أكثر من شاعر (الأغاني ٢٦/١٦).وفي رواية الأغاني تحامل ظاهر على الزبير.

أن جمهرة الزبير لم تصل إلينا كاملة[1]، وأن أكثر مؤلفات الزبير قد فقدت، وفقد بذلك كثير من شعر قريش الموثّق. ولكن مؤلفي كتب الأدب والتراجم الذين أخذوا عن الزبير أو عن مؤلفاته - حفظوا بعض ذلك الشعر من الضياع.

إن كتب التراجم التي تحوي شعراً قرشياً نوعان: تراجم الصحابة، وتراجم الشعراء. وفي تراجم الصحابة أخبار شعراء قريش الذين صحبوا رسول الله، ونبذ من أشعارهم. وبعض هذه الأشعار ترقى إلى درجة عالية من التوثيق، لأنها مروية عن رواة موثوقين كالزبير بن بكار. وقد اهتم مؤلفو هذه الكتب بتوثيق الأشعار،[2] وتذوقها وإصدار بعض الأحكام النقدية عليها.[3] وأقدم تراجم الصحابة (الطبقات الكبرى) لابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) وأشملها (الإصابة) لابن حجر (ت ٨٥٢ هـ).

أما تراجم الشعراء فبعضها خاص بالمشهورين، وبعضها الآخر في تراجم عامة الشعراء. فكتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) خاص بالمشهورين، من شعراء الجاهلية والإسلام. وقد أفرد المؤلف قسماً من كتابه لشعراء مكة، تحدث فيه عن تسعة من شعراء قريش المشهورين، وروى أشعاراً جاهلية لبعضهم، ووثق أغلب تلك الأشعار.[4] والباحث يطمئن إلى رواية ابن سلام صاحب المنزلة الرفيعة في عالم الشعر العربي.

ومن كتب تراجم عامة الشعراء كتاب (معجم الشعراء) للمرزباني (ت ٣٨٤هـ) وفيه ترجمات لشعراء مغمورين، وتوثيق للأشعار في مواضع كثيرة.[5]

---

(١) نصفها الأول مفقود. وطبع منها القسم الخاص بنسب بني أسد بن عبد العزى. ولا زال بقية نصفها الثاني مخطوطاً فيما أعلم.

(٢) انظر الاستيعاب ص ١٠٤٩ و ١٣٣٧.

(٣) انظر الطبقات الكبرى ١/ ٨٠ والاستيعاب ص ١٥١٨ و ١٦٧٤.

(٤) شك ابن سلام في بعض الشعر القرشي المروي في طبقاته (ص ٢٠٨ و ٢٠٩)

(٥) معجم الشعراء ص ١٨٩ و ٢٨٨ و ٢٩٤ و ٣٢٣ و ٣٤٦ و ٤٨٤.

٣- كتب الأدب

يُعَدّ كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) مصدراً مهماً لشعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام. فقد تحرى الأصفهاني الدقة في روايته فعاد أحياناً إلى مصادر الشعر الأصلية المدونة في عهده ليتأكد من نسبة الشعر إلى صاحبه إذا شك فيه.[١] وكان يفاضل بين الروايات المختلفة للنص الشعري بطريقة يظهر فيها اطلاعه الواسع في عالم رواية الشعر.[٢] ومن كتب الأدب المهمة في هذا المجال كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧ هـ)، وعيون الأخبار والمعاني الكبير لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ).

٤- كتب المختارات الشعرية

أغفل مؤلفو مختارات القصائد الشعرية اختيار قصائد قرشية من شعر الجاهلية وصدر الاسلام. ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك أن أصحاب المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب فعلوا ذلك لعدم وجود شاعر قرشي يصل إلى مرتبة الشعراء المجيدين في معاييرهم النقدية.

وأما المجموعات الشعرية التي تتضمن اختيارات لمقطوعات أو أبيات من قصائد - فقد حوت بعض شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام. ويأتي في طليعة تلك المجموعات كتاب (الحماسة) و(الوحشيات) لأبي تمام (ت ٢٣١ هـ). وحظي الشعر الذي رواه أبو تمام باهتمام القدماء وتقديرهم فوثقوه، واستشهدوا به.[٣] ولا يُقَلّل من قيمة رواية أبي تمام أنه كان إذا «انتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه يجبر نقيصته من عنده، ويبدل الكلمة بأختها بنقده».[٤] وذلك لامتلاك أبي تمام سليقة أصيلة، وموهبة شعرية متميزة في عالم الإبداع.

ونسج على منوال أبي تمام عدد من المصنفين، أبرزهم البحتري (ت ٢٨٤ هـ) في حماسته. ويؤخذ على كتب الحماسة المتأخرة أنها تضمنت شعراً منحولاً.

---

(١) الأغاني ١٠/ ٤٠ و ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢١٤ و ١٥/ ٧٤ - ٧٥ و ١٦/ ٢٦ - ٢٧

(٣) الخزانة ١/ ٧

(٤) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٤.

وتجنب المنحول فيها ممكن بالاستعانة بالأسس المعتمدة في الفصل السابق. ومن تلك الكتب حماسة ابن الشجري (ت ٥٤٢ هـ)، وحماسة الظرفاء للزوزني (ت ٤٣١ هـ) والحماسة البصرية للبصري (ت ٦٥٩ هـ).

٥- مصادر أخرى

ثمة مصادر أخرى لشعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام ككتب اللغة والنحو. وأغلب مايرد في هذه الكتب من الأشعار موثق لأنه مادة للاستشهاد اللغوي والنحوي، فالاستشهاد يحتم على مؤلفي تلك الكتب تحري الدقة في الرواية. ويغلب على هذه الكتب وجود البيت الشاهد مقتطعاً من القصيدة أو المقطعة. ولكن بعض شروح كتب النحو تزخر بالأشعار، لأن الشارح يعمد إلى توضيح الشاهد برواية القصيدة أو المقطعة التي أخذ منها الشاهد. ومن الكتب المعروفة بذلك (خزانة الأدب) للبغدادي (ت ١٠٩٣ هـ).[1] لكن تحري مؤلفي كتب اللغة والنحو ليس دقيقاً أو مقصوداً دائماً، فقد يتغاضى المؤلف عن التدقيق فيستشهد بشعر منحول لدعم وجهة نظر لغوية أو نحوية.

إن مصادر شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام متنوعة، وتتضمن شعراً كثيراً منسوباً إلى شعراء قريش وشاعراتها، بعضه صحيح وبعضه الآخر غير صحيح. والتمييز بينهما ممكن بالدراسة الفاحصة المتروية لكلّ نص، وبالاستنارة بأقوال القدماء فيه. وإن افتقار مصادر شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام إلى دواوين لشعراء القبيلة لا يقلل من قيمتها كثيراً، فمشكلة النحل والصنع موجودة، ولم يسلم منها أي ديوان من دواوين شعراء الجاهلية وصدر الإسلام.[2]

---

(١) انظر شرح البغدادي في خزانته للشواهد ذوات الأرقام ٩١ و٢٠٦ و ٢١٥ و ٢٣٤ و ٢٩٢.

(٢) انظر مثلاً الشك في كثير من شعر امرىء القيس والنابغة والأعشى في العصر الجاهلي ص ٢٤٣ - ٢٤٧ و ٢٧٥ - ٢٨٠ و ٣٣٩ - ٣٤٧).

الباب الثالث

شعر قريش في الجاهلية

- موضوعات شعر قريش في الجاهلية
- خصائص شعر قريش في الجاهلية

الفصل الأول

موضوعات
شعر قريش في الجاهلية

- ١ -

الشعر السياسي

١- الصراع داخل قريش

مرّت بنا صور من الصراع داخل قريش. ومن ذلك ما وقع بين بني عبد شمس وبني عدي. وقد سجل الخطّاب بن نفيل العدويّ بعض ما وقع بين الفريقين في قوله مهدداً أبا عمرو بن أمية العبشمي ببني سهم حلفاء بني عديّ[1]

أَيُو عِدُني أبو عمرو ودوني ... رجالٌ لا يُنَهْنِهُهَا الوعيدُ

رجالٌ من بني سَهْمِ بنِ عمرو ... إلى أبياتهم يأوي الطريدُ

وكيف أخافُ أو أخشى وعيداً ... ونصرُهُمُ إذا أدعو عتيدُ؟

وحين حاول بنو عبد مناف إجلاء بني زهرة عن منازلهم ساند بنو سهم بني زهرة، وفي ذلك يقول شاعر بني سهم:[2]

نحنُ مَنَعْنا من الإجلاء إخوتَنا ... لما أُنيختْ مطايا القوم جَالينا

لما رأوا مكفهراً لا كِفاءَ لَهُ ... من شرِّ سَهْمٍ ونادَاهُمْ منادينا

أنْ أصبحُنَّ وأصبحْ ليلُ إنَّ لنا ... أمراً سيكفيهمُ منّا ويكفينا

ونلمح في هذه الأبيات، وفي شعر الخطاب قبلها مناصرة بني سهم لبعض بطون قريش الضعيفة للوقوف في وجه اعتداءات بني عبد مناف الأقوياء. وهذا دليل قوي على إقدام بني سهم على منافسة بني عبد مناف على السيادة في مكة.

---

(١) الحماسة الشجرية ٦/١.

(٢) جمهرة نسب قريش - مخطوط ص ١٨٤/ب. وقال الزبير أيضاً: «روي هذا لابن الزبعري. وقال قائل: أظنها لرجل من بني سهم في الإسلام».

ومن الصراع بين بطون قريش في الجاهلية ما حدث بين بني عبد مناف وبني عامر، فقد استأجر خداشُ بن عبد الله العامري عمرَو بن علقمة بن عبد المطلب الهاشمي وخرجا معا إلى الشام، وفي الطريق فقد خداش حبلاً، فضرب عمراً بعصاً، فمرض عمرو، ثم مات من تلك الضربة. وفي ذلك قال أبو طالب لخداش:(١)

أفي فَضْلِ حَبْلٍ لا أباكَ ضَرَبْتَهُ ... بِمِنْسَأَةٍ قد جاء حَبْلٌ بِأَحْبُلِ

ودعا العباس بن عبد المطلب أبا طالب إلى أخذ الثأر من بني عامر بأشعار ومنها قوله:(٢)

أبا طالبٍ لا تقبَلِ النَّصفَ منهمُ ... وإن أنصفوا حتى تَعُقَّ وتَظْلِما

أبى قومُنا أنْ يُنصفونا فأنصفَتْ ... قواطعُ في أيمانِنا تَقْطُرُ الدّما

تركناهُمُ لا يستحِلّونَ بعدَها ... لذي حُرْمَةٍ يوماً من الدّهرِ مَحْرَما

والأبيات السابقة تشير إلى أن بني عبد مناف قد ثأروا لقتيلهم. ولكن تتبع الروايات حول هذا الحدث ينفي ذلك.

ومن الأشعار التي قيلت في الصراع داخل قريش قول ضرار بن الخطاب الفهري مهدّداً بني حُجير وحَجر وَلديّ عبد بن معيص العامري:(٣)

أنبئتُ أن غواة من بني حَجر ... ومن حُجَيْر بلا ذَنْبٍ أراغوني

أغنُوا بني حَجرٍ عنّي غُواتَكُمُ ... ويا حُجَيْرُ إليكمْ لاتُوَرّوُني

لاتَجْمِلوني على خَدْباءَ عاريةٍ ... فأركبَ الشرّ إنيّ غيرُ مَأمونِ

وتسبب بعض حلفاء قريش بوقوع خلافات داخل بطونها. ومن ذلك أن المثلّم بن خذافه العدوي أجار رجلا يقال له أوس من النمر بن قاسط، فقتل أوس رجلا من بني جمح، فطلبه سيدهم أبيٌّ بن خلف، فمنع المثلم جاره، وقال في ذلك:(٤)

---

(١) نسب قريش ص ٤٢٤. والمنسأة العصا.

(٢) حماسة البحتري ص ٦٠ ورويت الأبيات في الوحشيات ص ٦٧ متنازعة بين العباس وابن أخيه عامر بن علقمة.

(٣) شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٥٨ – ٥٩. وأراغوني: طلبوني وخادعوني. وأغنوا .. عني غواتكم: اصرفوهم عني وكفوهم. ولا تبوروني (هنا): لاتختبروني والخدباء (هنا): العقور من كلّ حيوان.

(٤) جمهرة نسب قريش، مخطوط ص١٧٧/ب.

مـن ذا يُبَـدّدُ بـينَ النـاس مَعْذِرتـي إن رَدَّ جـاري أُبـيٌّ وَهْـوَ مقتـولُ
تَنـازَع الطـيرُ بالبطحـاء حُشـوَتَهُ يُقـالُ:مَنْ جـارُ هـذا، غالَـهُ غُـولُ
فَلَسْتُ أُسلِمُ أَوْسـاً لامرىء أبـدًا حتّـى أُردَّ وثغـرُ النحـر مَبْلُـولُ
أو ابلُـغَ العُـذْرَ في أوس فَيَعْذِرَنـي فيه الرجـالُ إذا مـا يُنْشَـر القيـلُ

وقد اجتمـع بنـو جمـح لمحاربـه بـني عـدي وحلفـائهم بـني سـهم، و لم يلبـث الفريقان أن تحاجزا، و لم يقتتلا مظهرين في ذلك رغبة بطون قريش بالسلام والأمـن الداخلي.

وثمه حوادث تدل على تعقّل بطـون قريـش، فهـي تنفـر مـن محاربـة بعضهـا بعضاً، وتكتفي بالتراشق بالأشعار. ومن ذلك ما وقع بين بني أسد وبين عامر، فقد مات أبو ذيب العامري في بلاط الغساسنة بالشام بتدبير مـن عثمـان بـن الحويـرث الأسدي، فطالب العامريون بني أسد بدية أبي ذيب، فقال لهم أبو زَمْعَة شـاعر بـني أسد:[1]

والله لا أعطيك ـ حِسْلُ ـ سَهْما
وإنْ تجنّيـت علـيَّ الظلمـا
وانْ غَضِبْتِ لأَزِيْدَنْ رَغْمَا

فقال بنو عامر لبـني أسـد: فـاحلفوا لنـا أنكـم لم تقتلـوا أبـا ذيـب، فقـال لهـم أبـو زمعة:[2]

يا حِسْلُ،حِسْلَ عامرٍ لاتَجْهَلِي
إنْ تَسْألي أيمانَنا لانَفْعَلِ
أو تَبْذُلي أيمانَكُمْ لانَقْبَلِ

وجعلت بنو عـامر تجمـع لبـني أسـد، فقـال أبـو زمعـة مسـتهينا برجـال بـني عامر:[3]

---

[1] جمهرة نسب قريش ١/ ٤٣٢. وبنو حسل: فخذ من بني عامر بن لؤي.

[2] المصدر السابق ١/ ٤٣٣.

[3] المصدر السابق ١/ ٤٣٣. والأعلام في البيتين هم: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأبو لبيد بن عبـدة العـامري، وعوف بن دهر من بني تيم الأدرم، وسهيل وسهل ابنا عمرو العامري. والبكر: الفتي من الإبل. والشاعر يسخر من عوف بن دهر حين يجعل بكر الوليد قادراً على دفع شر عوف.

سيكفيني الوليدُ أبا لُبَيْدٍ ويكفي بَكْرُهُ عَوْفَ بنَ دَهْرِ

وأكفي غيرَ مكترثٍ سُهَيْلاً ويكفي باطلي سهلَ بنَ عمرو

إن البيتين السابقين يفصحان عن بعض التحالفات التي عقدت في ظلّ ذلك الخلاف، فأبو زمعة يهدد بني عامر بالوليد بن المغيرة المخزومي وهذا يعني أن بني مخزوم كانوا حلفاء لبني أسد أو أن أبا زمعة أراد أن يستثير بني مخزوم للوقوف معه، أو أن يدفع بني عامر إلى التعرض للوليد بما يكره فينحاز إلى بني أسد. وهدّد أبو زمعة عوف بن دهر فارس بني تيم الأدرم، بل سخر منه، وهذا يعني أن بني تيم الأدرم كانوا حلفاء لبني عامر ضد بني أسد. ويؤكد ذلك أن عوف بن دهر ردّ على أبي زمعة مستهزأً:[1]

ألا أيها المهدي إلينا رسالَتَه سَنُرْجِعُها بصُفْرِ

فلا وأبيكَ لاتكفي سُهَيْلاً بجمعٍ إنْ جَمَعْتَ ولا بحَشْرِ

ومن الملاحظ أن عوفا كان فطناً حين أحجم عن التعرض للوليد بن المغيرة المخزومي بسوء مفوتًا بذلك على أبي زمعة فرصة ضم بني مخزوم إلى قومه. ثم جاء الإسلام ووقعت الحرب بين النبي وقريش، فشغلت المختلفين عمّا كان بينهم.[2]

وكان التنافس على مصادر المياه يؤدي إلى الخلاف بين بطون قريش أحيانا. وروي في ذلك أن عبد المطلب بن مناف نازع عديّ بن نوفل في سقاية عدي المشهورة، فقال عدي لعبد المطلب مهدداً بأقاربه بني أسد:[3]

متى أدعُ عوّاما ويأتِ ابنُ أمّهِ حِزامٌ فمولَى نوفلٍ غَيْرُ مُفْرَدِ

تَطُفْ أسدٌ حَوْلي بحَدّ رمَاحِها ويأتوكَ أفواجاً على غيرِ مَوْعِدِ

وجاء بعد ذلك في روايه أخرى:[4]

بنو أمِّنا في كلِّ يومِ كريهَةٍ ومِن نَسْلِ شَيْخٍ مَجْدُهُ غَيْرُ مُقْعَدِ

لقد سجّل شعر قريش الجاهلي صوراً من الصراع الذي كان يقع بين

---

[1] نسب قريش ص ٤٣٣. (وكان بنو دهر بن تيم الأدرم يداً مع بني عامر بن لوي -جمهرة نسب قريش ١/٤٣٣).

[2] انظر جمهرة نسب قريش ١/ ٤٣٣.

[3] نسب قريش ص ١٩٧ - ١٩٨. وعوام وحزام رجلان مشهوران من بني أسد.

[4] معجم الشعراء ص ٨٤.

بطونها. وتبين لنا أن ذلك الصراع لم يصل إلى درجة الاقتتال إلا نادراً. وبذلك برزلنا ميل قريش إلى السلام، وتعقلها في معالجه خلافاتها الداخلية، ويرجع ذلك إلى غلبة التحضر عليها، ورغبتها في الحفاظ على مصالحها التجارية التي لاتتحق إلا بتوافر السلام في مكة.

٢- علاقات قريش بالقبائل

حرصت قريش على إقامة علاقات حسنة مع القبائل العربية التي تسيطر على طرق التجارة القرشية، فكان السلام سمة غالبة على تلك العلاقات.

وظهرت في شعر قريش الجاهلي بعض ملامح علاقاتها السلمية بالقبائل، واتخذت تلك العلاقات أشكالاً من التحالفات أبرزها حلف الفضول الذي دعا إلى عقده بعض عقلاء قريش لنصرة من يُظلَم في مكة من الوافدين إليها. وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:[1]

حَلَفْتُ لَنَعْقِدَنْ حِلْفًا عليهمْ ... وإنْ كنّا جميعاً أهْلَ دار

نُسَمّيهِ الفُضُولَ إذا عَقَدْنا ... يَعِزُّ به الغريبُ لَدَى الجوار

وَيَعْلَمُ مَن حوالي البيتِ أنّا ... أُبَاةُ الضيم نمنعُ كلَّ عار

وقال الزبير في ذلك أيضاً:[2]

إنَّ الفُضُولَ تحالَفُوا وتَعَاقدوا ... ألاّ يُقِيمَ ببَطْنِ مَكّةَ ظالمُ

أمرٌ عليه تعاهدوا وتواثَقُوا ... فالجارُ والمعتَرُّ فيهم سالمُ

إنّ الزبير - وهو من مؤسسي الحلف ـ يبين لنا أن غاية الحلف هي حماية الذين يفدون الى مكة طلبا للجوار أو الحجّ، من ظلم أشرار قريش. ومن المؤكد أن هذه الحماية تنمي التجارة في مكة، وتحافظ على منزلة قريش الدينية بين العرب.

وحالف عبد المطلب الهاشمي نفرًا من بني خزاعة مجاورين له في مكة، حالفهم على التناصر والمواساة. وقد أوصى عبد المطلب ابنه الزبير بالمحافظة على ذلك التحالف بقوله:[3]

---

(1) الروض الأنف ٢/ ٧٣

(2) المصدر السابق ٢/ ٧٣. والمعتر: من يذبح لآلهته في رجب.

(3) الطبقات الكبرى ١/ ٨٥ - ٨٦. وبنو عمرو: خزاعة. والإلّ: العهد والقرابة.

سأوصي زُبيراً إنْ توافَتْ مَنِيّتي | بإمساك ما بيني وبينَ بني عمرو
وأنْ يحفظَ الحلف الذي سنّ شيخُهُ | ولا يُلْحِدَنْ فيه بظلم ولا غَدْر
هُمُ حَفِظوا الإلّ القديمَ | أباكَ فكانوا دونَ قومِكَ مِنْ فِهْرِ

لقد سكن عرب كثيرون مكة، فأمنوا بتحالفهم مع رجال من قريش التي كانت تعلي شأن حلفائهاحتى تكاد تلحقهم بالصميم. ومن الشعر الدالّ على ذلك قول حرب بن أمية داعيا أبا مطر الحضرمي إلى النزول في مكة حليفا له، حيث يجد المعاملة الحسنة والعيش الرغد والأمن:[1]

أبا مَطَر هَلُمَّ إلى صلاح | فتكْفُكَ النّدامَى من قريش
وتأمَنُ وسطَهُمْ وتعيشُ فيهمْ | أبا مطرهُديت لخير عيش
وتسكن بلدة عَزّتْ قديماً | وتأمنُ أنْ يزورَكَ ربُّ جيش

ودعوة حرب لأبي مطر تدخل في إطار جذب رؤوس الأموال إلى مكة، وتشجيع الاستثمار فيها.

ونجد في شعر لنبيه بن الحجاج السهمي ما يشير إلى تعرض قريش لابتزاز بعض القبائل لها، وهي قبائل تسكن طريق قريش إلى الشام فقد نزل نبيه (قديد) يريد الشام، فغيب بعض بني بكر ناقته، يريد أخذ جعالة عليها، فقال نبيه في ذلك:[2]

وَرَدَتْ قديداً فالتوتْ بذِراعِها | ذؤبانُ بَكْر كلُّ أطلسَ أفْحَج
رجلٌ صديقٌ ما بَدَتْ لكَ عَيْنُه | فإذا تغيّبَ فاحتفظْ مِنْ دَعْلَج

لكن هذا الابتزاز لم يكن ظاهرة عامة لأن نظامي الإيلاف والحمس كانا يوفران الحماية لقريش. ومن الجدير بالذكر هنا أن العلاقة بين قريش وبكر كانت متوترة دائما في الجاهلية، ولعلّ هذا ما جرأ بني بكر على نبيه.

اضطرت قريش إلى الصراع مع بعض القبائل المجاورة لها كبني بكر وبني عامر

---

[1] الكامل في اللغة للمبرد ص ١٧٧. ونسبت الأبيات في فتوح البلدان ص ٦٠ إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية. وصلاح: مكة.

[2] جمهرة نسب قريش مخطوط ص ١٨٦/ ب وقديد: موضع قرب مكة. وذؤبان بكر: لصوصها. والأطلس: الوسخ الثياب. والأفحج: الذي تتدانى صدور قدميه وتتباعد عقباه. وقيل: هو الذي في ساقيه اعوجاج. والدعلج: الكلب والذئب وكلّ مختلس من السباع.

من كنانة، كما اضطرت إلى خوض حروب الفجار مع بعض قبائل قيس عيلان. وقد صور شعر قريش بعض ذلك، فحين أراد بنو بكر أن يجلوا قريشا عن مكة خرجت قريش لملاقاتهم، فحاربتهم، ودحرتهم في يوم (ذات نكيف). وقد أشار إلى ذلك ابن شعلة الفهري بقوله:[1]

فللهِ عَيْنا مَنْ رأى من عصابةٍ غوتْ غيَّ بَكْرٍ يومَ ذاتِ نَكيْفِ
أناخوا إلى أبياتنا ونسائنا فكانوا لنا ضيفاً بشَرِّ مَضِيفِ

وقتل بنو عامر بن عبد مناة بن كنانة رجالا من قريش، فأرادت قريش أن تثأر لهم، فخذلها حلفاؤها بنو الحارث بن عبد مناة مؤثرين بني عمهم على حلفائهم، فكفت قريش عن طلب الثأر. وفي ذلك يقول ضرار بن الخطاب الفهري:[2]

دعوتُ إلى خُطَّةٍ خالداً مِن المجدِ ضَيَّعَهَا خالدُ
فو الله أَدْري أضاهَى بها بني العمِّ أمْ صَدْرُه باردُ

وثمة خلافات بين بطون قريش وبعض القبائل العربية، لكنها لم تصل إلى درجة الاحتكام إلى السيوف. ومن ذلك استنجاد عبد المطلب بأخواله بني النجار، وذلك حين عدا عليه عمّه نوفل بن عبد مناف، فكتب عبد المطلب إلى أخواله رسائل شعرية ومنها قوله:[3]

يا طولَ ليلي لِأحزاني وأَشْغَالي هَلْ مِن رسُول إلى النجَّار أخوالي
يُنبي عَديًّا وديناراً ومَازنَها ومالكا عِصْمَةَ الجيران عنْ حَالي

ثم ذكر ظلامة نوفل له بعد وفاة عمه المطلب، وأضاف مستنجداً:

فاستنفِرُوا وامنعوا ضيمَ ابن أختِكُمُ لاتخذلُوهُ فما أنتمْ بخُذَّال

فقدم بنو النجار إلى مكة، وأجبروا نوفلا على إنصاف عبد المطلب دون أن تقع الحرب بين الفريقين.

---

(1) أنساب الأشراف ١/ ٧٦.

(2) شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٤٣-٤٤. وخالد: رجل من بني الحارث. وقد دعاه ضرار إلى مساعدة قريش، فوعده خالد بذلك ثم أخلف وعده. وفوالله أدري: فوالله لا أدري، وحذف(لا) هنا قياسي. وضاهى: شاكل.

(3) تاريخ الطبري ٢/ ٢٥٠.

ومن الخلافات المذكورة ما وقع بين بني مخزوم وبني خزاعة بشأن دم الوليد بن المغيرة المخزومي، وقد انتهى الخلاف بالصلح على الرغم من الأشعار التي قيلت فيه، وتضمنت التهديد والوعيد.[1]

وهكذا أبان شعر قريش الجاهلي بعض علاقاتها السياسية بالقبائل، وهي علاقات تجنح إلى السلم، ولا تشوبها التوترات الحربية إلا في حالات اضطرارية قليلة.

٣- علاقات قريش بالدول:

كان الإيلاف رابطاً رئيسا، ينظم العلاقة بين قريش والدول الواقعة على أطراف الجزيرة العربية في الجاهلية. ولقد تعكّر صفو العلاقة حين حاول الأحباش الموالين للروم إخضاع مكة لنفوذهم عام الفيل (٥٧٠م). ورويت لبعض القرشيين أشعار في هذه المحاولة، أغلبها مصنوع، وقليلها يُطمأن إليه، كقول عبد المطلب:[2]

لا هُمَّ إنّ العبدَ يَمْـ ـنَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالَكْ
لايَغْلُبَنَّ صَلِيبُهُمْ ومِحالُهُمْ غَدْواً مِحَالَكْ
إنْ كنتَ تاركَهمْ وقِبْـ ـلَتَنا فأمرٌ ما بدا لكْ

وقول أبي طالب:[3]

يا ربّ لاتَجْعَلْ هم سَبيلا على بناء لم يَزَلْ مأهولا
قد كانَ بانيه لكمْ خَليلا

وثمة أشعار مشابهة لعبد الله بن الزبعرى ولعكرمة بن عامر العبدري[4].

والملاحظ في الأشعار السابقة ظهور اتكالية قريش المؤمنة والمتمثلة في مقولة: إن للبيت ربّاً يحميه، وإحساسها بالتمايز الثقافي والقومي عن الأحباش المسيحيين الذين يريدون احتلال الأرض العربية وتقويض بوادر الوعي القومي العربي بهدم الكعبة مجمع أفئدة العرب، وبنشر الديانة المسيحية لتكون وسيلة للنفوذ الأجنبي إلى الجزيرة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢/ ٤١- ٤٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٤٥.

(٣) الأضداد للأنباري ص ١٣٣.

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١/ ٤٥- ٤٦ و٥٠-٥١.

العربية آنذاك. ومما يؤكد النزعة القومية عند قريش ابتهاجها بطرد الأحباش من اليمن، وإرسالها وفداً لتهنئة سيف بن ذي يزن بانتصاره على الأحباش، وكان في الوفد أمية بن عبد شمس الذي أنشد أبياتاً مدح فيها سيفاً حين لقيه للتهنئة.[1]

وثمة أشعار قالها نفر من قريش كانوا سجناء عند الغساسنة وفيها يظهر الاستياء من تواني قريش عن فدائهم كما في قول عثمان بن الحويرث الأسدي:[2]

ظُلِمْتُ فلم يَغضبْ عَدِيٌّ ونوفلٌ ... وليس على أبي هشام مُعَوَّلُ

وياليتَ حَظِّي مِن تُوَيْتٍ ونصرِهِ ... نَضِيٌّ إذا أَرْمي بهِ لا يُعَضَّلُ

وقول سعيد بن العاص الأموي مستبطئا سعي قومه في إطلاق سراحه من سجن الغساسنة:[3]

قومي وقومُك يا هشامُ قَدَ اجْمَعُوا ... تركي وتركَكَ آخِرَ الأعْصَار

ثم قام قوم سعيد، وسعوا في إخلاء سبيله، فقال:[4]

يا راكبا إمّا عَرَضْتَ فبلّغا قومي بَريدا

عثمانَ أوعفّانَ أوأبلغْ مُغَلْغَلَةً أسيدا

فلأَمْدَحَنّ الوافدينَ بمِدْحةٍ تأتي سَرُودا

حسَناً دوابِرُها أحَبّرُها فتَحْسَبُها بُرُودا

وحين مات عثمان بن الحويرث مسموما عند الغساسنة قال ورقة بن نوفل الأسدي يرثيه، ويتهدد عمرو جفنة الغساني:[5]

ألا هَلَ اتى ابنتَيْ عثمانَ أن أباهُما ... حانت مَنيّتُهُ بجَنْبِ الفَرْصَدِ

فَلأبكِيْن عثمانَ حقَّ بُكائِهِ ... وَلَأَنْشُدَنْ عمراً وإنْ لم يُنْشَدِ

---

[1] انظر الأغاني ١٧/ ٣١٦- ٣١٧.

[2] جمهرة نسب قريش ١/ ٤٣٤. والنضي: عود السهم قبل أن ينحت، ولا خير فيه. ولا يعضل: المراد لا يلتوي.

[3] المصدر السابق ١/ ٤٢٩. وآخر الأعصار: أبد الدهر. وهشام: هو أبو ذيب العامري وقد مات في سجن الغساسنة.

[4] المصدر السابق ١/ ٤٢٨ - ٤٢٩. والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى آخر. والأعلام في الأبيات رجال من بني أمية.

[5] المصدر السابق ١/ ٤١٩. والفرصد: موضع بالشام وفي البيت الأول خزم بزيادة (ألا).

وتلا ذلك شعر كثير ذكر الزبير بن بكّار بعضه، واللافت أن تلك الأشعار تخلو من التعرض للغساسنة أو الروم عدا التهديد الخجول الذي وجهه ورقة لعمرو بن جفنة. وسبب ذلك أن أولئك النفر حبسوا عند الغساسنة بأمر من الروم أو بتواطؤ مع قريش[1]، ومصلحة قريش تتطلب الإقفال على ما وقع لنفر من رجالها عند الغساسنة دفعاً للتباغض بين أبناء القبيلة، ورغبة في مداراة الروم والغساسنة حفاظاً على مصالح قريش التجارية في الشام. ويضاف إلى ذلك عدم اقتدار قريش على مناوئة الروم أو الغساسنة، ولهذا آثر شعراء قريش التغاضي عن ذكر أسباب وقوع بعض رجالها في يد الغساسنة وربما كان في الشعر الذي لم يصل إلينا ما يخالف ذلك.

٤ – مناهضة الإسلام

حاربت قريش في الجاهلية الأفكار النيرة التي تناهض الوثنية، وتبرز تفاهتها، وتساعد على إضعاف مركز قريش السياسي والديني بين العرب. لقد تعرض زيد بن عمرو بن نفيل العدوي قبل الإسلام للاضطهاد، وآذاه الخطاب بن نفيل، وأخرجه من مكة، ووكل به بعض سفهاء قريش ليمنعوه من دخول مكة حتى لا يفسد على قريش دينهم لأن زيداً سفّه آلهة قريش ودعا إلى الحنيفية. دين إبراهيم عليه السلام، لقد تألم زيد من فعل الخطاب وشكا أمره إلى الله فقال:[2]

لا هـمَّ إنّـي محـرمٌ لا حِلّـهْ	وإنَّ بيتـي أوسـطَ المَحَلّـهْ

عند الصفّا ليس بذي مَضَلّهْ

وحين ظهر الإسلام حاربت قريش الرسول بكل قوتها. ولم أقف على شعر قرشي مناهض للإسلام قبل هجرة الرسول إلى المدينة. لكن وجود شعر أبي طالب المناصر للرسول تعصباً لبني هاشم يدفع إلى الاعتقاد بوجود شعر قرشي مناهض له. ومّما يؤكد ذلك أن قريشا حاولت معارضة القرآن بالشعر[3]. فأين ذلك الشعر؟ من المرجح أن الرواة قد أهملوه، فسقط من يد الزمن، ولكن ابن هشام حفظ في

---

(1) انظر هذه الدراسة ص ٣٢.

(2) سيرة ابن هاشم ١/ ٢١٣.

(3) العمدة ١/ ٢١١.

سيرته نزراً يسيراً منه، يدعم صحة القول بأن قريشا ناهضت الإسلام بشعر ديني قبل هجرة الرسول إلى المدينة، فها هي أم جميل امرأة أبي لهب تقول لأبي بكر الصديق حين نزلت سورة المسد فيها وفي زوجها: «أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني....أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمَّماً عَصَيْنا وأمره أَبَيْنا

ودِينَهُ قَلَيْنا»[1]

هاجر الرسول إلى المدينة فا حتدمت معركة شعرية شديد أوراها بين مكة والمدينة. وكان شعر قريش المشركة قبلياً مألوفا، لكنه لم يخل من إشارات تدل على أن قريشا تناصر الشرك، وتدافع عنه. ومن ذلك أن أبا أحيحة الأموي كان معجباً بابنه عمرو، ومحباً له لإقامته على دين آبائه، وهو يأمل أن يشب عمرو، ويحارب المسلمين، ويشفي غيظ أبيه منهم. يقول أبو أحيحة:[2]

أَلا ليتَ شِعْري عنكَ يا عمرو سائِلا إذا شبَّ واشتدَّتْ يَداهُ وَسُلِّحَا

أَتَتْرُكُ أمرَ القومِ فيه بَلابلٌ تُكشِّفُ غيظًا كان في القلبِ موجَحَا

ثم مات أبو أحيحة، وأسلم ولداه: عمرو وخالد، فقال لهما أخوهما أبانٌ، يعاتبهما على إسلامهما:[3]

أَلا ليتَ مَيْتاً بالظُّرَيْبَةِ شاهِدٌ لما يَفْتَري في الدين عمرٌو وخالدُ

أطاعا بنا أَمْرَ النساء فأصْبَحَا يُعينان من أعدائنا مَنْ نُكايدُ

وعاتب عبد الله بن الزبعرى خالد بن الوليد لأنه أسلم، وهاجر إلى المدينة منصرفا عن مجد بني مخزوم التليد بقوله:[4]

أمِفتاحَ بيتٍ غيرِ بيتِكِ تبتغي وما تبتغي عن مجدِ بيتٍ مُؤَثَّلِ

وحين قال حسان بن ثابت الأنصاري عقب غزوة بدر الآخرة(٤هـ):[5]

---

(1) سيرة ابن هشام ٢ / ٦. وأرادت بمذمم الرسول (ص)، وقلينا: بغضتنا.

(2) المصدر السابق ٣/ ٢٣٣. وأبو أحيحة مات مشركاً، ودفن بالظريبة من ناحية الطائف. والبلابل: الاضطراب.

(3) المصدر السابق ٣/ ٢٣٣.

(4) جمهرة نسب قريش -مخطوط ص ١٤٣/ أ

(5) سيرة ابن هشام ٣/ ١٢٥.

بأيدي رجال هاجروا نحو ربِّهم   وأنصاره حقًّا وأيدي الملائك

ناقضه أبو سفيان بن الحارث الهاشمي بقوله:[1]

فإنّك لا في هجرةٍ إنْ ذكَرْتَها   ولا حُرُماتِ الدين أنتَ بناسك

وأعلن ضرار بن الخطاب أن قريشا سارت من مكة إلى المدينة في غزوة الخندق لمقاتلة (الخاطيينا) الذين لا رشيد فيهم، وذلك في قول ضرار:[2]

وجُرداً كالقِداح مُسَوَّمَاتٍ   نَؤُمُّ بها الغُواةَ الخاطيينا

أُناسٌ لا ترى فيهم رشيداً   وقد قالوا: ألسْنا راشدينا

ونجد ذكراً لأنصاب مكة في شعر لعبد الله بن الزبعرى يتحدث فيه عن مسير قريش إلى يثرب في غزوة الخندق، في قوله:[3]

واذكرْ بَلاء معاشِر واشكُرْهُمُ   ساروا بأجمعِهمْ مِنَ الأنصابِ

أنصابِ مكّةَ عامدينَ ليثربٍ   في ذي غَيَاطِلَ جَحْفَلٍ جَبْجَابِ

إن الأشعار المذكورة آنفا تبرز اهتمام قريش بالجانب الديني في صراعها مع المسلمين ولا عجب في ذلك، فللدين أهمية عظيمة في المحافظة على مكانة قريش السياسية والاقتصادية بين العرب.

ونلمس في شعر قريش السياسي المناهض للإسلام دعوة القبائل إلى مساندة قريش في محاربة الإسلام، وظهور سيادة قريش السياسية على تلك القبائل. لقد بعثت قريش شعرائها قبل خروجها إلى أُحُد، إلى القبائل العربية القريبة منها لحثها على المسير مع قريش إلى المدينة، فخرج أبو عزَّة الجمحي إلى بني الحارث بن مناة بن كنانة، وحرّضهم على الخروج مع قريش بقوله:[4]

أنتمْ بنو الحارثِ، والناسُ الهامْ   أنتمْ بنو عبدِ مَنَاةَ الرُّزّامْ

أنتم حماةٌ، وأبوكُمْ حامْ   لاتَعِدُوني نَصْرَكُمْ بَعْدَ العامْ

لاتُسْلِموني لا يَحِلُّ إسلامْ

---

(1) المصدر السابق ٣/ ١٢٦.

(2) شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٥٧. والجرد: الخيل العتاق. والقداح: السهام. والمسومات: المرسلة. ويقال المعلمة.

(3) سيرة ابن هشام ٣/ ١٥٨. وذو غياطل جحفل جبجاب: يعني جيشا كثير الأصوات والجلبة.

(4) نسب قريش ص ٣٩٨. والرزام: الذين يثبتون في مكانهم.

وخرج مسافع بن عبد مناف الجمحي إلى بني مالك بن كنانة، يدعوهم إلى محاربة المسلمين، ويناشدهم بما بين القبيلتين من قربى وحلف، وفي ذلك يقول مسافع:[1]

يا مالِ مالَ الحَسَبِ المُقَدَّم ... أَنْشُدُ ذا القربى وذا التذمُّم
مَنْ كانَ ذا رَحِمٍ ومَنْ لم يَرْحَم ... الحِلْفَ وَسْطَ البَلَدِ المحرَّم
عندَ حَطيمِ الكعبةِ المعَظَّم

وبرزت في شعر القرشيين سيادة قبيلتهم على الجموع المنطلقة معها لمحاربة المسلمين، فجموع كنانة منقادة لأمر قريش في قول هبيرة بن أبي وهب:[2]

سقنا كِنَانةَ من أطرافِ ذي يَمَن ... عُرْضَ البلادِ على ما كانَ يُزْجيها
قالت كِنانةُ: أنّى تذهبون بنا ... قُلنا: النُخَيْل. فأَمُّوها ومَنْ فيها

ونصّب عبد الله بن الزبعرى أبا سفيان قائداً للأحزاب -وكذلك كان أبو سفيان- في قوله:[3]

جيشٌ عُيَيْنَةُ قاصِدٌ بلوائِهِ ... فيه وصخرٌ قائدُ الأحزابِ

وكانت مؤازرة بطون كنانة لقريش عظيمة، ولا عجب في ذلك ما دامت قريش هي بطن من كنانة، وما دامت تلك البطون - عدا بني بكر بن عبد مناة بن كنانة - يرتبط بعضها ببعضها الآخر بنظام الحمس والإيلاف، ولذلك نجد ضرار بن الخطاب يهدد المسلمين بعد غزوة الخندق بالعودة إلى أهل المدينة بجموع من كنانة كأسد الغاب، غير متحرج من دمج قريش في دائرة كنانة الأوسع. يقول ضرار:[4]

وسوفَ نَزُورُكُمْ عمَّا قريبٍ ... كما زُرْناكُمْ متوازرينا
بجمعٍ من كِنَانةَ غيرِ عُزْلٍ ... كأُسْدِ الغابِ قد حَمَتِ العرينا

ولم تكتف قريش بمحالفة بعض القبائل العربية على المسلمين بل تحالفت مع يهود يثرب. ففي غزوة السويق نزل أبو سفيان بن حرب على سلام بن مشكم

---

[1] سيرة ابن هشام ٣/ ١٥. ومالِ: ترخيم يا مالك.

[2] المصدر السابق ٣/ ٦٤. وعرض البلاد: سعتها. ويزجيها: يسوقها. والنخيل: موضع قرب المدينة

[3] المصدر السابق ٣/ ١٥٩. وعيينة: هو عيينة بن الفزاري، سيد غطفان.

[4] شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٥٨.

اليهوديّ طالباً حلفه، فرحب بـه سلام، وأكرمـه، ولأبـي سـفيان شـعر في ذلـك، ومنه:[1]

وإنـــيّ تخـــيرتُ المدينَـــة واحـــداً لِحِلْــفٍ فلـــم أنـــدَمْ ولم أتَلَــوَّم

سَـــقَانِي فَروْاني كُمَيْتاً مُدَامَـــةً على عَجَـلٍ منّي سَلامُ بنُ مَشْكَم

وتحالفت قريش في غزوة الخندق مع يهود بني قريظة، وحين رجـع الأحـزاب عن المدينة انفرد المسلمون ببني قريظة، وحرقوا نخيلهم، فآلم ذلك قريشا، فقال أبـو سفيان بن الحارث فيما رواه أبو عمرو الشيباني:[2]

لَعَـزَّ على سـراةِ بـني لُـؤيّ حريـقٌ بالبُوَيْـرَةِ مُسْـتَطيرُ

فأجابه حسان بن ثابت الأنصاري قائلاً:

أدامَ اللهُ ذلكـــمُ حريقـــاً وضَـرّمَ في نواحِيهـا السَّـعيرُ

هُـمُ أوتُـوا الكتـابَ فَضَيَّعُـوهُ فَهُـمْ عُمْـيٌ عـن التـوراةِ بُـورُ

وفي خضم مناهضة قريش للإسلام تحطمت عند المتحالفين القرشيين كثير من أواصر العصبية القبلية، وظهر عند أغلـب المشـركين- ولا سيما بـني أميـة منهـم- حقد على المسلمين عامة، وعلى بني هاشم خاصة. وتآمروا على قتل حمزة بن عبـد المطلب، وحين قُتل مثلت به هند بنت عتبة الأموية، ثم عبّرت عن وحشية الانتقـام بقولها:[3]

شَـفَيْتُ مـن حمـزةَ نفسِـي بـأُحدْ حتـى بَقَـرْتُ بَطْنَـهُ عـن الكَبِـدْ

أذهـبَ عنّـي ذاكَ مـا كنـت أجِـدْ مـن لَذْعَـةِ الحزن الشـديدِ المعتَمِـدْ

وشكرت هند وحشيا قاتل حمزة لأنّه شفى غليل صدرها، وقالت:[4]

شـفيتُ نفسـي وقضيـت نَـذْري شَـفَيتَ وَحْشِـيٌّ غليـلَ صـدْري

فشـكرُ وحشِـي عَلَيَّ عُمْـري حتـى تـرمَّ أَعْظمـي في قَبْـري

وعبر أبو سفيان بن حرب الأموي زوج هند عن انشراح صدره لمقتل حمـزة،

---

[1] سيرة ابن هشام ٣/ ٤.

[2] فتوح البلدان ١/ ٢٠. وفي نسبة البيت إلى أبي سفيان وشعر حسان التـالي لـه تنـازع بين الشاعرين. انظر شرح ديوان حسان ص ٢٥٠. والبويرة: مكان لبني قريظة.

[3] سيرة ابن هشام ٣/ ٣٧.

[4] المصدر السابق ٣/ ٣٦- ٣٧.

وأضاف إلى ذلك الاعتزاز بقتل نجباء بني النجار، وبإهلاك مصعب بن عمير العبدري، يقول أبو سفيان:[1]

وَسَلّي الذي قد كانَ في النفس أنّني ... قَتَلْتُ من النَّجار كلَّ نَجيبِ
ومن هاشم قَرْمًا كريمًا ومُصعباً ... وكانَ لدَى الهيجاء غيرَ هيوبِ
ولو أنّني لم أَشْفِ نِفْسِيَ مِنْهُمُ ... لكانتْ شجاً في القلبِ ذات نُدوبِ

وتجاهل عبد الله بن الزبعرى السهمي أواصر القربى التي تربطه بالرسول (ص) فافتخر بقهر الأحزاب لمحمد بقوله:[2]

شهراً وعشراً قاهرين محمداً ... وصِحَابُهُ في الحربِ خيرُ صِحَابِ

إن الأشعار السابقة تتقطع فيها أواصر العصبية القبلية تقطيعا يعبر عن واقع جديد أحدثه ظهور الإسلام، وهذا الجديد مبني على أساس عقدي، قسم العرب إلى معسكرين: معسكر مسلم وآخر مشرك.

٥- التعاطف مع الإسلام

تعاطف بعض مشركي قريش من بني هاشم ومن الظواهر بخاصة مع الإسلام عصبية للرسول الهاشمي القرشي ولغيره من كبار الصحابة القرشيين. ومن الهاشميين الذين تعاطفوا مع الإسلام نوفل بن عبد المطلب، وطالب بن أبي طالب، فحين خرج المشركون إلى بدر كان فيهم نوفل بن الحارث، ولم يستطع أن يخفي تعاطفه مع الإسلام، فقال:[3]

حرامٌ عليّ حربُ أحمدَ إنّني ... أرى أحمداً منّي قريباً أواصِرُهْ
وإنْ تكُ فِهْرٌ أَلَّبتْ وتجمّعتْ ... عليه فإنّ الله لاشكّ ناصِرُهْ

ويشبه ذلك موقف طالب الذي خرج إلى بدر، فكان جسمه مع المشركين، وقلبه مع ابن عمه محمد بن عبد الله. فقال معبّراً عن ذلك:[4]

لاهُمَّ إمّا يَغْزَونْ طالبْ ... في عُصْبَةٍ مُحَالِفٌ مُحَارِبْ

---

[1] المصدر السابق ٣/ ٢٥- ٢٦. والقرم: السيد.

[2] المصدر السابق ٣/ ١٥٩.

[3] الطبقات الكبرى ٤/ ٤٥.

[4] سيرة ابن هشام ٢/ ١٩١. والمقنب: جماعة من الفرسان والخيل دون المائة، تجتمع للغارة.

في مِقْنَبٍ من هذه المقانِبْ فَلْيَكُن المسلوبَ غيرَ السالبْ
وَلْيَكُنِ المغلوبَ غيرَ الغالبْ

ولم يطق طالب أن يحارب المسلمين، فترك قريشا في بدر، ورجع إلى مكة. وما تعاطف طالب مع المسلمين إلا تعصب لبني هاشم، ولكن هذه العصبية لم تعفه من الحزن لما أصاب قريشا ببدر، فرثى من قتل منها، وأظهر ألمه لتفرق أمرها، ودعا بني عبد شمس وبني نوفل إلى السعي في إخماد نار الصراع التي اشتدّ أوارها، وكأنه يرى أن الصراع بين المسلمين والمشركين هو صراع قرشي داخلي في جانب كبير منه، يقوده بنو هاشم من جهة، وبنو أمية من جهة أخرى، ونجد ذلك في قول طالب:[1]

أَلَا إنّ عَيْني أنفدَتْ دمعَها سَكْبا تُبكّي على كَعْبٍ وما إنْ ترى كعبَا
ألا إنّ كعباً في الحروبِ تخاذَلُوا وأَرْدَاهُمُ ذا الدّهر واجْتَرَحُوا ذَنْبَا
وعامِرُ تبكي للمُلِمّاتِ غُدْوَةً فيا ليتَ شعري هلْ أرى لهما قُرْبَا؟
فيا أخَوَيْنا: عبْدَ شمس ونَوْفَلاً فدىً لكما لا تَبْعَثُوا بيننا الحرْبا

وفي غمرة الرثاء والدعوة إلى توحيد القبيلة لم ينس طالب أن يمدح الرسول، ويبرز مؤازرة بني هاشم له، وأن يحاول إيهام قريش بأنّ الخزرج هم الذين وتروا قريشا، وذلك في قوله:

فما إنْ جنَيْنا في قريش عظيمةً سِوَى أن حَمَيْنا خيرَ مَنْ وَطِيء التُّرْبا
أخا ثِقَةٍ في النائباتِ مُرَزَّأً كريماً ثَنَاهُ، لا بخيلاً ولا ذَرِبَا
يُطيفُ به العافون يَغْشَونَ بابَهُ يَؤُمّونَ بحراً، لا نَزُوراً ولا صَرِبَا
فو اللهِ لاتَنْفَكُّ نفسِي حزينةً تَمَلْمَلُ حتى تَصْدُقوا الخزرَجَ الضَرْبا

والظاهر أن قريشا لم تحتمل موقف طالب بعد غزوة بدر، ومن المحتمل أن طالبا قُتل غيلة بسبب ذلك الموقف. وبذلك يمكن تفسير ما أشيع عن خطف الجن لطالب عقب غزوة بدر.

وفي غزوة أحد أقسم ضرار بن الخطاب - وهو من الظواهر - ألا يقتل قرشيا، لكنه لم يتورع عن قتل عدد من المسلمين الأنصار[2]. وقد سبق لضرار أن

---

[1] المصدر السابق ٢/ ٢٧٣. والذرب: الفاسد. والصرب: المنقطع.

[2] انظر طبقات فحول الشعراء ص ٢١١.

أظهر تعاطفه مع المسلمين القرشيين في قصيدة أنشدها بعد معركة بدر، وفيها يتعجب لفخر الأوس والخزرج بالانتصار على قريش في بدر لأن قريشا ستثأر منهم. وتملأ ليل يثرب ببكاء نساء الأوس والخزرج. ويؤكد تعاطف ضرار مع المسلمين القرشيين أنه ردّ انتصار المسلمين ببدر إلى وجود المهاجرين القريشيين في صفوف الأوس والخزرج، ويضاف إلى ذلك أن ضراراً لم يهدّد المسلمين القرشيين وهو على دراية بأن عدداً من صناديد قريش قتلوا بأيدي أبناء عمومتهم كعلي وحمزة. وزيادة في العصبية مدح ضرار المسلمين القرشيين ليقلل شأن الأوس والخزرج. يقول ضرار:[1]

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الأَوْسِ والحَيْنُ دائرٌ	عليهم غداً والدهرُ فيه بصائِرُ
وفَخْرِ بني النجار إنْ كانَ مَعْشَرٌ	أصيبُوا بِبَدْرٍ كلُّهم ثَمَّ صابرُ
فإنْ تكُ قَتْلَى غودِرَتْ من رجالنا	فإنّا رجالٌ بَعْدَهُمْ سَنُغَادِرُ
وتُرْدِي بنا الجُرْدُ العناجيجُ وسْطكُمْ	بني الأوس حتى يَشْفِيَ النفسَ ثائِرُ
وَوَسْطَ بني النجار سوف نكرُّها	لها بالقَنا والدَّارعينَ زوافِرُ
فَنَتْرُكُ صرعَى تعصِبُ الطيرُ حَوْلَهُمْ	وليس لهم إلا الأمانِيِّ ناصرُ
وتَبْكيهمُ مِنْ أهْلِ يَثْربَ نُسْوةٌ	لَهُنَّ بها لَيْلٌ عن النوم ساهرُ
وذلكَ أنّا لاتزالُ سيوفُنا	بهنَّ دمٌ مِمَّنْ يُحَارِبْنَ مائرُ
فإنْ تظْفرُوا في يوم بَدْرٍ فإنّما	بأحْمَدَ أمْسَى جَدُّكُمْ وهْوَ ظافِرُ
وبالنفر الأخيار هُمْ أولياؤُهُ	يُحَامونَ في اللأواء والموتُ حاضرُ
يعُدُّ أبو بكر وحمزةُ فيهمُ	ويُدْعَى عليٌّ وَسْطَ مَنْ أنتَ ذاكِرُ
ويدعَى أبو حفْص وعثمانُ منهمُ	وسعدٌ إذا ما كان في الحرب حاضرُ
أولئكَ لا مَن نَتَّجَتْ في ديارها	بنو الأوس والنجار حينَ تُفاخِرُ
ولكنْ أبوهمْ من لُؤَيّ بن غالبٍ	إذا عُدَّتِ الأنسابُ: كعبٌ وعامِرُ
هُمُ الطاعنونَ الخيلَ في كلّ مَعْرَكٍ	غداةَ الهياج الأطيبونَ الأكاثِرُ

ونجد ما يشبه هذه العصبية عند بعض شعراء البطاح كهبيرة بن أبي وهب

---

[1] شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٤٥ - ٤٦. وتردي: تسرع. والجرد: الخيل العتاق، القصيرات الشعر. والعناجيج: جمع عنجوج، وهو الطويل السريع. والزوافر: حاملات الثقل. وتعصب: تجتمع عصائب. والمائر: السائل. واللأواء: الشدة. ونتجت: ولدت. والمعرك: موضع تعارك الفرسان.

المخزومي، فقد افتخر هبيرة بقتل بعض بني النجار في غزوة أحد، وأغفل ذكر من قُتل من المسلمين القرشيين، وذلك في قول هبيرة من قصيدة له:[1]

ثُمَّتَ رُحْنا كأنّا عَارضٌ بَرِدٌ ... وقامَ هامُ بني النجّار يَبْكيها

وبمثل ذلك افتخر عمرو بن العاص بقتل الأنصار عقب غزوة أحد. يقول عمرو:[2]

تَمَنّتْ بنو النجار جَهْلاً لقاءَنا ... لَدَى جَنْبِ سَلْعٍ والأَمَانيُّ تَصْدُقُ

كأنَّ رؤوسَ الخزرجيّين غدْوَةً ... وأَيْمانُهُمْ بالمشرفيّةِ بَرْوَقُ

إن تعصب هبيرة وعمرو لقريش المشركة لا يخلو من التعاطف مع المسلمين القرشيين، فهما لم يتعرضا لهم بسوء، ولكنهما لم يبلغا شأو ضرار بن الخطاب الذي مدح المسلمين القرشيين ونسب إليهم الانتصار ببدر. ومن الملاحظ أن عصبية ضرار لقريش دفعته إلى اتخاذ موقف متميز من الصراع بين المسلمين والمشركين، ويمكن أن نؤكد هذا الموقف بملاحظة تباين نظرتي عبد الله بن الزبعرى السهمي ونظرة ضرار إلى محاصرة الأحزاب للمسلمين في غزوة الخندق. يقول عبد الله بن الزبعرى:[3]

شهراً وعشراً قاهرين مُحَمّدا ... وصحابُه في الحرب خيرُ صِحَابِ

ويقول ضرار:[4]

فَأَحْجَرْناهُمْ شهراً كَريتاً ... وكنّا فوقَهُمْ كالقاهرينا

فابن الزبعرى يفخر بأنه قَهَرَ محمداً، وضرار يعرض عن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم بسوء. إن عصبية ضرار المتميزة ترجع إلى سكنه في ظاهر مكة، فقد عاش حياة متبدية، تختلف عن طبيعة الحياة المدنية في مكة، حيث يسهم التحضر في تصديع القبلية وتقطيع أواصرها.

---

(1) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٤. العارض البرد: السحاب المعترض في الأفق، وفيه برد. والهام جمع هامة. وهي طير يزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل.

(2) المصدر السابق ٣/ ٧٤. وسلع: جبل خارج المدينة. وبَرْوَق: نبات له أصول تشبه البصل. والمشرفية: سيوف منسوبة إلى المشارف. وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف.

(3) المصدر السابق ٣/ ١٥٩

(4) شعر ضرار الخطاب الفهري ص ٥٧. والشهر الكريت: الكامل.

٦- مناصرة أبي طالب للإسلام

في شعر أبي طالب عم الرسول (ص) سجل للصراع بين الرسول وبني هاشم وبني المطلب من جهة وبقية المشركين القرشيين من جهة أخرى. لقد حاول كفار قريش أن يحملوا أبا طالب على خذلان الرسول، فأبى ذلك، بل تندّدَ بهم ولم ير فيهم إلا حاسداً أو مبغضاً؛ وقد دلّ أبو طالب على صحة توجهه بأن الرسول من صميم بني هاشم، فأظهر بذلك عصبية لبني هاشم تضاءلت أمامها مقدسات قريش ومصالحها، ومن الشعر الدال على ذلك قول أبي طالب:[1]

يقولونَ شايعْ من أرادَ محمداً ... بسُوءٍ وقُمْ في أَمْرِه بخلافِ

أضاميمُ إمّا حاسدٌ ذو جَنَابَةٍ ... وإمّا قريبٌ مِنْكَ غيرُ مُصَافِ

فلا يَرْكَبَنَّ الدهر منك ظُلامةً ... وأنتَ امرؤٌ من خير عَبْدِ مَنَافِ

فإنَّ لهُ قُرْبَى إليكَ وسيلة ... وليس بذي حِلْفٍ ولا بمُضَافِ

ولكنّه من هاشمٍ في صَميمِها ... إلى أبحرٌ فوق البُحور طوافِ

فإنْ غضبتْ فيه قريشٌ فقلْ لهمْ ... بني عمّنا. ما قومُكُمْ بضِعَافِ

ولا قومكمْ بالقوم تغشَون ظُلمَهُمْ ... وما نحنُ فيما ساءَكمْ بخِفافِ

وتألم أبو طالب من معاداة قريش للرسول، وكان ألمه من بني عبد شمس وبني نوفل أعظم، فهما أقرب بطون قريش إلى بني هاشم، وفي ذلك يقول أبو طالب:[2]

أرى أخوينا مِنْ أبينا وأُمّنا ... إذا سُئِلا قالا: إلى غيرنا الأمرُ

بلى. لهما أمرٌ ولكنْ تَجَرْجَما ... كما جُرْجِمَتْ من رأس ذي عَلَق صَخْرُ

أَخُصُّ خُصُوصاً عبدَ شمسٍ ونوفلاً ... هُما نبذانا مِثْلَ ما يُنْبَذُ الجَمْرُ

وتيمٌ ومخزومٌ وزُهْرَةُ منهمُ ... وكانوا لنا مَوْلَى إذا بُغِي النصرُ

وأكد أبو طالب استياءه من قريش التي تريد أن تنال من الرسول الهاشمي في قصيدة أخرى، ومنها قوله:[3]

---

[1] الحماسة الشجرية ١/ ٦٢- ٦٣. والأضاميم: جماعات الخيل. ومن المرجح أن يكون المخاطب في البيت الثالث أبا لهب الذي عرف بعدائه للإسلام، ومخالفته بني هاشم.

[2] سيرة ابن هشام ١/ ٢٤١-٢٤٢. وتجرجم: انحدر. وذو علق: جبل في ديار بني أسد.

[3] المصدر السابق ٢/ ١٥.

جَزَى اللهُ عنّا عبدَ شمسٍ ونوفلاً ... وتيماً ومخزوماً عُقوقاً ومأثَما
بتفريقهمْ من بعدِ ودّ وأُلْفةٍ ... جَماعتَنا كيما ينالوا المَحارِمَا

وتبلغ آلام أبي طالب الذروة في حديثه عن بعض الهاشميين الذين حاربوا محمداً كأبي لهب عم الرسول. وقد حاول أبو طالب كسب تأييد أبي لهب، فذكّره بأواصر القربى، وعمل على إثارة حميته لنصرة ابن أخيه، وذلك في قول أبي طالب:[1]

وإن امرأً أبو عُتَيْبَةَ عَمُّهُ ... لفي رَوْضَةٍ ما إن يُسامُ المَظالِما
أقول له ـ وأين منه نصيحتي: ... أبا مُعْتبٍ ثَبِّتْ سَوادَكَ قائما
وحاربْ فإنّ الحربَ نُصْفٌ وما تَرَى ... أخا الحربِ يُعْطَى الخَسْفِ حتى يُسَالِما

وشجع أبو طالب ابن أخيه على إظهار دعوته، بل منحه التأييد المطلق، وكاد أن يعلن إسلامه لولا الخوف من ملامة قومه له، وذلك في قوله مخاطباً ابن أخيه:[2]

واللهِ لن يَصِلُوا إليكَ بجمعِهِمْ ... حتى أُوَسَّدَ في الترابِ دَفينا
فاصدعْ بأمركَ ما عليكَ غَضَاضَةٌ ... وابشِرْ بذاكَ وقَرَّ مِنْهُ عُيُونا
ودَعَوْتَني وزَعَمْتَ أنّكَ ناصِحٌ ... ولقد صَدَقْتَ وكُنْتَ ثَمَّ أمِينا
وعرضتَ ديناً لا مَحَالَةَ أنّهُ ... من خيرِ أديانِ البريّةِ دِيْنا
لولا الملامَةُ أو حَذارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذاكَ مُبينا

وأشهر قصائد أبي طالب في مناصرة الرسول هي لاميته المطوّلة التي أخبر فيها قريشا أنه لن يسلم محمداً لأحدٍ أو يهلك دونه. وقد أنشدها في الشِعب حين اعتزل مع بني هاشم وبني المطلب وقاطعتهم قريش. ومنها قوله مخاطباً قريشاً:[3]

كَذَبْتُمْ وبيتِ اللهِ نُبْزَى مُحَمّداً ... ولما نُطاعِنْ دونَهُ ونُناضِلِ
ونُسْلِمُهُ حتّى نُصَرّعَ حَوْلَهُ ... ونَذْهَلَ عن أبنائِنا والحلائلِ
وينهضَ قومٌ في الحديدِ إليكمُ ... نهوضَ الروايا تحتَ ذاتِ الصلاصِلِ

---

(1) المصدر السابق ٢/ ٢٥.

(2) الخزانة ٣/ ٢٩٦.

(3) المصدر السابق ٢/ ٦٣- ٦٥. ونبزى: نغلب ونقهر عليه. ونسلمه: أي لانسلمه. والحلائل: الزوجات. والروايا: جمع رواية. وهو الحيوان الذي يستقى عليه. وذات الصلاصل: المزادة. وتسميها العامة: الراوية. والأماثل: الأشراف.

وحتى نَرَى ذا الضِّغْنِ يركبُ رَدْعَهُ ... من الطعن فِعْلَ الأنْكَبِ المتحامِلِ
وإنا لعمرُ اللهِ إنْ جَدَّ ما أرَى ... لَتَلْتَبِسَنْ أسيافُنا بالأماثِلِ

إن شعر أبي طالب المناصر للإسلام يشير إلى انقسام مجتمع قريش إلى فريقين: الأول يضم المسلمين والمشركين المناصرين لهم، والثاني يضم المشركين. ومن الواضح وقوف العصبية القبلية، والانتماء الديني وراء ذلك الانقسام، وهو انقسام تظهر فيه بوادر تصدع القيم القبلية في مجتمع قريش.

* * * * *

إن شعر قريش السياسي في الجاهلية أوقفنا على تصارع بعض بطونها على المياه والسكن وغير ذلك. وظهر فيه جنوح القبيلة إلى السلم، واضطرارها أحياناً إلى خوض الحروب دفاعاً عن موطنها ومصالحها، واتجاهها نحو عقد الأحلاف لتقوي نفوذها وتدعم اقتصادها التجاري. وقد لمسنا في ذلك الشعر إحساس قريش بالتمايز القومي، وارتباط ذلك بعقيدتها المخالفة لنصرانية الأحباش، كما لمسنا مداراتها للدول الواقعة على أطراف الجزيرة العربية حفاظاً على مصالحها التجارية بشكل خاص. وقد اتخذ أغلب المشركين الشعر وسيلة لمحاربة الإسلام، فدافعوا به عن الشرك، وألبوا القبائل على المسلمين، وأشاروا إلى تحالفهم مع اليهود ضد الإسلام. وظهرت في أشعارهم العصبية القبلية التي دفعت بعضهم إلى التعاطف مع المسلمين القرشيين، وإلى مناصرتهم أحياناً.

-٢-

شعر الحماسة

١- التهيؤ للمعركة ووصفها

يراد بالحماسة الشّدة في الحرب والإقدام على القتال. ولذلك فإن خوض غمار المعارك تسبقه تهيئة النفوس بالحضّ على القتال، وإذكاء نار الحقد على الأعداء. ومن ذلك قول أبي سفيان بن حرب الأموي حين خرج إلى يثرب في

نـقـص في الأصل

نقص في الأصل

وقد حَمَلْتُ سلاحي فوق مُشْتَرِفٍ ساطٍ سَبُوحٍ إذا تجري يُبَاريها
كأنَّهُ إذْ جَرَى عَيْرٌ بفَدْفَدَةٍ مُكَدَّمٌ لاحِقٌ بالعونِ يَحْمِيها
من آل أعوجَ يرتاحُ النديِّ لَهُ كجِذعِ شَعراءَ مُسْتَقِلٍ مَراقيها
أعْدَدْتُهُ ورِقاقَ الحدِّ مُنْتَخَلاً ومارِناً لخُطُوبٍ قد أُلاقيها
هذا وبيضاءُ مثلُ النَّهْيِ مُحْكَمَةٌ نيطتْ عَلَيَّ فما تبدو مَسَاويها
سُقْنا كنانةَ من أطرافِ ذي يَمَنٍ عُرْضَ البلادِ على ما كانَ يُزْجيها
قالت كنانةُ: أنّى تذهبونَ بنا؟ قلنا: النَّخيل. فأموها ومَنْ فيها

واهتم شعراء قريش الفرسان بوصف المعارك التي خاضوا غمارها. ومنهم ضرار بن الخطاب القائل في غزوة الخندق، يصف عنف القتال وسير أحداثه:[1]

كأنهمُ إذا صالوا وَصُلْنا ببابِ الخَنْدَقَين مصافِحُونا
فأحْجرْناهُمُ شهراً كريتاً وكنّا فوقَهمْ كالقاهرينا
نُراوحُهم ونَغْدُو كلَّ يوم عليهمْ في السلاح مُدَجَّجينا
بأيدينا صوارمُ مرهفاتٌ نَقُدُّبها المفارقَ والشؤونا
فلولا خندقٌ كانوا لديهِ لَدَمَّرْنا عليهمْ أجمعينا
ولكن حالَ دونَهم وكانوا به من خَوْفِنا متعوذينا

لقد صور شعراء قريش الاستعداد للقتال، وأبدع بعضهم في وصف ما يختلج في نفس المحارب من مشاعر هي مزيج من الإقدام والإحجام، كما صَوّروا بعض مشاهد الحرب، ومظاهر الاستعداد لها.

٢- نتيجة المعركة

تتلون معاني شعر الحماسة باختلاف نتيجة المعركة، فحماسة الشاعر المنهزم تختلف عن حماسة المنتصر. وفيما يلي توضيح لذلك:

أ- حماسة المنهزم: يحاول المهزوم من المعركة تبرير هزيمته، فيسعى غالباً إلى نفي الجبن والفشل عن نفسه وعن قومه، فحين هرب الحارث بن هشام المخزومي يوم بدر قذفه حسان بن ثابت الأنصاري بقصيدة عيّره فيها حسان بالفرار عن أخيه أبي جهل المخزومي[2]. وقد اعتذر الحارث من هربه وأدعى أنه لم يترك

---

[1] شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٥٧- ٥٨. والشؤون: مجمع العظام في أعلى الرأس.

[2] انظر القصيدة في شرح ديوان حسان ص ٤١٧- ٤٢١.

القتال حتى تخضب فرسه بالدم، وأيقن أنه إن قاتل وحده يُقتل، ويعجز عن إلحاق الضرر بأعدائه، ولذا تراجع تاركا الأحبة صرعى في المعترك طمعاً في العودة إلى القتال، ومحاربة الأعداء. يقول الحارث في ذلك:[1]

القومُ أَعْلَمُ ما تركتُ قِتالَهُمْ — حتى رَمَوا فَرَسي بأَشْقَرَ مُزْبِدِ
وعلمتُ أنّي إنْ أقاتِلْ واحداً — أُقْتَلْ ولا يَنْكَى عدوّيَ مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عنهمْ والأحِبَّةُ فيهُمُ — طمعاً لهمْ بعقابِ يومٍ مُفْسِدِ

وعُيِّر هبيرة بن أبي وهب بفراره يوم الخندق عن عمرو بن عبدودّ، وهو مضرج بدمائه، فادعى أنه لم يهرب جبنا ولا خوفا من القتل بل تراجع حين أيقن عدم غناء سيفه ونبله، وأنه لا سبيل إلى التقدم. يقول هبيرة:[2]

لَعمريَ ما وَلَّيتُ ظهري محمداً — وأصحابَهُ جُبْناً ولا خِيفةَ القتلِ
ولكنَّني قَلَّبْتُ أَمْري فلمْ أَجِدْ — لِسَيْفي غَناءً إنْ ضربتُ ولا نَبْلي
وَقَفْتُ فلمّا لم أجِدْ لي مُقَدَّماً — صَدَدْتُ كضرغامٍ هِزَبْرٍ أبي شِبْلِ
ثَنى عِطْفَهُ عن قِرْنِهِ حينَ لم يجِدْ — مَكَرّاً وقِدْماً كان ذلك من فِعلي

والشاعر المنهزم يهدد بالعودة إلى الحرب والثأر، فهذا ضرار بن الخطاب يتوعد الأوس والخزرج بغارة تكثر فيهم القتل، وتشفي غليل القرشيين الذين سيغادرون يثرب تاركين قتلى الأعداء طعاما لطير السماء، ومخلفين لنسائها الآلام والأحزان. يقول ضرار:[3]

فإن تكُ قتلى غُودِرَت من رجالنا — فإنّا رجالٌ بعدهمْ سَنُغَادِرُ
وتُردي بنا الجُرْدُ العَنا جيحُ وَسْطَكُمْ — بني الأوْس حتى يَشْفي النفسَ ثائِرُ
وَوَسْطَ بني النجار سوفَ نَكُرُّها — لها بالقَنا والدّارعينَ زَوافِرُ
فنترك صرعى تَعْصِبُ الطيرُ حَوْلَهُمْ — وليسَ لها إلا الأمانيَّ ناصِرُ

---

(1) نسب قريش ص ٣٠٢. والأشقر من الدم: الذي صار علقاً، ولم يعله الغبار. والمزبد: الذي علاه الزبد. وينكى: يقتل ويجرح في الأعداء.

(2) سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٦. وانظر عيون الأثر ١/ ٢٩٠، والاستيعاب ص ١٩٦٣ والحماسة البصرية ١/ ٢٧. ونسب الشعر في حماسة البحتري إلى هبيرة ص ٤٩ - ٥٠ وإلى زهير ابن أبي وهب ص ١٤٩ - ١٥٠. والتصحيف في الرواية الثانية لا يخفى. والعطف: الجانب.

(3) شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٤٥ - ٤٦.

وَتَبكِيهـمُ من أهـل يثربَ نِسْـوةٌ   لهنّ بهـا ليـلٌ عـن النـوم سـاهرُ

وكثيراً ما يقرن حماسته برثاء القتلى، فيظهر الجزع لفقدهم، ويعدد مآثرهم. وستمر بنا نماذج لذلك في شعر الرثاء.

ب- **حماسة المنتصر:** يبعث الانتصار في المعارك مشاعرالاعتزاز في نفوس المنتصرين. والشاعر المنتصر يصف فرار الأعداء، ويذكر من قتل منهم. وقد يذكر بطولة أعدائه، فينصفهم من جهة، ويبالغ في الفخر من جهة ثانية. ونمثل لذلك بقول ضرار بن الخطاب يصف فرار قبائل قيس يوم عكاظ واحدة إثر أخرى:[1]

فَلَمّـا التقينـا أذَقْنـاهُمُ   طِعانـاً بسُـمْرِ القَنـا العـائِرِ

فَفَـرَّتْ سُـلَيْمٌ ولم يَصبِرُوا   وطـارتْ شَـعَاعاً بنـو عـامِرِ

وَفَـرَّتْ ثَقيـفُ إلى لاتِهـا   بمُنْقَلَـبِ الخـائبِ الخاسِـر

علـى أنّ دُهمانَهـا حـافظتْ   أخـيراً لـدى دارةِ الدائـر

وصور عبد الله بن الزبعرى تراجع المسلمين وتفرقهم في جبل أحد بقوله:[2]

ثـمّ خَفُّـوا عنـد ذاكـمْ رُقّصـاً   رَقَـصَ الحَفّـان يَعْلُـو في الجَبَـلْ

إن حديث المنتصر عن قتلى أعدائه يفيض بالنشوة؛ فهذه عاتكة بنت عبد المطلب تذكر مقتل مالك يوم عكاظ، وقد تملكتها نشوة الانتصار، وهي ترى مالكا مطروحاً على الأرض تنهشه الضباع، بقولها:[3]

فيـه قَتَلْنـا مالكـاً   قَسْـراً وأسـلَمَهُ رَعاعُـهْ

ومُجَـدّلاً غادَرْنَـهُ   بالقـاع تَنْهشُـهُ ضِبَاعُـهْ

ومن الصور التي تَبرز زهو المنتصر قول عمرو بن العاص من شعر له في يوم أحد:[4]

كأنَّ رؤوسَ الخَزْرَجيّيـنَ غـدوةً   وأيْمَانهـم بالمَشْـرَفيّةِ بَـرْوَقُ

وهذا عبد الله بن الزبعرى يدعو حسان بن ثابت إلى النظر في معترك يوم

---

(1) المصدر السابق ص ٤٧. والعائر: الذي يصيب العين بالعور. ودهمان: آخر القبائل القيسية التي انهزمت يوم عكاظ.

(2) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٩. والحفان: صغار النعام.

(3) شرح ديوان الحماسة ص ٧٤١- ٧٤٣. والرعاع: سفلة الناس.

(4) سيرة ابن هشام ٣/ ٧٤. والبروق: نبات له أصول تشبه البصل.

أحد ليرى في أصل الجبل الجماجم والأشلاء والدروع المنزوعة عن فرسانها. يقول عبد الله:[1]

أَبْلِغَنْ حسانَ عَنّي آيةً | فقريضُ الشعرِ يَشْفي ذا الغُلَلْ
كم ترى بالجَرّ من جُمْجُمَةٍ | وأَكُفٌ قد أُتِرَّتْ ورجلْ
وسرابيلَ حِسَانٍ سُرِّيَتْ | عن كُماةٍ أُهْلِكُوا في المُنْتَزَلْ

وشبه هبيرة بن أبي وهب رؤوس المقتولين يوم أحد ببيض النعام، في قوله:[2]

كأن هامَهُمُ يوم الوغى فِلَقٌ | من قَيْض رُبْدٍ نَفَتْهُ عن أداحيها

وأفلاق هامة فارس قتيل تشبه قَروة الراعي في قول ضرار بن الخطاب[3] :

وفارس قد أصابَ السيفُ مَفْرِقَهُ | أفلاقُ هامَتِهِ كقَرْوَةِ الراعي

وحين يكون الانتصار ثأراً لهزيمة سابقة يزفّ الشعراء المنتصرون بشرى الثأر إلى من قتل منهم، فبعد أحد تمنى عبدالله بن الزبعرى لو كان قتلى قريش في بدر حاضرين يوم أحد ليشاهدوا خوف الخزرج من ضرب السيوف، ولينظروا كثرة القتلى في بني عبد الأشهل، وهي كثرة أبعدت عن قريش عار بدر. وفي ذلك يقول عبد الله:[4]

ليتَ أشياخي ببدر شَهِدُوا | ضَجَرَ الخَزْرَجِ من وقْعِ الأَسَلْ
حين حكّتْ بقُبَاءَ بَرْكَها | واستَحَرَّ القتلُ في عبدِ الأَشَلْ
فقتلنا الضّعفَ من أشرافِهِمْ | وَعَدَلْنا مَيْلَ بدر فاعتدلْ

ومن التقاليد العربية الأصيلة بكاء القتيل بعد الثأر له[5]. وهذا ما نجده جليا في قول أبي سفيان بن حرب يدعو زوجته إلى البكاء على أبيها وإخوانها الذين قتلوا في بدر، وذلك بعد أن ثأر لهم في أحد:[6]

---

[1] المصدر السابق ٣/ ٦٨. والجر: أصل الجبل.; أترت: قطعت. وسريت: جردت.

[2] المصدر السابق ٣/ ٦٤. والقيض: قشر البيض الأعلى. والربد: النعام. والأداحي: المواضع التي تبيض فيها النعام.

[3] شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٤٨. وقروة الراعي: إناء خشبي يحمله الراعي معه.

[4] سيرة ابن هشام ٣/ ٦٩. وعبد الأشل: أراد عبد الأشهل.

[5] يقول النويري (نهاية الأرب ٣/ ١١٦): كان النساء لايبكين المقتول إلا أن يدرك بثأره، وإذا (أدرك بثأره بكينه) وهذه العادة ماتزال متبعة في بعض البقاع العربية.

[6] سيرة ابن هشام ٣/ ٢٥- ٢٦.

فَبَكّـي ولا تَرْعَـيْ مقالـةَ عـاذل	ولا تَسْـأمي مـن عَـبْرَةٍ ونحيـبِ
أبـاكِ وإخوانـاً لـه قـدْ تَتَـابَعُوا	وحُـقَّ لَهُـمْ مـن عَـبْرَةٍ بنصيـبِ
وسَلّي الذّي قد كان في النفسِ أنّني	قَتَلْـتُ مـن النجـار كـلَّ نَجيـبِ
ومـن هاشـم قَرْماً كريمـاً ومُصْعَبـاً	وكـان لَـدَى الهيجـاء غـيرَ هَيُـوبِ
ولـو أنّـني لم أشـفِ نفسـيَ منهـمُ	لكانتْ شجاً في القلـبِ ذاتَ نُـدوبِ

لقد اتضحت لنا بعض الفوارق المعنوية بين حماسة الشاعر المنهزم، وحماسة المنتصر، فالأول يحاول تبرير هزيمته، وفرار قومه، ويهدد أعدائه بالعودة إلى الحرب، وطلب الثأر، والثاني يفخر بالنصر، وينتشي به، ويصور القتلى من أعدائه، ويزهو بالثأر، وشفاء غليل الصدر.

٣- الحماسة في المعركة

يمتاز شعر الحماسة في أثناء المعركة بقوة العاطفة واندفاعها، وشدة المعاني وقسوتها، فالشاعر يضمن ألفاظه ومعانيه في هذا المقام كلّ أحاسيسه، ويسلكها بألفاظ صلبة، وعبارات موجزة، حتى ينفذ صوته من خلال الغبار والأسنة والسيوف والخيول، من خلال جلبة الحرب، إلى القلوب والآذان، فيقوي عزيمة قومه، ويساعدهم على الصمود، ويضعف همة الأعداء، إذ يحمل الرعب إلى قلب الجبان، والتساؤل إلى فؤاد الشجاع.

في يوم أحد تتابع العبدريّون على لواء قريش، وكلما سقط بطل قام أخوه أو ابن عمه ليحمل اللواء. فهذا عثمان بن أبي طلحة يحمل اللواء، وهو يعرف تبعة ذلك، ثم يهتف وسط العجاج متحمساً:(١)

إن علـى أهـلِ اللـواء حَقّـا	أن يَخْضِبُـوا الصَّعْدَةَ أو تَنْدَقّـا

وأثارت بطولة بني عبد الدار حماسة هند بنت عتبة، فقالت تحثهم على المثابرة والمصابرة، وضرب الأعداء بقولها:(٢)

وَيْهـاً بنـي عبـد الـدارْ	وَيْهـاً حمـاةَ الأدْبـارْ

ضربـاً بكـلّ بَتّـارْ

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٤. والصعدة: القناة المستوية نبتت كذلك، فلا تحتاج إلى تثقيف.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٩- ٢٠.

وقد يُعجب المقاتل الشجاع بفروسيته في أثناء احتدام القتال فيطيب له أن يتحدث عن شجاعته، ويشرك الآخرين بهذا الإعجاب. ومن هذا القبيل قول عكرمة بن أبي جهل في يوم أحد:[1]

كلّهمْ يَزْجُرُه أرْحِبْ هَلا ولنْ يَرَوْهُ اليومَ إلاّ مُقبلا
يَحْملُ رُمْحاً وَرَئيساً جَحْفَلا

ويُظهر شعر الحماسة في أثناء المعركة بعض آداب القتال. ومن ذلك أن يقاتل الفارس عن صديقه وألاّ يخذله أبدا. ومما يدل على ذلك أن الرسول(ص) أوصى المسلمين يوم بدر ألا يقتلوا أبا البختري بن هاشم الأسدي القرشي لأنه كان من الذين قاموا في نقض صحيفة قريش في مقاطعة بني هاشم بمكة. وقد لقيَ أحد المسلمين أبا البختري، فقال له: إن رسول الله أمرنا ألاّ نقتلك. فقال: أنا وزميلي. فلم يُعْطَ طلبه، فقال أبو البختري لمهاجميه:[2]

لا يُسلمُ ابنُ حُرَّةٍ زَمِيْلَهْ حتى يموتَ أو يرى سبيلَهْ

فقُتل أبو البختري وهو متمسك بالدفاع عن زميله.

وتغمر الفرحة والنشوة القلوب حين يؤخذ بالثأر، فتسرع الحناجر إلى الإخبار بذلك، فهذه هند بنت عتبة تعتلي صخرة مشرفة على المسلمين حين حلّت بهم الهزيمة يوم أحد، وهي تهتف:[3]

نحنُ جَزَيْناكُمْ بيومِ بَدْرْ والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعُرْ
ما كان لي عن عُتبةٍ من صَبْر وشُكْرُ وَحْشِيّ عليَّ دَهْري
حتى تَرِمَّ أعظُمِي في قَبْرِي

إن الشاعر في المعركة يحمس قومه، ويزهو ببطولته، ويحاول إرهاب أعدائه، ويظهر شدّة الحرب، وبعض تقاليدها.

لقد أظهر شعر الحماسة الجاهلي بطولة قريش في حروبها، ونفى عنها صفة الركون إلى الأمن والسلام في ظل امتيازاتها التجارية والدينية، فحين تزبن الحرب قريشاً تشمر عن ساقيها، وتخوض غمار المعارك. ولقد نمت شاعرية قريش في ظل

---

(1) المصدر السابق ٣/٩١. وأرحب هلا: زجر للخيل.

(2) نسب قريش ص ٢١٣. والزميل: الرديف.

(3) العقد الفريد ٢/ ١٢٠- ١٢١. وترم أعظمي: تَبْلَى.

الحروب، ولا سيما حروبها مع المسلمين، واستطاع شعراء قريش أن يظهروا في حماستهم الاستعداد للحرب، وأن يصفوها، وأن يعبروا عن المشاعر التي تختلج في الصدور في أثناء المعركة، وعقب الانتصار أو الهزيمة.

-٣-

شعر الرثاء

١ - رثاء الافراد

يظهر في شعر الرثاء الجزع على الراحلين القتلى أو الموتى، وفيه تُعدد مآثرهم وتكثر الحكم والمواعظ، ويُهَدّد بأخذ الثأر للقتلى.

إن أجود رثاء شعراء قريش للأفراد القتلى أنشد عقب غزوة بدر الكبرى التي قتل فيها كثيرمن سادة قريش وأبطالها. وكانت هند بنت عتبة الأموية أكثر المشركين ألما لمقتل أبيها وأخيها وعمّها. ولها في رثائهم أشعار فيها نواح وبكاء وتعداد لمآثرهم، ومن ذلك قولها:[١]

مَـنْ حـسّ لي الأخويْـن كالـ ... غُصْنَيْـن أو مَـنْ رَاهُمَـا

قَرْمـان لا يَتَظالـمـا ... ن ولا يُـرامُ حِمَاهُمَـا

وَيْلـي علـى أَبَـوَيَّ والْـ ... قَـبْر الـذي وَارَاهُمـا

لا مِثـلَ كَهْلِـي في الكُهُـو ... ل ولا فتـىً كَفَتاهُمَـا

أَسَـدان لا يَتذلّـلا ... ن ولا يُـرامُ حِمَاهُمَـا

رُمْحَيْـن خطّيّيْـن في ... كَبِـدِ السـماء تَراهُمَـا

مـا خَلَفـا إذْ وَدَّعـا ... في سُـؤْدَدٍ شَـرْوَاهُمَا

سـادا بغيـر تَكَلّـفٍ ... عَفْـواً يفيـضُ نَداهُمَـا

ولهند مقطعتان في رثاء أبيها وحده، أما الأولى فتبرز الحرقة على خير خندف الذي لقي مصيراً مؤلما بأسياف أقاربه بني هاشم وبني الطلب، وذلك في قولها:[٢]

---

[١] الأغاني ٤/ ٢١٠.

[٢] سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٢. والسرب: الذاهب. وخندف: امرأة إلياس بن مضر. وهو جدّ قديم لقريش.

أَعَيْنَـــيَّ جُـــودَا بِدَمْـــعٍ سَـــرِبْ على خيـر خِنْـدِفَ لم يَنْقَلِـب
تداعَـــى لـــه رهطـــهُ غُـــدْوَةً بنـــو هاشـــم وبنـــو المطَّلِـــبْ
يُذيقونَـــهُ حَـــدَّ أسْـــيافِهِمْ يَعُلُّونَـــهُ بعـد مـا قـد عَطِـبْ
يَجرّونـــه وعفـــيرُ الـــترابِ على وَجْهِـهِ عاريـاً قـد سُـلِبْ

وأما المقطعة الثانية فتبدو فيها هند باكية حزينة على شيخها البطل، وهي تهدد المسلمين، وتتوعدهم بقولها:[1]

يـــا عـــينُ بكـــي عُتَبَـــةْ شـــيخاً شـــديدَ الرَّقَبَـــةْ
يُطعِـــمُ يـــومَ المَسْـــغَبَةْ يدفـــعُ يـــوم المَغْلَبَـــةْ
إنّـــي عليـــه حَرِبَـــةْ مَلْهُوفَـــةٌ مُسْـــتَلَبَةْ
لنهبطَـــنَّ يَثْرِبَـــةْ بغـــارةٍ مُنْثَعِبَـــةْ
فيهـــا الخيـــولُ مُقْرَبَـــةْ كـــلُّ جـــوادٍ سَـــلْهَبَةْ

ورثت قتيلة بنت الحارث العبدرية أخاها النضر الذي أمر الرسول(ض) بقتله صبراً عقب غزوة بدر، فأجادت، وجَدَّدت، لقد استهلت رثاءها بتوجيه تحية إلى أخيها تفيض بالحزن والألم. ثم مدحت الرسول وعاتبته عتابا رقيقاً مؤثراً، وأعلنت أنها كانت تأمل أن يمنّ الرسول على أخيها، فيطلق سراحه، أو يقبل الفدية، ولم تتوقع أن يُقتل أخوها بسيوف أقاربه بني هاشم. تقول قتيلة:[2]

يـا راكبـاً إنَّ الأُثَيْـلَ مَظِنَّـةٌ مـن صُبْـحِ خامسـةٍ وأنـت مُوَفَّـقُ
أبلـغْ بـه مَيْتـاً بـأنَّ تحيَّـةً مـا إنْ تـزالُ بهـا النجـائِبُ تخفِـقُ
منّـي إليـكَ وعـبرةً مسـفوحةً جـادتْ بدَرَّتهـا وأخـرى تَخْنَـقُ
هـل يَسْـمَعَنَّ النضْـرُ إنْ ناديتُـهُ إنْ كـان يَسْـمعُ هـالكٌ لا يَنْطِـقُ
ظَلَّـتْ سـيوف بـني أبيـه تنوشُـهُ للهِ أرحـامٌ هنـاك تُشَـقَّقُ
صـبراً يُقـادُ إلى المنيـةِ مُتعبـاً رَسْـفَ المُقيَّـدِ وَهْـوَ عـانٍ موثَـقُ
أمحمـدٌ- ولأنـت نَسْـلُ نجيبـةٍ في قومهـا، والفحـلُ فَحْـلٌ مُعْـرِقُ

---

[1] المصدر السابق ٢/ ٢٨٢. والحربة: الحزينة. والمنثعبة: السريعة السيلان.

[2] الأغاني ١/ ١٩. ووهم الجاحظ فنسب الشعر إلى ليلى بنت النضر(البيان والتبين ٤/ ٤٣- ٤٤). والأثيل: الموضع الذي دفن فيه النضر. وأنت موفق: تريد وفقت إلى الطريق و لم تزغ عنه. وتخفق: تسرع. ودرّتها: تريد دمعاً غزيراً.

ما كانَ ضَرّكَ لو مَنَنْتَ وربّما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المُحْنَقُ

أو كنتَ قابلَ فديةٍ فَلْيَأْتِيَنْ ... بأعزِّ ما يَغْلو لديكَ ويَنْفَقُ

والنضْرُ أقربُ مَنْ أخذتَ بزَلّةٍ ... وأحقُّهمْ إن كانَ عِتقٌ يُعْتَقُ

ولقد وُصفت القصيدة السابقة بأنها «أكرم شعر موتورة وأعفه، وأكفه وأحلمه»[1]. إن قتيلة تمدح الرسول ثم تجعل ذلك سبيلا إلى معاتبته مع أن المقام يناسبه التهديد والوعيد، وإظهار الحقد والكره. ولكن تعفف الشاعرة عن ذلك أوصلها إلى القلوب، فإذا بالرسول- وهو الذي أمر بقتل النضر- يقول حين سمع الأبيات: «لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه»[2]. ترى ما دافع الشاعرة إلى مخاطبة من أمر بقتل أخيها بهذا العتاب المهذب؟ أكانت الشاعرة تميل إلى الإسلام أم أنشدت ذلك الشعر بعد إسلامها؟!

وتبرز في رثاء القتلى مظاهر الفروسية التي يتحلون بها، فهذا مسافع بن عبد مناف الجمحي يرثي عمرو بن عبد ودّ العامري القرشي، فيلح على إظهار فروسية القتيل وبطولته، فعمرو هو الذي اجتاز في غزوة الأحزاب الخندق مع بضعة فرسان قرشيين، وثبت في مواجهة المسلمين، فقتله علي بن أبي طالب مبارزة، وفرّ عنه أصحابه، ونال علي بذلك مفخرة عظيمة. وفي ذلك يقول مسافع:[3]

عمرو بنُ عبدٍ كانَ أوّل فارسٍ ... جزعَ المَذَادَ وكانَ فارسَ يَلْيَلِ

سَمْحُ الخلائقِ ماجدٌ ذو مُرّةٍ ... يبغي القتالَ بشِكّةٍ لم يَنْكُلِ

ولقد علمتمْ حينَ وَلّوا عنكمُ ... أنّ ابنَ عبدٍ فيهمُ لم يَعْجَلِ

حتى تكَنّفَهُ الكُماةُ و كُلُّهمْ ... يَبْغي مقاتلَه وليس بمُؤتلي

ولقد تكَنّفَتِ الأسنّةُ فارساً ... بجنوبِ سَلْعٍ غيرَ نكْسٍ أميَلِ

تَسَلَ النزالَ -عليُّ- فارسَ غالبٍ ... بجنوبِ سَلْعٍ ليتَه لم يَنْزلِ

فاذهبْ -عليُّ- فما ظَفِرْتَ بمِثْلِهِ ... فخراً ولا لاقيتَ مثلَ المُعْضِلِ

نفسي الفداءُ لفارسٍ من غالبٍ ... لاقى حِمامَ الموتِ لم يَتَحَلْحَلِ

---

(1) الأغاني ١/ ١٩.

(2) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٥.

(3) المصدر السابق ٣/ ١٦٥- ١٦٦. وجزع: قطع. والمذاد: مكان بالمدينة حيث حفر الخندق. ويليل: واد ببدر. والمؤتلي: المقصر. وسلع: جبل قرب المدينة. والمعضل: الأمر الشديد.

ونهج هذا السبيل هبيرة بن أبي وهب، فقال في رثاء عمرو أيضاً:[1]

فلا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً ... وحق لحسن المدح مثلك من مثلي

ولا تبعدن يا عمرو حياً وهالكاً ... فقد بنت محمود الثنا ماجد الأصل

فمن لطراد الخيل تقدع بالقنا ... وللفخر يوماً عند قرقرة البزل

فعنك - علي - لا أرى مثل موقف ... وقفت على نجد المقدم كالفحل

فما ظفرت كفاك فخراً بمثله ... أمنت به ما عشت من زلة النغل

وتتضاءل آلام الموتور إذا كان الواتر (القاتل) بطلاً، ونجد مصداق ذلك في قول أخت عمرو بن عبد ود ترثيه:[2]

لو كان قاتل عمرو غير قاتله ... لكنت أبكي عليه آخر الأبد

لكن قاتله من لا يعاب به ... من كان يدعى قديماً بيضة البلد

إن رثاء القتلى من الأفراد يظهر شدة حب المرأة القرشية لأقاربها، فأغلب ذلك الرثاء صدر عن شواعر قريش، وهذا من أسباب ندرة التهديد والوعيد فيه، وغلبة النواح والبكاء عليه.

ورثى شعراء قريش بعض الأفراد الذين ماتوا حتف أنفهم، فحين مات مسافر بن أبي عمرو الأموي غريباً عن موطنه (مكة) رثاه أبو طالب بقوله:[3]

ليت شعري مسافر بن أبي عمـ ... ـرو، وليت يقولها المحزون

رجع الركب سالمين جميعاً ... وخليلي في مرمس مدفون

بورك الميت الغريب كما بو ... رك نضر الريحان والزيتون

بيت صدق على (هبالة) قد حا ... لت فياف من دونه وحزون

مدرة يدفع الخصوم بأيد ... وبوجه يزينه العرنين

كم خليل رزئته وابن عم ... وحميم قضت عليه المنون

فتعزيت بالتأسي وبالصبـ ... ـر وإني بصاحبي لضنين

ولأبي طالب قصيدة في رثاء أبي أمية بن المغيرة المخزومي الذي وافاه الأجل، وهو في طريق العودة من الشام إلى مكة:[4]

---

(1) المصدر السابق ٣/ ١٦٦-١٦٧. وتقدع: تتابع. وقرقرة البزل: أصوات الإبل الكريمة. والوغل: الفاسد.

(2) أمالي المرتضى ٢/ ٨. وبيضة البلد: الذي لا نظير له.

(3) الأغاني ٩/ ٥١. وهبالة: ماء لنمير في الطريق من الحيرة إلى مكة.

(4) الخزانة ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥. السواجر: المواضع التي يأتي عليها السيل ويملؤها. ويريد بها كثرة الدموع. وسرو سحيم: موضع في بلاد هذيل. وعارف القوم: مدبر أمرهم. والمناكر: المقاتل. والمجعجعة: المضوتة. وقيل: المصروعة. والباقر: اسم لجماعة البقر.

أرقتُ ودمعُ العينِ بالعَينِ غائرُ
وجادت بما فيها الشؤونُ الأعاورُ

كأنَّ فِراشي فوقَهُ نارُ موقِدٍ
من الليلِ أو فوقَ الفراشِ السَّواجرُ

على خيرِ حافٍ من قريشٍ وناعلٍ
إذا الخيرُ يُرجى أو إذا الشرُّ حاضرُ

ألا إنَّ زادَ الركبِ غيرَ مُدافَعٍ
بسَرْوِ سُحَيمٍ غيَّبتهُ المقابِرُ

بسَرْوِ سُحَيمٍ عارفٌ ومُناكرٌ
وفارسُ غاراتٍ خطيبٌ وياسِرُ

تَنادَوْا بأنْ لا سيِّدَ الحيِّ فيهمُ
وقد فُجِعَ الحيَّانِ: كعبٌ وعامرُ

وكانَ إذا يأتي من الشامِ قافلاً
تَقَدَّمُهُ، تسعى إلينا البشائرُ

ترى دارَه لا يبرحِ الدهرَ عندها
مُجعجعةً كومٌ سِمانٌ وباقرُ

ضروبٌ بنصلِ السيفِ سوقَ سِمانِها
إذا عَدِمُوا زاداً فإنَّكَ عاقِرُ

فإلاَّ يَكُنْ لحمٌ غريضٌ فإنَّهُ
تُكَبُّ على أفواهِهِنَّ الغرائرُ

إن الأبيات السابقة تظهر أرق أبي طالب، وتحدر دموعه على خير قريش، والمرجوّ للخير والشرّ. وقد ألح أبو طالب على إظهار صفة الكرم في الفقيد، ولا عجب، فأبو أمية مشهور بكرمه، فهو من أزواد الركب القرشيين، وكانوا يكفون من يصحبهم في السفر مؤونة الطعام والشراب. وإلى جانب ذلك فأبو أمية فارس غارات وخطيب وياسر.

وحين توفي العاص بن وائل سيّد بني سهم رثاه عبد الله بن الزبعرى السهمي بأبيات استهلّها بتقرير حقيقة خالدة، حقيقة الموت الذي لا مفرّ منه. وهو يرى أن الناس كجماعات الطير بعضهم يرد الموت متمهلاً، وبعضهم يسترع إليه، ويزاحم لبلوغه، ثم انتقل الشاعر إلى إعلان عظمة مصيبته بفقد سيد العشيرة الذي كان يحسن إلى أقاربه، ويكفيهم مؤونة العيش في سني القحط. ويزداد الحزن لفقد العاص بن وائل أنه ترك وراءه عجائز كان يعيلهن، وأرملة عرفت نعيم الحياة في ظله. يقول عبد الله:[1]

ليس الذي يرجو الخلودَ بخالدٍ
والمرءُ مُرتَهَنٌ بخيفِ الراصِدِ

والناسُ هامٌ رائثٌ ومُعَجِّلٌ
وِرْدَ النِّهالِ تَوارَدَتْ للذائدِ

---

(1) جمهرة نسب قريش- مخطوط ص ١٨٧- ١٨٨. والخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. والنهال: يقال: إبل نهال، من النهل، وهو أول الشرب. والذائد: من ذاد الإبل أي: ساقها وطردها. وعام جاحد: قليل المطر. والمجاسد: أثواب مصبوغة بالزعفران. والماكد: الدائم الذي لا ينقطع.

فالرُّزْءُ كانَ أبو حكيم إنَّه ... خلى علينا غير فَقْدِ واحِدِ
خلّى يتامى كانَ يُحسِنُ حَملَهُمْ ... ويَكُفُّهمْ في كلّ عام جاحِدِ
وعجائزاً شُمْطاً وكلَّ مُعيَّل ... عَوْلى وأرملةٍ تواري قاعِدِ
تبكي لعينٍ لا تَجفُّ دموعُها ... كانت ترى في نعمةٍ ومَجاسِدِ
قد كنتَ مُلْبِسَها وكنت طبيبَها ... حتى تؤدّيها كعهد العاهِدِ
قَدْفِتَ بمعروفاً وتصنعُ نائِلاً ... جزلاً، فذلكَ خيرُ ذخرٍ ماكِدِ

والأبيات كما يقول الزبير بن بكار أكثر من هذا.

٢- رثاء الجماعات

يراد بالجماعة مجموعة من أبناء القبيلة أو أبناء بطن منها. وفي شعر قريش الجاهلي نصوص في رثاء جماعات غدا عليها الدهر قتلاً أو موتاً.

وقد ورد شعر قريش في رثاء الجماعات التي أفنتها الحروب في مناسبتين: حروب الفجار، وغزوة بدر. ومن المعروف أن حروب الفجار استمرت عدّة سنوات وأن كثيراً من القرشيين قتلوا فيها. ومن شعر الرثاء فيها قصيدة لأميمة بنت عبد شمس رثت فيها ابن أخيها أبا سفيان بن أمية، ومن قتل من قومها. وكان تمثلها لآلام القبيلة عظيما، فقد تجاوزت مصيبتها الخاصة لتعبر عن مصائب أبناء قبيلتها، واستهلت ذلك بمراقبة الكواكب، وبإعلان الضجر من تطاول الليل، وهي تكني بذلك عن الأرق والقلق لمقتل عشيرة من قومها، تقول أميمة:[1]

أبى لَيْلُكَ لا يَذْهَبْ ... ونيطَ الطرْفُ بالكَوْكَبْ
ونجمٌ دونَهُ الأهْوا ... لُ بين الدَّلْوِ والعقربْ
وهذا الصبحُ لا يأتي ... ولا يَدْنو ولا يَقْرُبْ
بِفَقْدِ عشيرةٍ منّا ... كِرامِ الخِيمِ والمَنْصِبْ
أحالَ عليهمُ دهرٌ ... حديدُ النابِ والمِخْلَبْ
فحلَّ بهمْ وقد أَمِنوا ... ولم يُقْصِرْ ولم يَشْطُبْ

---

[1] الأغاني ٢٢/ ٧٤- ٧٥. ونيط: علق. والخيم: الخصال الحميدة. والمنصب: الأصل. ويشطب: يطول. والدمع المستغرب: الغزير. والمحرب: الخبير بأمور الحرب. والحوّل: الذي يلبس لكلّ حال لبوسها. والخضرم: السيد الجواد.

وما عُنْـةُ إذا ما حَلْـ ... ـلَ مِـن منجى ولا مَهْـرَبْ

ثم استمطرت الشاعرة الدموع الغزيرة، فالذين فقدوا قتلا هم عز الشاعرة وركنها وأصلها وفرعها ونسبها ومجدها وحصنها وشرفها ورمحها وترسها وسيفها. تقول أميمة:

أَلا يا عينُ فابْكيهم ... بدفع منك مُستغربْ

فإن أبكي فهم عِزّي ... وهم رُكني وهُم مَنكِبْ

وهم أصلي وهم فرعي ... وهم نسبي إذا أنسبْ

وهم مجدي وهم شرفي ... وهم حِصْني إذا أرهبْ

وهم رمحي وهم تُرسي ... وهم سيفي إذا أغضبْ

ثم عددت أميمة مآثر قتلى قومها، فهم يقولون الصدق، وخطباء فصحاء، وفرسان مُعْلَمون، ورجال جازمون، وقادة عظماء، وأجواد نجباء منجبون. تقول:

فكم من قائل فيهم ... إذا ما قال لم يَكْذِبْ

وكم من ناطق فيهم ... خطيب مِصقع مُعْرِبْ

وكم من فارس فيهم ... كمِيٌّ مُعْلَمٌ مِجْرَبْ

وكم من مِدْرَهٍ فيهم ... أريب حُوَّلٍ قُلّبْ

وكم من جَحْفَل فيهم ... عظيم النار والموكبْ

وكم من خِضْرِمٍ فيهم ... نجيبٌ ماجدٌ مُنْجِبْ

إن قراءة القصيدة السابقة بإمعان تنقلنا إلى عالم نساء مكة في الجاهلية، وقد تجمعن يندبن قتلاهن، ويثنين عليهم، ويعددن مآثرهم. وهذه القصيدة بما امتلكته من قوة العاطفة وسرعة تتابع أبياتها وتتابع الوقع الموسيقي - تلتقي مع بكائيات هند بنت عتبة على أقاربها، والظاهر أن هذا الصنف من الرثاء، كان مادة لنواح نساء قريش على القتلى، ووسيلة لإظهار عظمة المصيبة بفقدهم.

وعقب غزوة بدر عمّت الأحزان قريشا، وأظهر شعراؤها عمق آلام قبيلتهم، ومنهم عبد الله بن الزبعرى الذي عدد مآثر عظماء قريش الذين أصيبوا ببدر في قوله:[1]

---

[1] سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٥. ونسب البيت الثاني إلى أبي عزّة الجمحي (حذف من نسب قريش ص٨٥-٨٦). والفئام: جماعات من الناس. والرمح التميم: الطويل. والأرصام: العيوب.

مـاذا علـى بـدرٍ ومـا ذا حَولَـهُ ... مـن فِتيَـةٍ بيضِ الوجـوهِ كـرام

تركـوا نُبَيْهـاً خلفهـم ومُنَبِّهـاً ... وابـني ربيعـة خـير خصـم فئـام

والحـارثَ الفيّـاضَ يَبرُقُ وجهُـهُ ... كـالبدرِ جَلّـى ليلـةَ الإظـلام

والعـاصيَ بـنَ مُنَبِّـهٍ ذا مِـرَّةٍ ... رُمْحـاً تميمـاً غـيرَ ذي أوْصـام

تَنمـي بـه أعراقُـه وجـدودُهُ ... ومـآثرُ الأخـوالِ والأعمـام

فـإذا بكـى بـاكٍ فـأعوِلَ شَـجوهُ ... فعلى الرئيسِ الماجدِ ابـنِ هشـام

حَيّـا الإلـهُ أبـا الوليـدِ ورَهطَـهُ ... ربُّ الأنـامِ وخصَّهـم بسـلام

وبكت صفية بنت مسافر بن أبي عمرو الأموية أهل القليب الذين أصيبوا في بدر، وأظهرت حزنها العميق لفقدهم، وألمها من فرار فرسان قريش عن قتلاهم وندبت نفسها للبكاء عليهم. تقول صفية:[1]

يـا مَـنْ لعيـنٍ قذاهـا عـائرُ الرَّمَـدِ ... حَدَّ النهارِ وقرنُ الشمسِ لم يَقِـدِ

أُخبِـرْتُ أنَّ سَـراةَ الأكرمـين معـاً ... قـد أحرزتْهـمْ منايـاهُم إلى أمَـدِ

وفـرَّ بـالقومِ أصحـابُ الركـابِ ولم ... تعطِـفْ غداتئـذٍ أمٌّ علـى ولَـدِ

قومي – صَفِيَّ – ولاتَنْسَيْ قرابتهمْ ... وإنْ بكَيْـتِ فمـا تبكيـنَ مـن بُعُـدِ

وكانت مصيبة أبي زمعة الأسدي القرشي عظيمة في بدر لمقتل ابنيه: زمعة وعقيل، وحفيده الحارث بن زمعة. وقد امتنع أبو زمعة عن رثائهم لأن قريشاً أجمعت على ألا تبكي قتلاها دفعاً لشماتة الأعداء. ولكن أبا زمعة سمع في ليلة امرأة تبكي بصوت عال، فقال: أقد بكت قريش قتلاها! فقيل له: إنما تبكي على بكر ضَلّ لها، فأنشد يقول:[2]

تُبكّـي أنْ يَضِـلَّ لهـا بعـيرٌ ... ويمنعُهـا مـن النـومِ السُّـهُودُ

فـلا تبكـي علـى بَكْـرٍ ولكـنْ ... علـى بـدرٍ تقـاصَرَتِ الجُـدُودُ

علـى بَـدْرٍ سَـراةِ بَـني هُصَيـصٍ ... ومخـزومٍ ورَهـطِ أبـي الوليـدِ

وبكّـي إنْ بكَيْـتِ علـى عقيـلٍ ... وبكّـي حارثـاً أسَـدَ الأسـودِ

وبكّـي إنْ بكَيتِهـمُ جميعـاً ... ومـا لأبـي حكيمـةَ مـن نديـدِ

---

[1] سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٣. وقرن الشمس لم يقد: لم يتم نوره.

[2] جمهرة نسب قريش ١/ ٤٦٧ – ٤٦٨. والبكر: الفتي من الإبل. وأبو حكيمة: هو زمعة بن الأسود.

ألا قد سادَ بعدهمُ رجالٌ ... ولولا يومُ بدرٍ لم يَسُودُوا

والشاعر في الأبيات السابقة لم يقصر رثاءه على أبنائه بل أظهر حزنه على قتلى قريش كلهم، ثم أعلى شأن الذين قتلوا بغمز قناة الذين أصبحوا سادة قريش بعد مقتل عظماء القبيلة في بدر.

ووقفت في شعر قريش الجاهلي على مقطعتين في رثاء الموتى من الجماعات، الأولى لعبد الله بن جدعان التيمي، وفيها يرثي أولاد عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، ويظهر إحساسه بالاغتراب لفقد أقاربه، ويصفهم بالشجاعة والكرم وذلك في قوله:[1]

إذا وَلَدُ السُّبَيْعَةِ فارَقُوني ... فَأيُّ مَرادِ ذي حَسَبٍ أَرُودُ
أُقْصِدُ بَعْدَهُمْ في النّاس حَيّاً ... وقد هَلَكَ المصاليتُ الأسودُ
يَكُبُّونَ العِشارَ لِمَنْ أتاهُمْ ... إذا ما لَمْ يكنْ في الأرضِ عُودُ

والثانية لعبد الله بن الزبعرى السهمي، وفيها يرثي رجالا من بني سهم، كانوا ينصرون الشاعر، وينطقون بالحقّ، ثم رحلوا، وتركوا في فؤاد الشاعر حزناً عميقاً، وخلفهم رجال ضعاف. يقول عبد الله:[2]

كم ناصرٍ لي في القبورِ وناطقٍ ... حقاً إذا انبعثَ الخطيبُ السَّلْجَمُ
قيسٌ وعروةُ منهمُ ومُنَبِّهٌ ... وأبو ربيعةَ ذو الفَعالِ وحِذْيَمُ
وصُبَيْرَةُ الوضّاحُ يَبْرُقُ وَجْهُهُ ... عَفُّ المكاسبِ ذو فَعالٍ خِضْرَمُ
ذهبوا وأصبحَ في الديارِ معاشرٌ ... حَوْلي كأنّهمُ صُداءٌ وسَلْهَمُ

ومن الواضح أن إحساس الشاعر بافتقاد فضائل الراحلين، وبضعف من حوله - يظهر شعوره بالاغتراب، وشدّة تعلقه بمن رحل.

* * * *

إن شعر الرثاء القرشي يعبر بصدق عن آلام القبيلة وأحزانها. وقد برزت فيه مشاركة المرأة، ولا سيما في رثاء القتلى، وفيه تظهر قيمة القوة والبطولة وتتراءى

---

[1] نسب قريش ص ٢٩٣. والسبيعة: أم بني مناف بن كعب بن سعد. والمصاليت: جمع مصلت، وهو الماضي في الأمور. ويكبون العشار: ينحرونها. ولم يكن في الأرض عود: كناية عن القحط.

[2] جمهرة نسب قريش- مخطوط ص ١٨٥/أ. السلجم: الطويل من الرجال. والخضرم: الجواد. والصداء: جمع صدى. وهو الجسد من الآدمي بعد موته. والسلهم: الذي عرف أثر المرض في بدنه.

قيمة الكرم. وتسقط في رثاء القتلى الحدود بين مصيبة الشاعر الخاصة، ومصيبة القبيلة العامة، فالشاعر يتمثل آلام القبيلة كلها، وكأنه يعبر عن إحساس بخطر خارجي يتهدد كيان القبيلة. والعاطفة في رثاء القتلى قوية متدفقة حارة تدل على معاناة حقيقية، وتجربة شعرية أصيلة.

وأبرز شعراء قريش في رثاء الموتى قيمتي البطولة والكرم، ولم يغلّبوا قيمة على أخرى. وتميل العاطفة فيه إلى الهدوء والاستسلام لما رادّ له. وقد خصّ الشعراء برثاء الموتى أقاربهم القرشيين، والبطون التي ينتمون إليها.

ويلاحظ أن رثاء قريش الجاهلي كان داخلياً، لم يتعدّ إطار القبيلة،[1] ويرجع ذلك إلى استقلال قريش وعدم خضوعها لنفوذ أية سلطة خارجية، وإلى اعتداد أبنائها بأنفسهم اعتداداً كبيراً، وبذلك يكون الدافع إلى الرثاء عند قريش له طابع اجتماعي وسياسي مرتبط الصلات الاجتماعية بين القرشيين، وبالمصالح السياسية والدينية والاقتصادية التي قتل كثير من فرسان قريش دفاعاً عنها.

– ٤ –

شعر الفخر

١ – القيمة المادية

يفخر الشعراء بامتلاك القيم التي تسود في بيئتهم. وقد كان لتجارة قريش أثر عظيم في تشكيل مثلها العليا وترتيب أهميتها ترتيبا أعطى القيمة المادية قصب السبق عند قريش البطاح. وبذلك نفسر الافتخار بامتلاك الأموال الكثيرة في قول عميلة بن السبّاق بن عبد الدار:[2]

لاتَنسَيَنَّ –أبا الوليد– بلاءَنا ... وصنيعَنا في سالفِ الأيامِ

ولنا من الأموال عَيْنُ رَغائبٍ ... ولنا نصابُ المجدِ والأحلامِ

إنّ التباهي بامتلاك الأموال الكثيرة من القيم الأصيلة في المجتمعات التجارية وكذلك الحديث عن بعض معالم الرفاهية التي تبرز فيها. ومن تلك المعالم في مجتمع

---

(١) نسبت إلى أربعة شعراء، منهم ثلاثة من قريش، أبيات في رثاء ربيعة بن مكدم الكناني. انظر الأبيات وأسماء الشعراء الذين تنازعوها في شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٦٩– ٧٠.

(٢) معجم الشعراء ص ٢٥٥. والرغائب: كل ما يرغب فيه ذو سعة الأمل وطلب الكثير.

منكة التمتع بالنساء البيض، وبارتداء الثياب الجميلة، ونلمس الفخر بذلك في قول مسافر بن أبي عمرو الأموي:[1]

خُلِقَ البِيضُ الحِسَانُ لَنَا ... وَجِيَادُ الرَّيْطِ وَالحِبَرَهْ
كابراً كنّا أحقّ به ... كلّ حيّ تابعٌ أثَرَهْ

ونجد مثل ذلك في قول الزبير بن عبد المطلب:[2]

ولكنّا خُلِقنا إذ خُلِقنا ... لنا الحِبَرات والمِسْكُ الفَتِيتُ

وكانت مناقب قريش الجاهلية مجال فخر لشعرائها كما في قول صفية بنت عبد المطلب تفخر بامتلاك قومها لمناقب الخيرات:[3]

وكلّ مناقب الخيرات فينا ... وبعض الأمر مَنْقَصَةٌ وعارُ

وتغنى مسافر بن أبي عمرو بقومه الذين يرفدون الحجيج، ويسقونهم ماء زمزم فقال:[4]

ورثنا المجد عن آبا ... ئنا فَنَمَى بنا صُعُدا
فأيّ مناقب الخيرا ... تِ لم نَشْدُدْ به عَضُدَا
ألم نسق الحجيج ونَنْـ ... ـحَر الدّلافة الرُّفُدا
وزمزمُ من أرومتنا ... ونُرْغِمُ أنفَ من حَسَدَا

ومن الشعر المتصل بمنقبة السقاية الافتخار بامتلاك الآبار، فحين حفر بنو عبد الدار بئرهم (أم أحراد) قالت أميمة بنت عميلة بن السباق امرأة العوام بن خويلد:[5]

نحنُ حَفَرْنا البحرَ أمَّ أحْرادِ ... ليست كبَذّرَ البرورِ الجَمَادِ

فأجابتها ضرتها صفية بنت عبد المطلب الهاشمية:

---

(1) الأغاني ٩/ ٤٩، ٥٠. والريط: جمع ريطة، وهي الملاءة إذا كانت قطعة واحدة. والحبرة: برد يمان. والجمع حِبَر وحِبَرات.

(2) العمدة ١/ ٦٦.

(3) شرح ديوان الحماسة ص ١٧٨٨.

(4) نسب قريش ص ١٣٥، ٣٦١. والدلافة: الناقة التي تنهض بالحمل الثقيل. والرفد: جمع رفود، من الرفد، وهي الناقة التي تملأ إناءين عند الحلب.

(5) الروض الأنف ٢/ ١٢٥. وفيه أشعار أخرى متشابهة.

نحـــــن حَفَرْنـــــا بَـــــذَّرْ نســـقي الحجيـــجَ الأكــــبرْ
مـــــن مُقْبـــــلٍ ومُدْبـــــرْ وأمُّ أحــــــرادَ شَـــــــرّ

وافتخر أبو طالب بامتلاكه سكنا في مكة منذ القدم. يقول:[1]

فَمِنْ يَنْشَ مِنْ حُضّارِ مَكّةَ عِزُّهُ فَعِزَّتُنـــا في بطـــنِ مَكّـــةَ أتْلَـــدُ
نَشَأْنا بها والناس فيهـا قلائِـــلٌ فلـم نَنْفككْ نـزدادُ خيراً ونُحمَـــد

فأبو طالب يفخر بعزه القديم، فهو من السابقين إلى السكن في مكــة، وهـذا السبق يمنحه تقدماً بالمواطنة على من سكنها بعده.

ومن المظاهر المادية الأصيلـة في الشـعر العربـي القديـم الفخـر بـالكرم، فهـو ضرورة حيوية للإنسان العربي الجاهلي الذي يقطن الصحراء ويجوب مجاهلها. ومن القرشيين الذين افتخروا بالكرم هبيرة بن أبي وهب المخزومي في قوله:[2]

وليلـةٍ مـن جُمَـادَى ذاتِ أنْدِيـةٍ جَرْبـا جُمَادِيَّـةٍ قـد بـتُّ أسْـريها
لايَنْبَحُ الكلْبُ فيهـا غـيرَ واحـدةٍ مـن القريـس ولا تَسْـري أفاعيهـا
أوْقَـدْتُ فيها لـذي ضَـرّاءَ جاحمـةً كالـبرق ذاكيـةَ الأركـان أحميهـا
أورثني ذاكـــمُ عمـــروٌ ووالِـدُهُ من قَبْـلِهِ كـانَ بـالمثنى يُغَاليهــا

فالشاعر يوقد النيران كي يهتدي إليه أصحاب الحاجـات في الليـالي البـاردة، وهذا الكرم سجية ورثها عن آبائه. وكان عبد الله بن جدعان التيمـي مـن أجـواد قريش في الجاهلية، وقد فخر بكرمه، فقال:[3]

إنّي–وإنْ لم يَنَـلْ مالي مَـدى خُلُقِي- وهّـابُ مـا ملكـتْ كفّـي مـن المـالِ
لاأحْبِـسُ المالَ إلاّ رَيْثَ أُتْلِفُـــهُ ولا تُغَيّرنـــي حـــالٌ عـن الحـــالِ

فالشاعر يبذل المال، ومصاعب الحياة لاتغير سجيته.

ومن الملاحظ ندرة فخر الشاعر القرشي بكرمه، وأنه لم يفخر بكـرم قبيلتـه. وهذا يعني أن الكرم لم يكن ظاهرة شائعة في قريش، بل كـان سمـة بعـض رجالهـا.

---

[1] سيرة ابن هشام ٢/ ١٩ - ٢٠. وحضار مكة: المقيمون فيها.

[2] المصدر السابق ٣/ ٦٥. وجربا: شديدة البرد مؤلمة. والقريس: البرد مع الجليد. وذو الضراء: ذو الحاجة. والجاحمة: النار الملتهبة. والذاكية: المضيئة. وعمرو : هو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم، جد هبيرة. والمثنى: يريد مرة بعد مرة.

[3] عيون الأخبار ١ / ٣٣٥.

ويرجع ذلك إلى سكن قريش في مكة، وهي حاضرة تجارية يستطيع من يؤمها أن يجد الطعام والمأوى في أسواقها.

إن فخر قريش الجاهلي يظهر أهمية القيمة المادية في حياة الإنسان القرشي، فهو يفخر بامتلاك الأموال والنساء الفاتنات والثياب الجديدة الجميلة، وبالقيام بأمور المناقب المكية كالسقاية والرفادة، وتباهى القرشي بامتلاك الآبار، وبقدم المواطنة في مكة. ومن الواضح أن المعاني السابقة-إضافة إلى تضاؤل الفخر بالكرم- ذات طبيعة خاصة منتزعة من بيئة قريش التجارية.

٢- قيمة العصبية القبلية

إن رابطة الدم هي قوام العصبية القبلية. وهي تدفع إلى محبة الأهل،والاعتزاز بهم، والدفاع عنهم.ومن الفخر القبلي قول عمارة بن الوليد متباهيا بنسبه:[1]

ألا يا عمْرو هل لكَ في قريش ... أبٌ مثلُ المغيرةِ والوليدِ
وجدٌّ مثلُ عبد اللهِ يَنْمِي ... إلى عمرو بن مخزوم بعُودِ

ومن العصبية القبلية الافتخار بالقبيلة، كقول درة بنت أبي لهب تفخر بصلابة قريش يوم عكاظ:[2]

قومٌ لوَانَّ الصخرَ صالدَهمْ ... صَلُبُوا ولانَ عرامِسُ الصَّخْرِ

وفخر ضرار بن الخطاب الفهري يوم أحد بانتمائه إلى فرسان قريش، وذلك في قوله:[3]

وما انتميتُ إلى خُور ولا كُشُفٍ ... ولا لئام غَداةَ البأس أوراع
بلْ ضار بين حَبيكَ البيض إذ لَحقوا ... شُمّ العرانين عند الموتِ لُذّاع
شمٌّ بهاليلُ مسترخ حمَائِلُهُمْ ... يَسْعَوْنَ للموتِ سعياً غير دعداع

وقال ضرار أيضا عقب غزوة الخندق:[4]

---

[1] الأغاني ١٨/ ١٢٥. والمنادى في البيت الأول هو عمرو بن العاص.

[2] الوحشيات ص ٦٦. والعرامس: الصخور الصلبة.

[3] سيرة ابن هشام ٣/ ٧٥. واللذاع: جمع أكشف، وهوالذي لاترس له في الحرب. والأوراع : الجبناء. واللذاع: الذين يوجعون بالكلام. والدعداع: الضعيف.

[4] شعر ضرار بن الخطاب الفهري ص ٥١. وبيض جعاد : قوم كرام.

إنــي لأنمــي إذا انتميــت إلى حــيٍّ كــرام ومَعْشَــر صُــدُق

بيــض جعَــادٍ كأنَّ أعْيُنَهُــمْ تُكْحَــلُ يــومَ الهيــاج بالعَلَــق

ومن الملاحظ بروز هذه العصبية عقب المعارك التي تخوضها قريش، وفيها يظهر تأييد الشعراء لقبيلتهم، واعتزازهم بها.

٣- قيمة القوة والبطولة

سنقف هنا عند تمجيد الشعراء لمظاهر البطولة بمعزل عن المعارك التي خاضتها قريش، وذلك لأن بطولة المعارك ألصق بالعصبية القبلية، لارتباط تلك المعارك سبباً وغاية بالدفاع عن القبيلة وإعلاء شأنها غالباً. ومن مظاهر القوة في شعر قريش افتخار ورقة بن نوفل الأسدي بعزته ومنعته في قوله:[1]

إنــي يَرانــي الموعِــدِيُّ كــأنّني في الحصن من نَجرانَ أو في الأَ بْلَق

في يــافع دونَ السَّــماء مُمــرَّدٍ صَعْــبٍ تَــزلُّ بــه بَنــانُ المُرْتَقِــي

ويَصُدُّهُــمْ عــني بــأني مــاجدٌ حَسَبي وأَصدُقُهُمْ إذا مـا نَلْتَقــي

وإذا عَفَــوتُ، عفــوتُ عفواً بيِّنــاً وإذا انتصَرْتُ بَلَغْــتُ رَنْقَ المُسْتَقِــي

فالشاعر ممتنع على أعدائه، وكأنّه في حصن يصعب ارتقاؤه، فهو ماجد الحسب صادق العزيمة، قادر على العفو، ومقتدر على بلوغ أعظم درجات الانتصار. وافتخر عثمان بن الحويرث الأسدي بقوته في قوله:[2]

تخافُ الأسْدُ مـن سَطَوات صَـوْلي وتُطْرقُ حينَ أبـدو مـن مكانــي

وقريب من ذلك قول نبيه بن الحجاج السهمي يخاطب امرأة:[3]

فَسَــلِي بمكّــةَ تُخْــبَري أنّــا مــنَ اهْــلِ وفائهــا

نَمْشِــي بالويــةِ الوغَــى ونمــوتُ في أَوْدائهــا

وأظهر سهيل بن عمرو العامري أنه حسن الخلق مع الاقتدار على خداع الناس والبطش بهم، وذلك حين رفضت هند بنت عتبة الأموية أن تتزوجه وآثرت

---

[1] جمهرة نسب قريش ١/ ٤٢٠. والأبلق: حصن مشهور. واليافع : المشرف المرتفع. والممرد: البناء المملس المرتفع. والرنق: الكدر.

[2] معجم الشعراء ص ٨٨.

[3] الأغاني ١٧/ ٢٨٦. والأوداء : جمع وادٍ.

عليه ابن عمها أبا سفيان، واتهمت سهيلا بالهوج. يقول سهيل:[1]

وما هَوَجي يا هندُ إلاّ سَجيَّة ... أجُرُّ لها ذَيْلي بحُسْن الخلائق

ولو شئتُ خادعتُ الفتى عن قَلُوصِهِ ... ولا طَمَتْ بالبطحاء في كلِّ شارق

ومن الفخر بالقوة والنشاط اعتزاز ورقة بن نوفل الأسدي بمغامراته الغرامية أيام الشباب، وقد جاء في حديثه عن إحدى مغامراته قوله:[2]

فبتلكَ لذّاتُ الشبابِ قضيتُها ... عنّي فسائِلْ بعضَهمْ ماذا قَضى

* * *

لقد أبرز شعراء قريش في فخرهم أهمية القيمة المادية عند قريش البطاح، وظهرت في مقابلها قيمة العصبية القبلية عند شاعر الظواهر ضرار بن الخطاب.ويرجع الاختلاف بين البطاح والظواهر إلى عدم التطابق بين مثل مجتمع البطاح التجاري، ومثل مجتمع الظواهر البدوي. واهتم شعراء قريش بالقوة والبطولة، ولم يغفلوا شأن الأخلاق الحسنة.

—٥—

شعر المديح

١- القيمة المادّية

رصد د. وهب رومية القيم التي سادت شعر المديح في العصر الجاهلي، ثم رتبها بحسب أهميتها عند عرب الجاهلية على النحو التالي: قيمة حسن الجوار، فالقوة، فالكرم، فالنسب. ويتفرع عن تلك القيم معان كثيرة، ويضاف إلى ذلك قيم أقل شأناً مما ذكر[3] . وقيمة الكرم التي ذكرها وهب رومية تتضمنها القيمة المادية، فالأخيرة أشمل من الكرم.

لم يكن الكرم طبعاً أصيلاً في قريش. ولكن بعض سادتها اشتهروا به،ولا

---

[1] العقد الفريد ٦/ ٨٨. والهوج: التسرع والحمق.

[2] جمهرة نسب قريش ١/ ٤٠٩.

[3] قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي ص ٣٤- ٣٥.

سيما في حدبهم على أقاربهم. ومن هؤلاء العاص بن وائل سيّد بني سهم، وفيه يقول عبد الله بن الزبعرى السهمي مادحاً:[1]

أصابَ ابنُ سَلْمَى خُلَّةً من صَديقِهِ	ولولا ابنُ سَلْمَى لم يكنْ لك راتقُ
فآوى وحيَّا إذْ رآنا بخُلَّةٍ	وأعرضَ عنّا الأقربونَ الأصادقُ
فإمَّا أُصِبْ يوماً من الدهر نُصرةً	أُثِبْكَ وإني -يا بن سَلمى- لصادِقُ
وإلاّ يكنْ إلاّ لساني فإنّني	بحسن الذي أسلَفْتَ عندي لناطقُ
ثِمالٌ يعيشُ المقتِرونَ بفضلِهِ	وسيْبُ ربيع ليس فيه صواعقُ
وقد علموا أنّ ابن سَلْمى ثِمالُهمْ	إذا لم يكنْ للضيف في الحيِّ غابقُ

ومدح أبو طالب ابن أخيه محمداً بالكرم، فهو ملجأ لليتامى، وعصمة للأرامل، وملاذ للفقراء من بني هاشم. يقول أبو طالب:[2]

وأبيض يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِهِ	ثِمالُ اليتامى، عصمةٌ للأرامل
يلوذُ به الهُلاّكُ من آل هاشم	فهمْ عنده في رَحْمةٍ وتواصل

وأُعجب أبو طالب بالقرشيين الذين قاموابنقض صحيفة مقاطعة بني هاشم، فمدحهم، وأبرز صفة الكرم في كلّ منهم بقوله:[3]

عظيمُ الرمادِ سيّدٌ وابنُ سيّدٍ	يَحُضُّ على مَقْرَى الضيوفِ ويَحْشِدُ

وقرن الخطاب بن نفيل الكرم با لشجاعة في قوله يمدح بني سهم:[4]

خضارمةٌ ملاوثةٌ لُيوثٌ	خلال بيوتهمْ كَرَمٌ وَجُودُ
ربيعُ المعدَمينَ وكلُّ جار	إذا نزلتْ بهم سَنَةٌ كَؤودُ

وقرن حذيفة بن غانم العدوى الكرم بالوفاء في قوله يمدح حمزة بن عبد المطلب:[5]

---

[1] جمهرة نسب قريش - مخطوط ص ١٨٧/ ب. والخلة: الحاجة والفقر. وسلمى: أم العاص، من بلي. والثمال: العماد والملجأ. وغابق: من الغبوق، وهو الشرب بالعشي.

[2] العمدة ٢/ ٦٧.

[3] سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠.

[4] أخبار مكة ٢/ ٢١١. والخضارمة: جمع خضرم، وهو الجواد. والملاوثة: الأشراف الذين يلوذ الناس بهم. والسنة الكؤود: الصعبة.

[5] سيرة ابن هشام ١/ ١٦١.

وحمزةُ مثلُ البدرِ يَهْتَزُّ للنَّدَى نقيُّ الثيابِ والذمامِ من الغَدْر

وجمع حذيفة بن غانم بين الكرم والسيادة في قوله يمدح أبا لهبٍ:[1]

سَبَقْتَ وفُتَّ القومَ بذلاً ونائلاً وسُدْتَ وليداً كلَّ ذي سُؤددٍ غَمْر

وكان لسماح نفس أغنياء قريش ببذل الأموال لمساعدة فقراء القبيلة المعدمين أهمية كبيرة في تهدئة نفوس الفقراء، واستقرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مكة، فقد ذُكر أن قحطاً أصاب قريشا، فرحل هاشم ابن عبد مناف إلى فلسطين، فاشترى منها الدقيق، ثم قدم به مكة، فأمر به، فخبزله، ونحر جزوراً، ثم اتخذ لقومه ثريداً بذلك الخبز، فقال وهب بن عبد قصي يمدح هاشماً:[2]

تَحَمَّلَ هاشمٌ ما ضاقَ عنهُ وأعيا أنْ يقومَ به ابنُ بيض

أتاهمْ بالغرائرِ مُتْأَقاتٍ مِنَ ارضِ الشأْمِ بالبُرِّ النَّفِيض

فَأَوسعَ أهْلَ مكَّةَ مِن هَشيمٍ وشابَ الخبزَ باللحمِ الغريض

فَظَلَّ القومُ بينَ مُكَلَّلاتٍ مِن الشِّيزَى وحائِرُها يفيضُ

ومن المعروف أن هاشم بن عبد مناف هو الذي دعا إلى تحسين أحوال الفقراء القرشيين بإشراكهم في تجارة قريش، فقد أدرك خطورة التفاوت الطبقي بين الفقراء والأغنياء على استقرار الأوضاع في مكة. ولقيت دعوة هاشم استجابة تجار قريش .ولعبد الله بن الزبعرى السهمي أبيات يمدح فيها هاشما ورهطه، فهاشم أطعم قريشاً في سني القحط، ورهطه -بنو عبد مناف- هم سادة قريش لأنهم أصلحوا حال فقراء القبيلة، فأشركوهم في تجارة أغنيائها، وأنهم نظموا تلك التجارة وطوّروها.يقول عبد الله:[3]

---

[1] المصدر السابق ١/ ١٦١. والغمر الكثير.

[2] تاريخ الطبري ٢/ ٢٥٣. وابن بيض : رجل موسر من قوم عاد، نزل به قوم فنحر لهم جزوراً سدّت طريقا كانت تسلك إليه في واد. وقيل عنه غير ذلك. والشيزى: خشب أسود تتخذ منه القصاع. والحائر: المكان المطمئن يجتمع فيه الماء، فيتحير ولا يخرج. وفي البيت الأخير إقواء.

[3] الروض الأنف ٢/ ٨٤. والأبيات متنازعة بين ابن الزبعرى ومطرود بن كعب الخزاعي (انظر تاريخ الطبري ٢/ ٢٥١-٢٥٢). وضعف المرزباني نسبتها إلى مطرود (معجم الشعراء ص ٢٨٣) والأبيات بغير عزو في الأضداد للأنباري ص ٧٨. والرائش: اسم فاعل من راش السهم، ألصق عليه الريش، وراش فلاناً: أصلح حاله. وعمرو : هو هاشم بن عبد مناف.

كـــانت قريـــشٌ بَيْضَـــةً فتفقَّـــأَتْ … فـــالمحّ خالِصُـــهُ لعبـــد منـــافِ

الخـــالطينَ فقـــيرَهمْ بغنيِّهـــمْ … والظـــاعنينَ لِرْحلـــة الأصيـــافِ

والرائشـــين وليـــس يوجـــد رائـــشٌ … والقـــائلين هَلُـــمّ للأضيـــافِ

عمرو العُلا هَشَـمَ الثريد لقومِـهِ … قـــوم بمَكّـــةَ مُسْـــنِتينَ عِجَـــافِ

ومن الظاهر أن المديح بتنظيم أمور التجارة، وبإشراك فقراء القبيلة فيهـا مـن السمات الخاصة بشعر قريش الجاهلي، وأنه انعكاس فـي لحياة قريش الاقتصادية والاجتماعية. ويؤكد هذه السمة قول عبد الله بن الزبعرى يمدح بني عبد مناف في رواية البصري:[1]

ياأيّهـا الرجـلُ المحـولُ رَحْلَـهُ … هَـلاّ نزلـتَ بـآل عبـد منـافِ

الآخـذونَ العهـد مـن آفاقهـا … والراحلـونَ برحلـةِ الإيـلافِ

فقد مدحهم بأخذ الإيلاف لقريش ثم أتبع ذلك بمديح هاشم بن عبد مناف، الذي نظم رحلتي الشتاء والصيف:

وهو الذي سَـنَّ الرحيلَ لقومِـهِ … رحَـلَ الشـتاء ورحلـةَ الأصيافِ

واتجه شعراء قريش بالمديح إلى القائمين بأعباء مناقب القبيلة. ومن ذلك قـول حذيفة بن غانم العدويّ يمدح بني قصي بن كلاب بامتلاك الآبار التي يشـرب منهـا الحجاج، وغيرهم في قوله:[2]

بَنوهـا ديـاراً جَمَّـةً وطَـوَوْا بهـا … بئـاراً تَسُحُ المـاءَ مـن ثَبَـجِ البَحْـر

لكي يَشْرَبَ الحجـاجُ منهـا وغيرُهمْ … إذا ابتَدَرُوهـا صُبْـحَ تابعـةِ النحْـر

وكان السكن قرب الكعبة من مظـاهر التباهي في قريـش، ويظهـر ذلـك في قول ضرار بن الخطاب يمدح ابني الحارث بن أسد:[3]

لهاشـم وزهـير فَـرْعُ مَكْرُمَـةٍ … بحيثُ لاحَتْ نُجـومُ الفَرْغ والأَسَـدِ

مجاورُ البيـتِ ذي الأركـان بَيْتُهُمـا … ما دونَـه في جـوار البيـتِ مـن أَحَـدِ

---

(1) الحماسة البصرية ١/ ١٥٥.

(2) سيرة ابن هشام ١/ ١٦٢. وطوروا بها: من طوى الركية: أي عرشها بالحجارة والآجر. والثبج: وسط كلّ شيء.

(3) جمهرة نسب قريش ١/٤٤١. والبيتان بغير عزو في نسب قريش ص ٢٢. وفرع مكرمة: مكرمة لا تنال، لأن فرع كلّ شيء أعلاه. ونجوم الفرغ: كوكبان نيران في برج الدلو.

فالشاعر يمدح هاشما وزهيراً الأسديين بسكنهما المجاور للكعبة، ويعدّ ذلك الجوار مفخرة عظيمة، ومكرمة لا تنال. وكانت دارهما تفيء عليها الكعبة في الغدوات، وتفيء هي على الكعبة في العشيّ.

٢- قيمة العصبية القبلية

إن النسب هو أساس العصبية القبلية. ولكن الشعراء لم يهتموا به كثيراً في مدائحهم، وذلك لأن مديح الإنسان بالموروث يغمز قناته أحياناً، ويُشعر بأنه يحيا على أمجاد آبائه وأجداده. وقد مرّ بنا أن استقراء د. وهب رومية لقيم المديح الجاهلي أوصله إلى وضع قيمة النسب في المرتبة الأخيرة من تلك القيم. ولكن خصوصية الحياة القرشية أعطت النسب أهمية كبيرة، فقلة أيام قريش لم تمنح رجال القبيلة المناخ الملائم لإظهار بطولتهم، ويضاف إلى ذلك ميل شعراء قريش إلى الواقعية، وتجنب المبالغة، وأن مديحهم لم يتجاوز دائرة قريش. ولذلك لم يمل الشاعر القرشي إلى إظهار قيمة البطولة في ممدوحيه لعدم شهرتهم بها. وأما عراقة النسب فهي متوافرة في قريش، وبه مدح رجالها. ومن ذلك قول حذيفة بن غانم العدوي يمدح أبا لهب:[1]

وأنت ابن لُبْنَى من قُصَيٍّ إذا انتَمْوا ... بحيثُ انتهى قَصْدُ الفؤادِ من الصَّدْرْ

وأمُّكَ سرٌّ من خزاعةَ جَوْهَرٌ ... إذا حَصَّلَ الأنسابَ يوماً ذوو الخُبْرْ

إلى سَبَأَ الأبطالِ تَنْمِي وَتَنْتَمِي ... فَأكْرِمْ بها منسوبةً في ذرا الزُّهْرْ

فحذيفة يمدح أبا لهب بعراقة النسب من جهتي الأب والأم. ومدح عبد الله بن الزبعرى بني وهب بن حذيفة بن جمح بنسبهم الخالص الذي لا تشوبه شائبة وذلك في قوله:[2]

نِعْمَ الشبابُ شَبَابُهُمْ وكهولهمْ ... صُيَّابَةٌ ليسوا من الجُهَّالِ

وشبه حذيفة بن غانم أبناء عبد المطلب بأبناء الملوك حيث مدحهم بقوله:[3]

بَنُوهُ سَرَاةٌ كَهْلُهُمْ وشَبَابُهمْ ... تَفَلَّقُ عنهم بيضةُ الطائر الصَّقْرِ

---

[1] سيرة ابن هشام ١ / ١٦٢. وابن لبنى: هو أبو لهب. وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية. وسرّ: خالصة النسب.

[2] جمهرة نسب قريش- مخطوط ص ١١٠/ ب. والصيابة: أصل القوم، والخالص من كل شيء.

[3] سيرة ابن هشام ١/ ١٦١. لاتبور ولا تحري: لاتهلك ولا تنقض.

كُهُولُهُمُ خيرُ الكهــول ونَسْــلهمْ كَنَسْــل الملــوكِ لا تَبور ولا تَحْــري

والمديح السابق يربط بين السيادة والنسب. ومثل ذلك تشبيه الرجال الذين نقضوا صحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم بالمقاولة، وذلك في قول أبي طالب:(1)

جزى ا لله رهطاً بالحَجُون تَتَابعوا على مـلأ يهـدي لِحَـزْم و يُرْشِـدُ

قُعـوداً لدى خطـم الحَجون كأنهمْ مَقَاولـةٌ بـلْ هـمْ أعُــز وأمجــدُ

اشتهرت قريش بإيثار السلام، ولكن تاريخها لم يخل من الحروب دفاعاً عن كرامة القبيلة ومصالحها. وأبرز حروب قريش في الجاهلية يوم عكاظ، وكان لثبات بني المغيرة المخزوميين أهمية في انتصار قريش يوم عكاظ، وفيهم يقول عبد ا لله بن الزبعرى السهمي:(2)

أَلا لِلّـــهِ قَـــوْمٌ وَ لَـــدتْ أُخْـــتُ بـــني سَـــهْم

هشـــامٌ وأبـــو عَبْـــدِ مَنَـــافٍ مِـــدْرَهُ الخَصْـــم

وذو الرمحـــين أشـــباكَ مِـــنَ القـــوّةِ والحـــزم

فهـــذان يَـــذودان وذا مـــن كَثَـــبِ يَرْمـــي

وإنْ أَحْلِـــفْ- وبيـــت الـ لَـــهِ-لا أحلـــفْ علـــى إثـــم

لمـــا إنْ إخـــوةٌ بـــينَ دروبِ الـــرّوم والـــرّدْم

بـــأزكى مـــنْ بـــني رَيْـــطَ ةَ أو أَوْزَنَ في حِلْـــم

هُـــمْ يـــومَ عكـــاظِ مَـــ نَعُـــوا النّـــاسَ مـــن الهَـــزْم

فالأبيات تظهر الإعجاب بشجاعة بني المغيرة الذين مكّنوا قريشاً من تحقيق النصر على أعدائها.

---

(1) المصدر السابق ٢/ ٢٠. والحجون: جبل بأعلى مكة، وعنده مدافن أهلها. وخطم الحجون: ما يبرز من مقدمته. فالخطم من كل طائر منقاره.

(2) طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٠- ٢٠١ وانظر حذف من نسب قريش ص ٦٥- ٦٦، ونسب قريش ص ٣٠٠، وأنساب الأشراف ١/ ٤٣، والاشتقاق ص ٩٨-٩٩، والعقد الفريد ٥/ ٢٥٧- ٢٥٨، والنوادر للقالي ص ١٩٦- ١٩٧، وذكر في الأغاني(١/ ٦٣) أن الأبيات إسلامية مصنوعة! وريطة: هي ابنة هشام السهمية. وأبو مناف: هشام بن المغيرة المخزومي. وذو الرمحين: أبو ربيعة بن المغيرة، وأشباك: كفاك.

٣ – قيمة القوة والبطولة

ثمة مدائح قيلت في مناسبات لا صلة لها بحروب قريش، وتلك المدائح تُعلي شأن القوة والبطولة،ومنها قول أبي طالب يمدح الرهط الذين نقضوا صحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم:[1]

أعــان عليهـا كــلُّ صَقْــرٍ كأنَّـــهُ ‏ ‏ ‏ -إذا ما مشى في رَفْرَفِ الدّرعِ- أَحْرَدُ

جَـريٌّ علـى جُلَّـى الخطـوبِ كأنَّــهُ ‏ ‏ ‏ شِـهابٌ بكَفّـي قـابس يَتَوَقَّــدُ

مـن الأكرمـين مـن لـؤيّ بـن غـالبٍ ‏ ‏ ‏ إذا سِـيمَ خَسْـفاً وجهُـهُ يَـتَرَبَّدُ

طويـلُ النّجـادِ خارجٌ نصفُ ساقِهِ ‏ ‏ ‏ على وجهه يُسْقَى الغمـامُ ويُسْعَدُ

فالممدوحون أبطال يلبسون الدروع السابغة، ويحملون عدة الحرب، متثاقلين في مشيتهم، وجوههم تتربد غضبا إذا سيموا الذل، وهيئتهم تدل على استعدادهم لخوض غمار الحروب. ومن تلك المدائح قول الخطاب بن نفيل في بني سهم:[2]

رجـالٌ مـن بني سَـهْمِ بـن عمـروٍ ‏ ‏ ‏ إلى أبيـاتهمْ يـأوي الطَّريـدُ

جحاجحـةٌ شـياظمةٌ كـرامٌ ‏ ‏ ‏ مَراجحـةٌ إذا قُـرِعَ الحديـدُ

فكيـف أخـافَ أو أخْشَـى وعيـداً ‏ ‏ ‏ ونصرهـمُ إذا أَدْعُـو عَتيـدُ

٤ – القيمة الدينية

كان اعتقـاد المشركين بآلهتهم سطحيا، وهذا من أسباب افتقار الشعر الجاهلي إلى الاهتمام بالقيمة الدينية.وقد مدح بعض المشركين الرسول، وأبرزوا في مديحهم له القيمة الدينية، ومن ذلك قول أبي طالب يمدح الرسول:[3]

حليمٌ رشـيدٌ عـادلٌ غـيرُ طـائشٍ ‏ ‏ ‏ يُوالِـي إلهـاً ليـسَ عنـهُ بغـافلِ

فَأيّـدَهُ ربُّ العبـادِ بنصـرهِ ‏ ‏ ‏ وأظهـرَ دينـاً حَقُّـهُ غيرُ ناصِلِ

فالرسول يوالي الله، والله يؤيده وينصره.

وفي غزوة بدر أسر المسلمون أباعزّة الجمحي، فأطلق الرسول سراحه مَنّاً

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٠. والأحرد: بطيء المشي لثقل ما عليه من لباس الحرب.

(٢) أخبار مكة ٢/ ٢١١. والجحاجحة: جمع جحجاح، وهو السيد الكريم. والشياظمة: جمع شيظم، وهو الفتى من الناس.

(٣) الخزانة ٢/ ٧٣-٧٤. وغير ناصل: غير زائل.

فقال أبو عزة وهو مشرك:[1]

ألا أبلغا عنّي النبيَّ محمداً	بأنّكَ حقٌّ والمليكُ حميدُ
وأنت امرؤٌ تدعو إلى الرشدِ والتقى	عليكَ من الله الكريم شهيد
ولكنْ إذا ذُكّرْتُ بدراً وأهلَها	تأوّبَ مابي حسرة وتعودُ

فالشاعر يُقرّ بنبوة محمد، ويظهر إعجابه بدعوة الرسول الناس إلى الرشد والتقى، ولكنّ تيار إعجاب الشاعر يتوقف حين يصطدم بذكرياته عن قتلى قريش في بدر. إن المديح الجاهلي يفتقر إلى المعاني الدينية التي لمسناها في شعر أبي طالب و أبي عزّة.[2] وتلك المعاني فرضت نفسها على كل مادح للرسول، فهي صفات ملازمة له، ومختصة به.

* * *

إن لمديح قريش الجاهلي سمات خاصة، فقيمه تختلف عن القيم العامة للمديح الجاهلي من جهة ترتيب الأهمية، وتضمنه معاني جزئية وثيقة الصلة بحياة قريش كالسقاية والرفادة وتنظيم التجارة ومساعدة الفقراء بإشراكهم في تجارة الأغنياء، وقد ظهرت فيه القيمة الدينية، وضعفت فيه قيمة حسن الجوار، وهي القيمة الأولى في شعر المديح الجاهلي. ومديح قريش الجاهلي مقصور على عظمائها، عدا أبيات قليلة ويرجع ذلك إلى اعتداد القرشيين بأنفسهم اعتداداً جعلهم يترفعون عن مديح أحدسوى أبناء قبيلتهم، كما يرجع إلى أن شعراء قريش لم يكونوا محترفين ولا متكسبين بأشعارهم بل كانوا يعبرون بمدائحهم عن إعجاب حقيقي بالممدوح أو عن إقرار بفضله أو عن كلا الأمرين معاً، ولذلك خلا مديح قريش من التذلل والاستعطاف. ولا عجب، فالمادح والممدوح من أحرار القبيلة، وهما متساويان في المنزلة، ولذا غدا المديح (الشكر) مقروناً بالأنفة، والرغبة في ردّ الجميل إلى الممدوح، ونرى ذلك واضحاً في قول عبد الله بن الزبعرى السهمي لممدوحه العاص بن وائل:

فإمّا أُصِبْ يوماً من الدّهر نُصْرةً	أُثِبْكَ وإني -يا بن سَلْمَى- لَصَادِقُ
وإلاّ يكُنْ إلا لساني فإنني	بحُسنِ الذي أسْلَفْتَ عندي لناطقُ

---

[1] طبقات فحول الشعراء ص ٢١٢.

[2] تنسب إلى الأعشى (ديوان الأعشى الكبير ص١٧ وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٥) قصيدة دالية مدح فيها الرسول.

شعر الهجاء

١- القيمة المادية

كان المال عاملاً رئيساً في تحقيق السيادة عند قريش، وكانت بعض وسائل امتلاك الأموال مذمومة كتربية الماعز، ومن الشعر الدال على ذلك قول هبّار بن الأسود يهجو تويت بن حبيب الأسدي:[١]

تُويتُ أَلَمْ تعلمْ-وعِلْمُك ضائرٌ- بأنكَ عبدٌ للشام خدينُ

أَترجُو مُسَاماتي بأتياسِكَ التي جَعَلْتُ أراها دون كلّ قرين

ويشبه ذلك قول عثمان بن الحويرث يهجو أحد أبناء قبيلته:[٢]

فكيفَ تَرومُني وتُريغُ شَتْمي بعُشْبِ تيوسِكَ الحُمْرِ القواني

ومن المعيب في قريش أن يعمل الإنسان في مجالات الحرف والمهن، وقد عُيّر بذلك عمرو بن العاص، لأن والده اشتغل بالجزارة، وفي ذلك يقول عمارة بن الوليد المخزومي مخاطبا عمراً:[٣]

وكان أبوكَ جزاراً وكانت له فَأسٌ وقِدْرٌ من حديدِ

وهجا عبد الله بن الزبعرى حليفا لقريش لأنه تطاول على سهيل بن عمرو العامري القرشي، وكان في هجاءه استغراب وتعجب من تطاول الحليف، وهو ابن خداد،على سهيل. يقول ابن الزبعرى:[٤]

فإن العبدَ مثلَكَ لا يُناوي سهيلاً ضَلَّ سَعْيُكَ من تُعادي

فاقصِرْ يا بنَ قَيْنِ السُّوءِ عنه وعدِّ عنِ المقالةِ في البلادِ

أصاب أغنياء قريش بالتجارة أموالاً عظيمة، أقدرتهم على العيش المترف، وعلى شراء الأشياء الثمينة. وكان الإعراض عن ذلك مجالاً للهجاء، فقد روي أن عمارة بن الوليد المخزومي امتنع عن شراء حلّة بمائة من الإبل، فاشتراها عمرو بن

---

(١) معجم الشعراء ص ٤٧٣. والخدين: الصديق. وفي الشعر إقواء.

(٢) المصدر السابق ص ٨٨.

(٣) الأغاني ١٨/ ١٢٥.

(٤) سيرة ابن هشام ٣/ ٢٠٩.

العاص، وقال مخاطبا عمارة:(١)

عليكَ بجيز رأس أبيكَ إنّا ... كفيناكَ المسهَّمة الرِّقاقا

زَوَوْها عنكمُ وغَلَتْ عليكم ... وأعطينا بها مائةً حِقاقا

وقُلتمْ لا نُطيقُ ثياب سَهْمٍ ... وكلٌّ سوف يَلْبَسُ ما أطاقا

وسخط أبناء فقراء قريش على أغنيائها لأنهم انشغلوا بالتجارة وجمع الأموال عن تفقد أحوال أبناء القبيلة وعن السعي إلى إدراك المكارم، وذكر ابن سلام الجمحي في ذلك أن الناس أصبحوا يوماً وعلى دار الندوة مكتوب:(٢)

ألْهَى قُصَيّاً عن المجد الأساطيرُ ... ورشوةٌ مثلَ ما تُرْشى السَّفاسيرُ

وأَكْلُها اللحمَ بَحْتاً لا خليطَ له ... وقولها: رحلَتْ عِيرٌ، أتَتْ عِيرُ

فأنكر الناس ذلك، وقالوا: ما قالها إلا ابن الزبعرى. وفي البيتين إحساس معادٍ لبني قصي الذين انشغلوا بالتجارة والكسب والطعام المترف والأحاديث الأسطورية عن طلب المجد، وذلك الإحساس يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء الذين لا همّ لهم سوى تحقيق المكاسب تلو المكاسب. ومن الملفت أن قريشا أسرعت في نسبة البيتين إلى ابن الزبعرى، وهذا يعني أنه كان يقول أشعاراً مشابهة، ولكنها لم تصل إلينا.

٢ – قيمة العصبية القبلية

من المعيب أن يُطعن الإنسان في نسبه، ولا سيما في المجتمع القبلي الجاهلي. ومن القرشيين الذين غُمز نسبهم عمرو بنُ العاص، فقد روي أن أمّه كانت أمة من أصحاب الرايات اللواتي يأتيهن الرجال في مكة، وأنها ولدت عمراً فادّعاه خمسة رجال، فسئلت أمه عن أمرهم، فقالت: كلّهم أتاني، فانظروا أشبههم به، فألحقوه به، فغلب عليه شبه العاص بن وائل، فألحق به، ونسب إليه.(٣) وقد هجاه بذلك عثمان بن الحويرث الأسدي حيث يقول في عمرو:(٤)

---

(١) الأغاني ١٨/ ١٢٤. والمسهمة: الثياب التي صور فيها السهام. وزووها: صرفوها. والحقاق: جمع حِقّ، وهو البعير الذي بلغ أن يركب ويحمل عليه.

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ١٩٦– ١٩٧. والأساطير: الأباطيل. والسفاسير: السماسرة.

(٣) العقد الفريد ٢/ ١٢٠.

(٤) البيان والتبين ٣/ ٢٥٩– ٢٦٠. والصراح: الخالص النسب.

لـه أبــوان فَهْــو يُدعَــى إليهمــا ... وشــرُّ العبــادِ مَــنْ لــهُ أَبــوان
وقــد حَكّمــا فيــه لِتصــدُقَ أُمُّــهُ ... وكــان لهــا علــمٌ بــه ببَيــان
فقالتْ: صُراحٌ. وهي تعلمُ غيره ... ولكنّهــا تهــذي بغير لِسَــان

كما هجاه بذلك عمارة بن الوليد المخزومي في قوله:[1]

كَم مثل أمّـكَ قـد وَهبـتُ فَلَـمْ ... منهـا أُثَــبْ سَـهْماً ولا زَنْــدَا
حُبْلـى، فإن تُؤنـثْ تكـنْ أمــةً ... لكعــاءَ أو تُذكِـرْ يكـنْ عَبْــدَا

وقال عمارة في ذلك أيضاً:[2]

ألا يـا عمـرُو هـلْ لـكَ في قريـش ... أبٌ مثــلُ المغــيرةِ والوليــدِ
وَجــدٌ مثــلُ عبــد الله يَنْمِــي ... إلى عمــرو بــن مخــزوم بعُــودِ
وإنّــكَ من بني سَــهْم بـن عمــرو ... مَكانُ الرِّدْفِ مـن عَجُـز القَعـودِ

فالشاعر يوازن بين الصريح ونسب عمرو المشكوك فيه، وهذه الموازنة أنكى في الهجاء، وفي إظهار ضعة النسب.

وممن طُعن في نسبه الوليد بن المغيرة المخزومي، فقد قيل: إنه عبد روميّ أُعجب به المغيرة، فألحقه بنسبه،[3] فهجاه بذلك عثمان بن الحويرث الأسديّ، فقال له:[4]

وإني امـرؤٌ مـن جِـذْمِ كعـبٍ مقـابَلٌ ... وأنت ضعيـفُ الجَـدِّ ألصـفُ مُلْصَـقُ
من القوم نَـذْلٌ ليــسَ يعلـمُ عِلْمَـهُ ... مـن النـاس إلا العالمُ المتعمِّــقُ

فالشاعر من صميم بني كعب بن لؤي، وأما الوليد فنسبه واهٍ لايعرف كنهه إلا العالم، المدرك خفايا الأنساب.

ومن قيم العصبية أن يراعي الإنسان حرمة أقربائه، وقد ثارت مشاعر عمرو ابن العاص حين حاول عمارة بن الوليد المخزومي أن يغوي زوج عمرو، فقال له

---

(1) معجم الشعراء ص ٧٧. والزند: العود الأعلى الذي يُقدح به النار. واللكعاء: العبدة الذليلة النفس.

(2) الأغاني ١٨/ ١٢٥.

(3) شرح ديوان حسان ص ٤٥٧.

(4) معجم الشعراء ص ٨٨. ومقابل: ظاهر ومعاين. والألصف: الذي يبرق ويتلألأ. كناية عن بياض البشرة وتشربها بالحمرة.

عمرو معيبا عليه تلك الفعلة الشنعاء:[١]

تَعَلَّمْ-عُمارَ- أنّ من شرّ شيمةٍ لمثلك أنْ يُدعَى ابن عمٍّ له ابْنَمَا
وإنْ كُنْتَ ذا بُرْدَيْن أحوى مُرَجَّلاً فلستَ براعٍ لابن عمّكَ مَحْرَمَا
إذا المرء لم يتركْ طعاماً يُحبُّهُ ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيثُ يَمَّمَا
قَضَى وَطَراً منه يسيراً وأصبحتْ إذا ذكرتْ أمثالُها تملأُ الفَمَا

وبذلك يكون الشك في النسب، وعدم مراعاة حرمة القرابة من دواعي الهجاء في شعر قريش.

٣ - قيمة القوة والبطولة:

في مقابل امتداح البطولة والقوة ذمّ شعراء قريش الجبن والضعف، فقد هجا أبو سفيان بن حرب سهيل بن عمرو العامري بأبيات تعجّب فيها من محاولة سهيل السّمو إلى المعالي بكرمه ومجالس شرابه فقط، واستبعد إمكانية تحقق السمو لاتصاف سهيل بالجبن حين استعار الحرب. يقول أبو سفيان:[٢]

رأيتُ سهيلاً قد تفاوتَ شأوُهُ وفَرَّطَ في العلياء كلَّ عِنانِ
وأصبحَ يَسْمو للمعالي وإنّهُ لَذو جَفْنةٍ مَغْشِيَّةٍ وقِيانِ
وشَرْبٍ كرام من لؤيّ بن غالبٍ عِرَاض المساعي عُرضة الحَدَثانِ
ولكنه يوماً إذا الحربُ شَمَّرتْ وأبرزَ فيها وجهُ كلِّ حَصانِ
تَطَأْطَأَ فيها ما استطاعَ بنفسه وقَنَّعَ فيها رأسَهُ ودعاني
فأكفيه مالا يُستطاعُ دِفاعُهُ وألقيتُ فيها كَلْكَلِي وجِراني

فالأبيات توهم أن أبا سفيان يمدح سهيلاً بالكرم ومجالس الشراب، ثم بانت حقيقة مشاعر أبي سفيان حين ألصق بسهيل صفة الجبن، وقصر همة سهيل على بذل المال وحضور مجالس الشراب.

وعابت هند بنت عتبة الأموية بعض قومها بالضعف في قولها تخاطبهم:[٣]

أفي السِّلْم أعيارٌ، جَفاءً وغِلْظَةً وفي الحربِ أشباهُ النّساء العوارِكِ

ومن ذلك قول عثمان بن الحويرث الأسدي يهجو رجلاً يدعى ابن

---

[١] الأغاني ٩/ ٥٩. والأحوى: من الحوة، وهي حمرة تضرب إلى السواد، وهي سمرة الشفة أيضاً.

[٢] العقد الفريد ٦/ ٨٨. والحصان: المرأة العفيفة. والجران: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

[٣] سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٧. والأعيار : الحمير. والعوارك: جمع عارك، وهي الحائض.

شهلة:[1]

وإنّـكَ يابـن شـهلةَ أمُّ رئـم ... خفيـف القلـبِ، مجـرور اللسـان

٤- القيمة الدينية

كان أشدّ ما يؤلم قريشا في الجاهلية أن يسلم أحد أبنائها. ولكن ألم هند بنت عتبة كان عظيما يوم بدر، حين دعا أخوها المسلم أبو حذيفة أباه المشرك عتبة بن ربيعة إلى المبارزة، فهجت هند أخاها، ونعتته بصفات معينة، كما وصفته بأنه شرّ الناس في الدين، وذلك في قولها:[2]

الأحـولُ الأثعـلُ المشـؤوم طـائرُهُ ... أبـو حذيفـةَ شـرُّ النـاس في الديـن

أمَاشـكرْتَ أبـاً رَبـاكَ مِنْ صِغَـر ... حَتـى شـببتَ شَـباباً غـيرَ محْجـون

كما هجت هند أيضاً ابنة عمها رملة بنت شيبة بن ربيعة لأنها صبأت، واتبعت دين قوم قتلوا أباها، تقول هند:[3]

لحـى الرحمـنُ صابئـةً بـوَجٍّ ... ومكّـةَ أو بـأطرافِ الحَجُـون

تَديـنُ لعشْـر قَتَلـوا أباهـا ... أَقَتْـلُ أبيـكِ جَـاءَكِ باليقيـن

فهند هجت أخاها وابنة عمها لأنهما تركا ديـن الإسلام، وهـذا التوجـه في الهجاء قد لانجد له شبيها في أشعار القبائل الأخرى.

* * *

لم يتعد هجاء قريش الجاهلي حـدود القبيلـة إلا قليـلاً. وقـد حـاربت قريـش شعر الهجاء، فكانت تنكره، وتعاقب عليه إذا هجا بعضها بعضا، والغاية من ذلـك الحفـاظ علـى وحـدة القبيلـة وعلـى الوضـع القـائم في مكـة، ولا سـيما الوضـع الاقتصادي، ويؤكد ذلك أن قريشا لم تحاول معاقبة شاعر على الهجاء سوى عبد الله بن الزبعرى لأنه تحدث عن فساد الاقتصاد في مكة، وكتب شعرا على جدار دار الندوة هجا فيه بني قصي المنشغلين عن طلـب المجـد بالتجـارة والبـذخ، وكـاد

---

[1] معجم الشعراء ص ٨٨.

[2] الطبقات الكبرى ٣/ ٨٥. والأثعل: المترادف الأسنان. وغير محجون: غير معوج.

[3] نسب قريش ص ١٠٥. ووج : بلد بالطائف.

بسبب ذلك أن يفقد لسانه بالقطع.[1]

وخُورب هجاء قريش من قبل الإسلام، فقد امتنع المسلمون عن رواية شعر قريش في هجاء الإسلام والمسلمين، فضاعت تلك الأشعار، و لم يصل إلينا منها إلا أبيات قليلة، تدل على أن هجاء شعراء قريش للمسلمين كان يحمل طابعاً دينياً أحياناً.[2]

إن شعر الهجاء القرشي في الجاهلية يحمل سمات خاصة نابعة من الواقع القرشي، يتجلى في بروز القيمة المادية، والاستياء من الواقع الاقتصادي، ومن التخلي عن الشرك، ديانة الآباء والأجداد.

-٧-

شعر الغزل

١- الغزل العفيف

اقترن الغزل العفيف بقصص الحب الشائقة، ويغلب عليها وجود الصعوبات التي تعوق أو تمنع لقاء العاشقين. ولدى قريش في الجاهلية قصتان من هذا القبيل: بطل الأولى هشام بن المغيرة المخزومي، وبطل الثانية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق.

رُوي أن هشام بن المغيرة المخزومي طلق زوجه أسماء بنت مخرمة النهشلية ثم تتبعتها نفسه، وقد تزوجها أخوه ربيعة بن المغيرة، فقال مظهراً ألم نفسه لما حدث:[3]

أَلا أصبحتْ أسماءُ حِجْراً مُحَرَّما   وأصبحتُ من أدنى حُمُوَّتِها حَمَا

---

[1] طبقات فحول الشعراء ص ١٩٧.

[2] كان شعراء قريش يهجون الرسول والمسلمين، و لم يصل إلينا من هجاءتهم إلا ندرة. انظر أنساب الأشراف ١/ ٣٥٩، والاستيعاب ص ١٣٢٤ - ١٣٢٥ و ١٤٧٠، والكامل في التارخ ٢/ ٢٥٠.

[3] نسب قريش ص٣١٨. ونسب البيتان في (الأغاني ٩/ ٥٠و٥٤) الى مسافر بن أبي عمرو الأموي والى شاعر آخر. والمصعب الزبيري أعلم بقريش. والحجر: الحرام.

وأصبحتُ كالمقمور جَفْنَ سلاحِهِ ... يُقَلِّبُ بالكَفَّين قَوْساً وأسْهُمَا

وكانت أسماء قبل زواجها من أخيه قد واعدته أن تلاقيه في موسم الحج، فتعذر اللقاء بعد زواجها، فقال:[1]

تُحَدِّثنا أسماءُ أنْ سوفَ نَلْتقي ... أحاديثَ طَسْم، إنّما أنتَ حالِمُ

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فأحب ليلى بنت الجودي الغسانية، وذلك حين دخل دمشق في الجاهلية، فشاهدها، وجواريها حولها يفدينها، ويحلفن برأسها، فوقعت في قلبه، ثم رجع الى مكة، وأخذ يهذي بها، وينشد فيها الأشعار، ومن ذلك قوله:[2]

تذكَّرَ ليلى والسَّمَاوةُ دونَها ... ومالابنةِ الجوديّ ليلَى ومالِيَا؟

وأنّى تُعاطِي ذِكْرَها حارثيةً ... تُدَمِّنُ بُصْرَى أو تَحُلّ الجوابيا؟

وأنّى تلاقيها؟! بلى ولعلها ... إذا الناسُ حَجُّوا قابلاً أن توافيا

فهو يتذكر ليلى في منازل قومها البعيدة، ويتساءل كيف تعلق قلبه بها ثم راح يعلل نفسه بالآمال، ويتمنى أن تحج! ولعلها - إن حجت - أن تنيله مراده.

وقد لامه بعض الناس لوقوعه في غرامها، فأجابهم قائلاً:[3]

ولقد لامُوا، فقلتُ: دَعُوني ... إنَّ مَنْ تَنْهونَ عَنْهُ حبيب

أيها العائبُ عندي هواها ... أنت تفدي من أراكَ تُعيب

ثم دب الوهن في جسم عبد الرحمن، فقال:

إنّما أبلَى عِظامي وجسمي ... حبُّها، والحبُّ شيءٌ عجيب

والظاهر أن ابنة الجودي كانت تجهل حب عبد الرحمن لها، ولكن أحداثا عظيمة يسرت لعبد الرحمن اللقاء، فقد أسلم وخرج مع جيوش الفتح الى بلاد الشام، فوقعت ابنة الجودي ضمن الغنائم، فنفلها الخليفة عمر بن الخطاب عبد الرحمن بن أبي بكر.[4]

---

(1) الأغاني ٩/ ٥٢.

(2) نسب قريش ص ٢٧٦. والسماوة: بادية. وتدمن: تسكن. والجوابي: الأحواض التي يُجبى فيها الماء للإبل. والمفرد: جابية. وبصرى والجابية: من منازل الغساسنة قرب دمشق.

(3) الأغاني ١/ ٥٠.

(4) انظر المصدر السابق ١٧/ ٣٠٨، والإصابة ٢/ ٤٠٧ - ٤٠٨.

إن الأشعار المروية في القصتين تظهر عذاب المحب ومعاناته من ألم الفراق، وشوقه الى لقاء الحبيبة، وتعففه.

٢ – الغزل الماجن

يتعشق الشاعر الماجن مواطن اللذة في المرأة،ويصف مفاتن جسمها، ويذكر أيام لهوه معها. ويقترن هذا الغزل بالمغامرات، ومواجهة المصاعب والمخاطر في سبيل المتعة. وتجري المغامرات تحت جنح الظلام، حين تنام أعين الرقباء، ومن تلك المغامرات الماجنة مانجده في قول ورقة بن نوفل:[1]

ولقد دَخلتُ البيتَ يُخشَى أهلُهُ ... بعدَ الهُدُوِّ وبعدما سقط الندَى
فوجدتُ فيه طَفْلَةً قد زُيِّنَتْ ... بالحَلْي تحسَبُهُ بها جَمْرَ الغَضَا
فَنَعِمْتُ بالاً إذْ أتيتُ فِرَاشَهَا ... وسَقَطْتُ منها حينَ جئْتُ على هَوَى
فبتلكَ لذّاتُ الشبابِ قَضَيْتُها ... عنّي فسائِلْ بَعْضَهُمْ ماذا قَضَى

وقدم رجل خثعمي الى مكة ومعه ابنته، فانتزعها منه نبيه بن الحجاج السهمي، فلجأ الخثعمي الى رجال حلف الفضول، فأعادوا إليه ابنته، فصعب على نبيه فقدها، وقد بات معها ثلاث ليال، بذي المجاز، يتلوى بها كما تتلوى الحية في الأجمة. وفي ذلك يقول نبيه:[2]

راحَ صحبي ولم أُحَيِّ القَتُولا ... لم أُوَدِّعْهُمْ وَداعاً جميلا
إذْ أجدَّ الفُضُولُ أنْ يمنَعُوها ... قد أراني ولا أخافُ الفُضُولا
ومَبيتاً بذي المجاز ثلاثاً ... ومتى كان حجُّنا تحليلا
أتَلَوّى بها كما تتلوّى ... حيّةُ الماء بالأباء طويلا

وظلت نفس نبيه تتعلق تلك المرأة، ولكن حلف الفضول كبح جماح نفسه، ومنعه من اللحاق بها، ولولا ذلك لانطلق الى منازلها في ظلمة الليل ليروي ظمأه من ريقها، وليريح جسده فيها. يقول نبيه:[3]

أخذتْ حُشَاشَةَ قَلْبِهِ ... ونَأَتْ فكيفَ بنائِهَا

---

[1] جمهرة نسب قريش ١ / ٤٠٩. وبعد الهدو : بعد منصف الليل. وبعدما سقط الندى: في أقصى الليل. والطفلة: الرخصة الناعمة. والغضا: من شجر الصحراء، وهو أحسن الحطب ناراً.

[2] الأغاني ١٧/ ٢٨٤– ٢٨٥. والأباء: أجمة الحلفاء والقصب.

[3] المصدر السابق ١٧/ ٢٨٥ –٢٨٦. وبنائها : ببعدها. والخلة :الخليلة. وعدوائها: بعدها.

خَلّـــتْ تِهامـــةَ خُلّـــةٌ ... مـــن بَيْتِهـــا وَوطائهـــا
لـــولا الفضـــولُ وأنّـــهُ ... لا أمـــنَ مِـــن عُدوائهـــا
لدنـــوتُ مـــن أبياتهـــا ... ولَطفـــتُ حـــولَ خِبائهـــا
وجئتهـــا أمشـــي بـــلا ... هـــادٍ لـــدى ظَلْمائِهـــا
فشـــربتُ فضالـــةَ ريقهـــا ... ولَبـــت في أحشـــائهـــا

ولأبي سفيان بن حرب أبيات يتشوق فيها الى جمال مطلقته، وطيبها، وارتفاع نحرها حين سره بها.[1]

٣ - مقدمات القصائد

إن القصائد المطولة في شعر قريش الجاهلي قليلة، وقد ندر وجود المقدمات الغزلية في تلك القصائد. ومن ذلك قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي في مستهل إحدى قصائده:[2]

مابـالُ هـمٌ عميـدٍ بـاتَ يَطْرُقُـني ... بـالوُدّ مـن هنـدَ إذْ تعـدو عَواديهـا
بـاتتْ تُعـاتبني هنـدٌ وتَعْذُلـني ... والحـرب قـد شُغلتْ عنّي مواليهـا
مَهلاً فـلا تعذليـني إنّ مـن خُلُقـي ... ماقد علمتِ وما إنْ لستُ أُخفيها
مسـاعفٌ لبني كعبٍ بما كَلِفُـوا ... حَمّـالُ عِـبْءٍ وأثقـالٍ أعانيهـا

فالشاعر يظهر في الأبيات الهم الموجع الذي ألم به حين عاتبته زوجه هند بنت أبي طالب لانشغاله بالحروب، فهو محتفل بمشاعرها تجاهه، ولكن ذلك لم يحل دون انتقاله الى الفخر عبر البيت الثالث. ومن اللافت أنه ظل يراعي مشاعر زوجه وهو يفتخر، وذلك في قوله (مساعف لبني كعب)،لأن بني هاشم وبني مخزوم يرجعان الى كعب بن لؤي، فهو يشارك بعض رهطها في محاربة المسلمين، وفيهم ذؤابات بني هاشم.

ولهبيرة قصيدة أخرى استهلها بذكر هند أيضا، وفيها يظهر شوقه إليها، وقد بلغه أنها أسلمت، وهو مقيم في نجران، متمسك بالشرك بعد فتح مكة.ومطلع تلك

---

(١) انظر عيون الأخبار٤/ ١٠١.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٦٣. والعميد: المؤلم الموجع. وعواديها: شواغلها. ومساعف : مساعد.

القصيدة.[1]

أشاقتْكَ هندٌ أمْ أتاكَ سؤالها كذاكَ النّوى أسبابُها وانفتالها

وقد انتقل هبيرة الى الفخر في البيت الخامس، في قوله :

فإنّي لمنْ قوم إذا جَدَّ جدّهُمْ على أيّ حال أصبحَ اليومَ حالُها

ومن القصائد التي استهلت بذكر المرأة قصيدة لضرار بن الخطاب مطلعها:[2]

ومُشْفِقَةٍ تظنُّ بنا الظنونا وقد قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طَحُونَا

فالشاعر ذكر المرأة في صدر المطلع ثم انتقل الى الحماسة في عجزه، فالقارىء لايكاد يحس بوجود المرأة، وذلك لسرعة الانتقال من ذكرها الى الحماسة والفخر، وربما تعطيه تلك السرعة قصب السبق في هذا المجال.

* * * * *

لقد كان أغلب غزل قريش مقطعات، اختصت به، ومنه غزل عفيف يظهر ألم الفراق، وصدق المشاعر، وعفة الوصف، وهو من نماذج بدايات الغزل العذري الذي ازدهر في العصر الأموي، ومنه غزل ماجن،وفيه تصوير لمغامرات لاهية، وتعشق لمواطن اللذة في المرأة. وأمّا ذكر المرأة في مقدمات القصائد فنادر، وفي الحديث القادم عن الخصائص الفنية لشعر قريش الجاهلي توضيح لذلك.

-٨-

موضوعات أخرى

١- الأسرة القرشية

ثمّة أشعار قرشية جاهلية، تصور جوانب من حياة الأسرة القرشية، كالزواج والطلاق، وتربية الأطفال.

أ – الزواج والطلاق: من الجوانب المضيئة في حياة قريش الاجتماعية حق المرأة في الزواج دون إكراه. ومن الأخبار الدالة على ذلك أن سهيل بن عمرو العامري وأبا

---

[1] المصدر السابق ٤/ ٤٦ – ٤٧. وانفتالها: تقلبها.

[2] شعر ضرار بن الخطاب ص ٥٧. والعرندسة : الناقة الشديدة القوية الطويلة القامة. يريد: كتيبة.

سفيان بن حرب الأموي خطبا هند بنت عتبة، فدخل عليها والدها، وأعلمها الأمر، وصفات كل منهما، وترك لها حرية الاختيار، وفي ذلك يقول عتبة لهند:[1]

أتاكِ سهيلٌ وابنُ حربٍ وفيهما ... رضاً لكِ ياهندَ الهنودِ ومَقْنَعُ

وما منهما إلاّ يُعاشُ بفضلِهِ ... وما منهما إلاّ يَضُرُّ ويَنْفَعُ

ومامنهما إلاّ كريمٌ مُرَزَّأٌ ... وما منهما إلاّ أغرُّ سَمَيْدَعُ

فدونكِ فاختاري فأنتِ بصيرةٌ ... ولا تُخدَعي إنّ المخادِعَ يُخدَعُ

وقد اختارت هند أبا سفيان بعد أن استقصت صفات كل منهما في خبر مطول.[2]

ومن مظاهر تكريم المرأة حلم الرجل حين تعاتبه زوجه وتلومه. ونجد مثل هذا الخلق في قول مسافع بن عبد مناف الجمحي.[3]

ألاَ بَكَرتْ عِرْسِي عَلَيَّ تَلُومُني ... كأنّي ولو لمْ أجن فحشاءَ مذنبُ

فلا تجعليني مثلَ من ضلّ سَعْيُهُ ... ومن هو في طول الحياةِ مُعَذّبُ

أعاتبكمْ حتّى المماتِ وَوُدّكم ... مَنُوطٌ لدى الجوزاء أو هو أقربُ

وكان القرشي يؤثر ابنة قبيلته في الزواج، فقد روى صاحب عيون الأخبار أن أبا سفيان بن حرب تزوج امرأة من بنات فارس، يقال لها صعبة، ولكن زوجه القرشية هند بنت عتبة لم تزل به حتى طلق صعبة، فتزوجها رجل من حلفاء قريش فتتبعتها نفس أبي سفيان، وفي ذلك يقول:[4]

إنّا وصعبةَ، فيما ترى، ... بعيدان والودُّ ودٌّ قريبُ

فإلاّ يكنْ نَسَبٌ ثاقبٌ ... فعندَ الفتاة جمالٌ وطيبُ

لها عند سرّي بها نخرَةٌ ... يزولُ بها يَذْبلٌ أو عسيبُ

فيا لقصي ألا فاعجبوا ... فَلِلْوَبْر صار الغزالُ الربيبُ

فصعبة عندها جمال وطيب ومتعة، ولكن زوجها طلقها إكراما للقرشية ذات

---

[1] العقد الفريد ٦/ ٨٦. والمرزأ: الكريم يصاب كثير من خيره. والسميدع: الكريم.

[2] انظر الأمالي ٢/ ١٠٤ - ١٠٥.

[3] حذف من نسب قريش ص ٩٤.

[4] عيون الأخبار ٤/ ١٠١، وقيل: إن صعبة هي ابنة الحضرمي. (الروض الأنف ٥/ ٧٩) ونسب ثاقب: واضح بيّن قريب. ويذبل وعسيب: جبلان بنجد. والوبر: دويبة على قدر السنور.

النسب الثاقب.

وظهر أثر المال في العلاقة بين الزوجين في مقطعتين للشاعر نبيه بن الحجاج السهمي، وقد تحدث في الأولى عن زوجتيه اللتين تهذيان بالباطل عليه، وتطلبان الطلاق لأن ماله قل، فتمنّى أن يكثر ماله،ويتخلص من ديونه،ويملك العبيد والجياد، وذلك حيث يقول:[1]

تلك عِرْسَايَ تنطقان بهُجْر ... وتقولان قَوْلَ زُوْر وهِتْر

تَسْألاني الطلاقَ أن رأتاني ... قلّ مالي قد جئتماني بنُكْر

فَلَعَلّي أنْ يَكْثُرَ المالُ عِنْدي ... ويُخَلَّى من المغارم ظَهْري

ويُرَى أعبدٌ لنا وجيادٌ ... ومناصيفُ من ولائِدَ عَشْر

وأكد نبيه في المقطعة الثانية اهتمام المرأة القرشية بأن يكون زوجها غنيا، وحرصه على اكتساب المال لينال رضا سليمى. يقول نبيه:[2]

قالت سُلَيْمَى يومَ جئتُ أزورُها ... لا أبتغي إلاّ امرأً ذا مال

لا أبتغي إلا امرأً ذا أنْضُر ... كيما أسُدُّ مفاقري وخِلالي

فَلأَحْرِصَنَّ على اكتسابِ مُحَبَّبٍ ... ولأكسبَنْ في عِفَّةٍ وجَمال

وظهر في شعر مشركي قريش الذين عاصروا بعثة الرسول أثر الإسلام على طبيعة العلاقة بين الزوجين حين يسلم أحدهما، ويتمسك الآخر بالشرك، فيقع الانفصال بينهما لذلك. وقد حدث مثل هذا الانفصال بين هبيرة بن أبي وهب المخزومي وزوجه هند بنت أبي طالب، فحين فتح الرسول مكة، هرب هبيرة الى نجران، وبلغه إسلام هند، فقال:[3]

أشاقَتْكَ هندٌ أم أتاكَ سُؤَالُها ... كذاك النّوى أسبابها وانفتالُها

وقد أرَّقتْ في رأس حصن مُمَنّع ... بنجرانَ يَسْري بعدَ ليل خيالُها

....

---

[1] الأغاني ١٧/ ٢٨١ - ٢٨٢. ونسبت قريش الأبيات إلى سعيد بن زيد العدوي (البيان والتبين ١/ ٢٣٥) وإلى ورقة بن نوفل الأسدي (حذف من نسب قريش ص ٥٤ - ٥٥) والهتر :الباطل. والمناصيف: الخدم. والولائد: الصبايا.

[2] جمهرة نسب قريش مخطوط ص ١٨٦/ ب. ومفاقري: وجوه فقري. وخلالي: حاجاتي.

[3] المغازي ص ٨٤٩. والململة: المستديرة.

فإنْ كنتِ قد تابعتِ دينَ مُحَمّدٍ   وَقَطَّعتِ الأرحامَ منك حبالُها
فكوني على أَعْلَى سَحِيق بهَضْبَةٍ   مُلَمْلَمةٍ غبراءَ يَبْسٍ بِلالُها

فالقصيدة تبين ألم هبيرة وأرقه لفراق هند، وبلغ ألمه الذروة حين وضع يده على الحقيقة المروعة، فقد أسلمت هند، وانقطعت العلاقة الزوجية التي تربط بينهما، وأحس بالغضب لأن هند آثرت الإسلام عليه، فدعا عليها بالغربة والتعرض للأخطار.

ب – تربية الأطفال: الأطفال أمل الأسرة، ورسالتها الى المستقبل،ولذلك يسعى الأهل الى أن يتشرب الأبناء القيم العليا في مجتمعهم. وفي شعر قريش نصوص تعبر عن تطلعات الأهل، ورغباتهم في نشأة الأطفال ومستقبلهم. ومن ذلك أن رسول الله دخل، وهو صبي على عمه الزبير بن عبد المطلب، فأجلسه الزبير في حجره، ثم قال له مداعبا:[1]

مُحَمّدُ بنُ عَبْدَم   عِشْتَ بعَيش أَنْعَم
ودولةٍ ومَغْنَم   في فرع عزٌّ أَسْنَم
مُكَرَّم مُعَظَّم   دامَ سجيسَ الأزْلَم

فالزبير يرجو أن ينعم ابن أخيه في حياته، وأن يعيش سيدا مكرما. ودخل على الزبير أخوه العباس بن عبد المطلب، وهو غلام، فأجلسه العباس في حجره، وداعبه بقوله:[2]

إنّ أخي عبّاسَ عفٌّ ذو كَرَمْ   فيه عن العوراء – إنْ قيلتْ – صَمَمْ
يرتاحُ للمجدِ ويُوفي بالذِّمَمْ   ويَنْحَرُ الكوماءَ في اليوم الشَّبِمْ
أكرِمْ بأعراقِكَ منْ خالٍ وعمّ

فهو يأمل أن يشب أخوه على العفة والكرم والوفاء. وأجلس الزبير أخاه ضرار بن عبد المطلب في حجره، وهو يأمل أن يتحلى ضرار بالكرم والشجاعة، وفي ذلك يقول الزبير:[3]

---

(1) الأمالي ٢/ ١١٥. وابن عبدمٍ : أراد ابن عبد المطلب. وقيل: أراد ابن عبد، وزاد الميم كما تزاد في ابن، فيقال : ابنم (انظر الروض الأنف ١/ ٤٣٧). وسجيس الأزلم: آخر الدهر.

(2) الأمالي ٢/ ١١٥، والكوماء: الناقة العظيمة السنام. والشبم: البارد.

(3) المصدر السابق ٢/ ١١٥. وارجحن: ثقل.

ظنّي بَميّاس ضرار خيرُ ظنْ أنْ يشتري الحَمْدَ ويُغلِي بالثّمَنْ
يَنحرُ للأضياف رَبّاتِ السُّمَنْ ويضربُ الكَبْشَ إذا البأس ارْجَحَنْ

وروي أن هند بنت عتبة كانت ترقص ابنها معاوية، وتقول له:[1]

إنّ بُنَيَّ مُعْبرقٌ كريمُ
مُحَبَّبٌ في أهله حليمُ
ليس بفَحّاش ولا لئيم
ولا بطخرور ولا سَؤُوم
صخرُ بني فِهْر به زعيمُ
لايُخلِفُ الظنَّ ولا يَخيمُ

فهي تنعت طفلها بالكرم والحلم والخلق الحسن، وهي صفات ستتحقق فيه، فلا يخيب ظن والده.

وضربت صفية بنت عبد المطلب ولدها الزبير بن العوام، وأغلظت له القول كي يشب قويا، ويغدو بطلا جوادا، وفي ذلك تقول له مداعبة:[2]

مَنْ قال: إني أُبغِضُهْ فقد كَذبْ
وإنّما أضربُهُ لكي يَلَبّْ
ويهزمَ الجيشَ ويأتي بالسَّلبْ
ولايكنْ لماله خَبْءٌ مُخَبّْ
يأكلُ ما في الطلّ من تَمْر وحبّْ

وكان سادات القبيلة يمثلون قيمها ومفاخرها، ولذلك نجد الأهل يأملون أن يشب الأبناء، فيشبهوا بعض أولئك السادة. ومن ذلك قول عبد المطلب، وهو يداعب أحد أبنائه:[3]

يا بأبيْ يا بأبيْ يا بأبيْ
كأنّه في العزّ قيسُ بنُ عَدِيْ

---

(1) المصدر السابق ٢/ ١١٦. والطخرور: الضعيف. ويخيم: يجبن أو يخيب. أبدلت من الباء ميماً.

(2) نسب قريش ص ٢٣٠. ويلب : يعقل. ومخب:مخبأ. والطلّ: موضع في الدار عليه المآكل والمشرب. وجاء في الأصل: (من قال لي إني...)

(3) الاشتقاق ص ١٢٠.

وبعده في نسب قريش:[1]

في دار قيس ينتدي أهلُ النّدى

٢- الدين:

لم يحظ الدين باهتمام الشاعر الجاهلي، فكان الشعر الديني الجاهلي قليلا، ثم جاء الرواة المسلمون فأهملوا - على الأرجح - رواية الكثير من ذلك الشعر القليل. ومع ذلك فقد تسربت إلينا أشعار دينية جاهلية قرشية، تظهر بعض ملامح عقيدة قريش وشعائرها الدينية الوثنية، والسماوية.

أ - **ملامح وثنية:** من المسلم به أن وثنية العرب تحريف لدين إسماعيل عليه السلام، وهذا التحريف أساسه الشرك بالله. ومن أوضح الشعر القرشي الذي يتجلى فيه الشرك هذه الأبيات المختارة من لامية أبي طالب المشهورة في مديح الرسول. يقول أبو طالب:[2]

وأحضرتُ عند البيت رَهْطي وإخوتي	وأمسكتُ من أثوابهِ بالوَصائل
قياماً معاً مستقبلينَ رتاجَهُ	لدى حيثُ يَقْضي حَلْفَهُ كلّ نافِل
وحيث يُنيخُ الأشعرون ركابهمْ	بمفضى السّيول من إساف ونائل
مُوَسَّمَةَ الأعضادِ أو قَصَراتِها	مُخَيَّسَةً بينَ السَّديس وبازل
ترى الوَدْعَ فيها والرُّخامَ وزينةً	بأعناقِها مَعْقُودةً كالعثاكل
أعوذُ برَبٌ الناس من كلّ طاعن	عَلَيْنا بسُوء أو مُلِحٌ بباطل
وبالحجر المسْوَدُّ إذْ يَمْسَحُونَهُ	إذا اكتنفوهُ بالضُّحى والأصائل
ومَوْطِيء إبراهيمَ في الصخر رَطبَةً	على قدميهِ حافياً غيرَ ناعل
وأشواطِ بين المروتَين الى الصَّفا	وما فيهما من صورة وتماثِل
ومنْ حَجَّ بيتَ الله من كلّ راكبِ	ومِن كلّ ذي نَذْر ومنْ كلٌ راجل

[1] سيرة قريش ص ٤٠٠.

[2] سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥ - ٢٤٧. والوصائل: ثياب يمانية مخططة، كانت الكعبة تكسى بها. والرتاج: الباب العظيم. والنافل: المتبرّىء. ونائل: أراد نائلة وحذف التاء ضرورة. والقصرات: أصول الأعناق. والمخيسة: المذلّلة. والرخام: حجر أبيض سهل رخو. والعثاكل: الأغصان التي ينبت عليها التمر. والتماثل: التماثيل. والمشعر: عرفة. وإلال: جبل عرفات. والشراج القوابل: مسايل الماء المقابلة. وليلة جمع: ليلة المزدلفة. والمقربات: الخيل الكريمة التي تقرب مرابطها من البيوت. والوابل: المطر الشديد.

وبالمشْعَر الأقصَى إذا عمدوا لـه ... إلالٌ الى مُفْضَى الشِّراج القوابل
وتوقافِهِمْ فوقَ الجبال عَشِيَّةً ... يُقيمونَ بالأيدي صدورَ الرّواحل
وليلةِ جَمْعٍ والمنازل من مِنىً ... وهلْ فوقَها من حُرْمةٍ ومنازل
وجَمْعٍ إذا ما المُقْرَباتُ أجزنهُ ... سراعاً كما يخرُجْنَ من وَقْعِ وابل
وبالجمرةِ الكبرى إذا صَمَدوا لها ... يَؤُمّونَ قَذْفاً رأسَها بالجنادِل
فهلْ بعد هذا من مَعاذٍ لعائذٍ ... وهل من مُعيذٍ يتقي الله عادل

إن الأبيات المختارة من لامية أبي طالب تظهر بعض شعائر قريش الدينية، فالناس يمسكون بكسوة الكعبة،ويستقبلون بابها حين يحلفون الأيمان المغلظة،وفيها نرى الحجاج وهم ينيخون ركابهم بين صنمي إساف ونائلة، مصطحبين الهدي المعلمة في أعضادها، أو أعناقها،وهي فتية، بين السادسة والتاسعة، مزينة بالخرز وقطع الرخام كالأغصان.

وترينا الأبيات طواف الحجاج بالكعبة،وتمسحهم بالحجر الأسود، وتعظيمهم مقام إبراهيم، وهرولتهم بين الصفا والمروة، ثم خروجهم الى عرفات، والوقوف فيها، ثم الإفاضة من عرفات الى المزدلفة، ثم التوجه الى منى، ثم رمي الحصى.

وتلك الشعائر من بقايا دين إسماعيل عليه السلام، ولكن التحريف دخلها، فشابها الشرك، نلحظ ذلك في ذكر إساف ونائلة والصور والتماثيل في عداد المشاعر المقدسة كالكعبة والحجر الأسود وموطىء إبراهيم والصفا والمروة وعرفات والمزدلفة ومنى. فهو يؤمن با لله رب الناس (أعوذ برب الناس من كل طاعن) و(يتقي ا لله..) ولكن الشرك شاب إيمانه حين استعاذ بالصور والتماثيل بخاصة.

وثمة أشعار جاهلية قرشية توهم المستمع بإيمان قائلها با لله وحده، ومن ذلك قول أبي عزة الجمحي:[1]

لاهُمَّ ربَّ وائلٍ ونَهْدِ ... والتّهمَاتِ والجبال الجُرْدِ
وربَّ من يرمي بياض نَجْدِ ... أصبحتُ عبْداً لكَ وابنَ عبْدِ
أبرأتني من وَضَحٍ بجلدي ... منْ بعدِ ما طعنْتُ في مَعَدّْ

---

[1] طبقات فحول الشعراء ص ٢١٤ – ٢١٥. ويرمي بياض نجد: سلك هذه الأرض، وهي أرض مهلكة في بادية نجد. والمعد: البطن. وقد قتل أبو عزة بأحد بأمر من الرسول.

فهو يشكر الله القادر الذي أبرأه من برص أصيب به. ومن ذلك الشعر قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وهو مقيم على الشرك بنجران:[١]

وإنّي لَأُقلي الحاسدين وفعلَهُم ... على اللهِ رزقي نفسُها وعيالُها

وقول أبي طالب:[٢]

ألاَ هل أتى بَحْريَّنا صنعُ ربِّنا ... على نأيهم والله بالناس أروَدُ

والأشعار المذكورة لاتنفي شرك أصحابها، فالمشترك لايلتزم بأن يقرن تعظيم الله بتعظيم الأوثان والأنصاب، وهذا يدل على إقرار المشركين لله بعظمة لايدانيها صنم ولا وثن.

ب - ملامح سماوية: ظهر في الجاهلية متنورون قرشيون دعوا الى العودة الى دين إبراهيم عليه السلام خاليا من شوائب الوثنية. وقد تحنف بعض أولئك المتنورين، وتنصر بعضهم الآخر.

ويعدّ زيد بن عمرو العدوي القرشي أبرز من دعا الى نبذ الشرك، والعودة الى الحنيفية دين إبراهيم،ومن شعره قوله مقرا بالتوحيد:[٣]

أَسلمتُ وجهي لمن أَسلَمَتْ ... له المزْنُ تحملُ عَذْباً زُلالا

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقَالا

دحاها فلمّا استوتْ شدَّها ... سَواءً وأرسَى عليها الجبالاَ

فهو يترك أمره لله مرسل السحاب بالمطر، وباسط الأرض، ومرسي الجبال. واستهجن زيد في أبيات أخرى الشرك بالله، واستنكر فكرة تعدد الآلهة، وذلك حيث يقول:[٤]

عَزَلْتُ الجنَّ والجنَّانَ عنّي ... كذلك يفعلُ الجلدُ الصَّبُورُ

---

[١] سيرة ابن هشام ٤/ ٤٧. مات هبيرة مشركاً.

[٢] المصدر السابق ٢/ ١٩. وبحرينا: أراد الذين بالحبشة من المهاجرين، فنسبهم إلى البحر. وأرود: أرفق. وإسلام أبي طالب مسألة فيها خلاف.

[٣] جمهرة نسب قريش. مخطوط ١٦٨/ أ. والمزن: جمع مزنة، وهي السحابة البيضاء.

[٤] جمهرة نسب قريش ١/ ٤١٦ - ٤١٧. والجِنّان: جمع جان. وابنتا العزى: لعله يريد اللات ومناة. وأطماطسم: مفردها أطم. وهو كل بيت مربع مسطح. وأدير: أطوف بهما. وغنم: صنم. وروى ابن هشام في سيرته (١/ ٢٠٩): ولا هُبلاً.

فـلا العُـزّى أديـنُ ولا ابْنَتَيها ... ولا أُطْمَـيْ بـني طَسْـم أُديـرُ
ولا غَنْماً أَديـنُ وكيانِ رَبّاً ... لنا في الدهـر إذ حِلْمـي صغـيرُ
أربّاً واحـداً أمْ ألـفَ ربّ ... أديـنُ إذا تَقَسّمتِ الأمـورُ

وتناهت هذه الأبيات الى مسامع ورقة بن نوفل الأسدي، وكان يبحث عن الدين الصحيح، مثل زيد، فتنصر، فقال ورقة لزيد:[1]

رَشِدْتَ وأنعمتَ ابن عمرو وإنّما ... تَجَنّبْتَ تَنّوراً من النار حامِيَا
بدينك ربّاً ليس ربٌّ كمثله ... وتركِكَ جنّانَ الخَبال كما هيا
أقولُ إذا جاوزتُ أرضاً مخوفةً ... حَنانيكَ لاتظهرْ عَلَيَّ الأعاديا
حنانيكَ إنّ الجنّ كانتْ رجاءَهمْ ... وأنتَ إلهـي رَبّنا ورجائيا
أدينُ لربٍّ يستجيبُ ولاأرى ... أدينُ لمنْ لايَسْمَعُ الدهرَ داعيا
أقولُ إذا صَلّيْتُ في كلّ بيعةٍ ... تباركتَ قد أَكْفأْتَ باسمكِ داعيا

إن ورقة يعبر في هذه الأبيات عن سروره لأن زيدا اهتدى الى الرشاد، فتجنب عذاب النار. وفي أبيات ورقة استنكار لمن يستعين بغير الله، وهو يستجدي الرحمة لنفسه من الله في كل كنيسة يصلي فيها. وليس في الأبيات مايشير إلى نصرانية الشاعر سوى لفظة (بيعة).

ويلاحظ أن ورقة استنكر عبادة الأصنام ولكنه تجنب ذكر آلهة قريش (اللات والعزى ومناة وهبل). وقد ساعد ذلك على نجاة ورقة من اضطهاد قريش وأما زيد فقد عذب واضطهد لأنه أساء الى آلهة قريش، وحرض على ترك عبادتها ومضمون شعر زيد وورقة واحد من جهة التوحيد واستنكار تعظيم الأصنام والأوثان والجان، ولكن ورقة أشار الى يوم الحساب،وجزاء المشركين بالنار.

٣ - الحكمة:

صاغ الإنسان الجاهلي حكمه بإيجاز، واختزن فيها العظات المستخلصة من تجارب حياته. وثمة حكم في شعر قريش الجاهلي كقول عمرو بن العاص داعيا الى أن يكبح الانسان جماح شهواته كيلا يصبح أحدوثة تلوكها ألسنة الناس، وذلك في

---

[1] جمهرة نسب قريش ١/ ٤١٨. والخبال: الفساد. والبيعة: كنيسة النصارى.وأكفأت باسمك داعيا: خلقت خلقا كثيراً يدعونَ باسمك.

قوله:[1]

إذا المـرءُ لم يـترك طعامـاً يُحِبُّـهُ ... ولم يَنْهَ قلبـاً غاويـاً حيثُ يَمَّمَـا

قَضَى وَطَراً منهُ يَسيراً وأصبحتْ ... إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَملأُ الفَمـا

ومن الحكمة قول وهب بن عبد مناف بن زهرة:[2]

وإذا أتيـتَ جماعـةً في مَجْلِسٍ ... فـاخترْ مجالسَـهمْ ولَمّـا تَقْعُـدِ

وَدَعِ الغُـواةَ الجـاهلينَ وجَهْلَهـمْ ... وإلى الذيـنَ يُذَكِّرُنَّـكَ فـاعمدِ

فهو يدعو الى مجالسة الأخيار، وتجنب الأشرار. ومن الحكم الأخلاقية قول عمرو بن العاص:[3]

فليس الفتى ولـو أتَمَّـتْ عروقُـهُ ... بـذي كَـرَمٍ إلّـا بـأنْ يَتَكَرَّمَـا

ودعا هبيرة بن أبي وهب المخزومي الى الواقعية والصدق، في قوله:[4]

وإنّ كـلامَ المـرءِ في غيرِ كُنْهِهِ ... لكـالنبلِ تَهوي ليس فيها نصالُها

وتجربة عتبة بن ربيعة قادته الى اكتشاف أن المخادع قد يخدع فعبر عن ذلك في قوله لابنته داعيا إياها الى التيقظ والحذر:[5]

فَدونكِ فاختـاري فَأَنْـتِ بصيرةٌ ... ولا تُخدَعي إنَّ المخادِعَ يُخْدَعُ

ووقف عبد الله بن الزبعرى عند حقائق الحياة الكبرى،ومنها الموت الذي يترصد لكل إنسان حتى ينال منه. يقول ابن الزبعرى:[6]

ليس الـذي يرجـو الخلـودَ بخـالدٍ ... والمـرءُ مُرْتَهَـنٌ بخَيْـفِ الرّاصـدِ

والنـاسُ هـامٌ : رائـثٌ وَمُعَجِّـلٌ ... ورْدَ النِّهـالِ تـواردتْ للزايـدِ

ونظر ابن الزبعرى في الأضداد وتلاقيها، فالخير يلتقي الشر، فلكل منهما غاية،والفقير والغني يلتقيان، فالموت يساوي بينهما، ومصائب الدهر تزيل الحدود

---

[1] الأغاني ٩/ ٥٩.

[2] الكامل في اللغة ص ١٥١.

[3] الأغاني ٩/ ٥٩.

[4] سيرة ابن هشام ٤/ ٤٧. وفي غير كنهه: في غير حقيقته.

[5] العقد الفريد ٦/ ٨٦.

[6] جمهرو نسب قريش -مخطوط ١٨٧/ ب. والخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل. ومسيل الماء. والهام (هنا): الجماعة من الناس. والنهال: الإبل أول الشرب. والذايد: اسم فاعل من ذاد الإبل: أي ساقها وطردها.

الفاصلة بين البؤس والنعيم. يقول ابن الزبعرى:[1]

إنّ للخــير وللشــرّ مــدىً | وكِـلا ذلـك وَجْـهٌ وقَبَـلْ
والعَطِيـاتُ خِسَـاسٌ بينهـمْ | وسَـواءٌ قبرُ مُثْـر ومُقِـلّ

ويقول أيضا:[2]

كـلُّ بـؤس ونعيـم زائـلٌ | وبنـاتُ الدّهـر يَلْعَبْـنَ بكُـلّ

إن دقة معاني ابن الزبعرى تدخلها في إطار التفكير المنطقي،وحكمته تناصر الضعفاء في حضها الأغنياء على التواضع، فالناس فقيرهم وغنيهم متساوون؟!

والحكمة الإنسانية تتصف بتجدد جمالها، فهي تصلح لكل زمان ومكان غالبا، كما في قول أبي طالب:[3]

وحاربْ فإنّ الحربَ نصْفٌ وما تَرَى | أخا الحربِ يُعْطى الخَسْفَ حتّى يُسالما

٤- الخمرة

كان شرب الخمر في الجاهلية دليل سيادة، ومدعاة فخر. وشاعت في مجتمع قريش الجاهلي مجالس الشراب التي تحفل بالندامى والقيان والغناء. وفي شعر قريش الجاهلي مقطعات خمرية قليلة، ولعل بعضها بقية من قصائد طوال. ونجد في تلك الخمريات ذكر لمجالس الشراب، وآداب المنادمة.

ومن آداب الشراب والمنادمة ألا تشرب الخمرة صرفا. وألا يزعج النديم أصحابه بسكره، بل يحادثهم وقت الشراب بكلام حسن. ونجد هذه المعاني في قول مسافر بن أبي عمرو الأموي يخاطب عمارة بن الوليد المخزومي:[4]

أعُمَـارَ بـنَ الوليـد لقـدْ | يذكـرُ الشـاعرُ مـنْ ذكَـرَهْ
هـل أخـو كـاس مُخَفّفهـا | ومُـوَقّ صحبَـهُ سُـكُرَهْ
ومُحَيِّيهـم إذا شـربوا | ومُقِـلٌ فيهـمُ هَـذَرَهْ

ومن آداب الشراب أن يعب المرء الخمرة حتى ينتشي كما يدعي عمارة بن

---

(1) شرح ديوان حسان ص ٣٥٧.

(2) الحماسة البصرية ١/ ١٠٠. وبنات الدهر مصائبه.

(3) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥.

(4) جمهرة نسب قريش - مخطوط ص ١٤٥ / أ.

الوليد في قوله:(1)

نديمي قد خفَّ الشرابُ ولم أجِدْ ... له سَوْرَةً في عظم رأسي ولا جِلْدِي

نديمي هذي غِبُّهُمْ فاشربا بها ... ولا خيرَ في شُرْبٍ يكون على صَرْدِ

فعمارة مستاء لأن الخمرة لم تؤثر فيه، فدعا نديمه الى مزيد من الشراب، فلا خير في شرب لم يرتو المرء منه.

وعلى النديم أن يكون سمحا أريحيا، لايتعب من المنادمة، لطيف المجالسة، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:(2)

وأَشْقَحَ من راح العراق مُمَلَّأٍ ... مَخِيطٍ عليه الخَيْشُ جَلْدٍ مرائِرُهْ

سَبَقْتُ به طلقاً يَرَاحُ إلى النَّدَى ... إذا ماانتشى لم تَحتضِرْهُ مفاقِرُهْ

ضَعِيفاً بجَنْبِ الكأس قبضُ بنانـهِ ... كليلاً على وَجْهِ النديم أظافِرُهْ

ومن أدب الشراب المشاركة في الشرب والإنفاق عليه، وفي ذلك يقول عمارة بن الوليد مخاطبا زوجه:(3)

أَسَرَّكِ لما صَرَّعَ القومَ نَشْوَةٌ ... أَنْ اخْرُجَ منها سالما غيرَ غارم

خَلِيًّا كأنّي لم أكنْ كنتُ فيهمُ ... وليس الخداعُ مرتضىً في التنادُم

وتنبه بعض القرشيين الى مضار الخمرة، فحرموها على أنفسهم. ويروى أنه لم يمت واحد من كبراء قريش في الجاهلية إلا ترك الخمرة استحياء مما فيها من الدنس، ومنهم عبد الله بن جدعان التيمي، وقد قال في ذلك:(4)

شربتُ الخمرَ حتّى قال قومي: ... أَلَسْتَ عن السَّفاهِ بمُستَفِيق

وحتى ما أُوسَّدُ في مَبِيتٍ ... أنامُ به سِوَى التُّرْبِ السَّحيق

وحتى أغلقَ الحانوتُ رَهْني ... وآنستُ الهوانَ من الصديق

* * * * *

---

(1) الأغاني ١٨/ ١٢١. وسورة الشراب : وثوبه في الرأس. والغِبّ في الشراب: أن تشرب يوماً وتنقطع عن الشراب يوماً آخر. ويكون على صرد: يكون منقطعاً قبل الرّيّ.

(2) حذف من نسب قريش ص ٢١ -٢٢. وأشقح: زقّ يضرب لونه إلى الحمرة. والخيش: ثياب رقاق النسيج، غلاظ الخيوط. والجلد: الصلابة. والمرائر: الحبال المفتولة على أكثر من طاق. ومفاقره: وجوه فقره.

(3) الأغاني ١٨/ ١٢٣.

(4) المصدر السابق ٨/ ٣٣٢.

بعد استعراض موضوعات شعر قريش الجاهلي نجد أن أغلب ذلك الشعر وأنضجه قيل في محاربة قريش للإسلام،[1] فقد جابه شعراء قريش المشركون تحدي شعر المدينة الإسلامي بتحد شعري مماثل، يرقى الى مستوى الحدث السياسي وإلى منزلة شعر المدينة المعادي. واستطاع شعراء قريش بدافع التحدي السياسي والشعري الفني أن يكونوا أندادا لشعراء الأنصار،وأن يتفوقوا عليهم في جوانب بعض الموضوعات كرثاء القتلى،ولاسيما في الشعر الذي أنشدته شواعر قريش اللواتي أبرزن مقدرة المرأة الجاهلية الفائقة في مجال رثاء الأقارب الذين يسقطون في ساحات الوغى.

إن الصلة وثيقة بين تفتح شاعرية قريش وسياستها، فأكثر شعرها يهدف الى إعلاء شأن القبيلة، والحفاظ على مصالحها الاقتصادية، ومكانتها الدينية.

وخص الشعراء القرشيون قبيلتهم بأشعارهم.[2] ويرجع ذلك الى الاعتداد بالنفس والشعور بالسيادة على العرب، فأنف الشعراء القرشيون أن يتوجهوا بمديحهم أو رثائهم الى غير أبناء قبيلتهم.

وخلا شعر قريش الجاهلي من بعض الموضوعات المألوفة في الشعر الجاهلي كالوقوف على الأطلال، ووصف الناقة والصحراء. وأما الموضوعات التي طرقها القرشيون فلم تبعد أفكارها وغاياتها عما كان يفكر فيه، ويهدف إليه الشعراء الجاهليون بعامة، ولكن ذلك لاينفي أصالة شعر قريش وخصوصيته، فهو يعبر عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والبيئي الذي عاشت فيه قبيلة قريش في الجاهلية، وفي الفصل التالي توضيح لذلك.

---

(١) انظر تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص ٧٠.

(٢) ثمة مقطوعات قيلت في مدح غير رجال القبيلة، ولكن الدافع إليها كان خدمة مصالح القبيلة ; فقد مدح أمية بن عبد شمس سيف بن ذي يزن حين هزم الأحباش، ومدح أبو سفيان بن حرب سلام بن مشكم اليهودي الذي ساعد قريشاً على محاربة المسلمين.

الفصل الثاني

خصائص
شعر قريش في الجاهلية

-١-

القيم والمعاني

١ـ القيم

يتضمن شعر قريش الجاهلي القيم التي سادت مجتمع القبيلة، ولهذه القيم خصوصية لاتغاير قيم المجتمع الجاهلي بل تخالفها في ترتيب الأهمية، فالقيمة المادية لها الصدارة لدى قريش البطاح، وتليها العصبية القبلية والقوة ثم الدين، ولكن قريش الظواهر التي اعتمدت في معاشها على الغزو والرعي ـ جعلت العصبية القبلية في مركز الصدارة.

لقد علا شأن القيمة المادية في مكة لاعتماد أهلها على التجارة واستثمار الأموال والربا والحرف والزراعة بالطائف. وكان للأموال أهمية كبيرة في مجتمع قريش، فالفقر يحطّ من قيمة المرء، والغنى يرفع شأنه، ويعلي منزلته، ونجد هذه المعاني في قول نبيه بن الحجاج:[١]

قَصَّرَ العُدْمُ بي ولو كنتُ ذا ما ... ل كثير لأجلبَ الناسُ حَوْلي
ولقالوا: أنت الكريمُ علينا ... ولحطّوا إلى هوايَ ومَيْلي
ولَكِلْتُ المعروفَ كَيْلاً هَنِيّاً ... يعجزُ الناسَ أن يكيلوا ككيلي

ويؤكد نبيه هذا المعنى بقوله:[٢]

---

(١) الأغاني ١٧/٢٨٢.

(٢) المصدر السابق ١٧/ ٢٨١-٢٨٢. ونسب البيتان الى زيد بن عمرو بن نفيل (عيون الأخبار ١/٢٤٢) والى ابنه سعيد بن زيد (البيان والتبيين ١/٢٣٥) ونسب البيت الأول الى ورقة بن نوفل (حذف من نسب قريش ص٥٤-٥٥).

وَيَ كَأنْ من يكنْ له نشبٌ يُحْـ بَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضَـرّ
ويُجنَّـبْ سِـرَّ النجـيّ ولكـ ـنَّ أخا المالِ مُحْضَرٌ كلَّ سـرّ

فالغني يحبه الناس، ويشاركونه في الأمور العظيمة، وأمّا الفقير فحياته مليئة بالآلام وفقره يحرمه من نيل ثقة قومه التي يحظى بها الأغنياء.

ومن الأشعار التي تبرز القيمة المادية قول مالك بن عميلة العبدري متباهيا بامتلاك الأموال:(١)

ولنا من الأموال عَيْنُ رَغائبٍ ولنا نصابُ المجدِ والأحلام

وقريب من ذلك قول مسافر بن أبي عمرو مفتخراً بلبس الثياب الفاخرة والتلذذ بمتع الحياة المادية:(٢)

خُلِقَ البيضُ الحِسانُ لنا وجيادُ الرَّيْطِ والحِبَرَهْ

وكذلك قول الزبير بن عبد المطلب:(٣)

ولكنّا خُلِقْنا إذْ خُلِقْنا لنا الحِبَراتُ والمسكُ الفتيتُ

وتتجلى العصبية القبلية في شعر ضرار بن الخطاب بخاصة، وهو من قريش الظواهر، لقد تعاطف ضرار مع القرشيين المسلمين، وهو مشرك، تعصبا لقريش، ويبرز ذلك في قصيدة أنشدها عقب غزوة بدر الكبرى، وفيها يتعجب من افتخار الأوس والخزرج بالانتصار على قريش، ويرجع انتصار الأوس والخزرج إلى وجود قيادة قرشية ترأس القبيلتين.(٤) ويؤكد العصبية عند ضرار قوله في غزوة الخندق مخاطباً المسلمين من أبناء قبيلته:(٥)

مهلاً بني عَمِّنا ظُلامَتَنا إنّ بنا سَوْرَةً من القَلَق
لمثلكمْ نحملُ السيوفَ ولا تُغْمَزُ أحسابنا من الدَّقَق
إنّي لأُنْمِي إذا انتميتُ إلى عِزٌّ عزيز ومَعْشَرٍ صُدُق

(١) معجم الشعراء ص٢٥٥.

(٢) الأغاني ٩/٥٠. والحبرة: بردٌيمان.

(٣) العمدة ١/٦٦.

(٤) انظر هذا البحث ص١١٣.

(٥) شعر ضرار بن الخطاب ص٥١. والسباط: جمع سبط. وهو الرجل إذا كان حسن القدّ والاستواء. وكان زعماء بني هاشم يتمثلون بهذه الأبيات في صراعهم مع بني أمية في الإسلام.

بـيض سِبـاطٍ كـأنّ أعيُنَهـمْ ... تُكْحـلُ يـومَ الهيـاج بالعَلَـقِ

فالشاعر يفخر بقريش: مسلمها ومشركها، ويسربل قبيلته كلها بسمات المجد والشّرف.

وظهرت العصبية القبلية في شعر بني هاشم الذين تعاطفوا مع الإسلام، ونصروه عصبية للرسول الهاشمي. وقد مرت بنا صور من ذلك الشعر لنوفل بن الحارث، ولطالب بن أبي طالب، ولأبي طالب.[1]

وللعصبية مظاهر كثيرة، منها الدعوة إلى وصل الأقارب ورعايتهم، ومنها الابتهاج بالمصالحة التي تتم بين بطون القبيلة إذا تنازعت، فهذا عبد الله بن الزبعرى يبارك الصلح بين بني سهم، عشيرته، وبني قصي بن كلاب، وذلك في قوله:[2]

لَعَمْرُكَ ما جاءَتْ بنُكْـرٍ عَشيرَتي ... وإنْ صالحتْ إخوانها لا أَلُومُها

يَوَدُّ جُناةُ الغَيِّ أنَّ سُيُوفَنا ... بأيْمانِنا مَسْلُولةٌ لا نَشِيمها

ومن العصبية محبة القبيلة كلها، وعدم الإساءة إلى أحد منها، والمساهمة قدر المستطاع في تحمل أعبائها، والشعور بالأمن والكرامة في كنفها. وفي ذلك يقول أبو زمعة:[3]

أُحِبُّ قريشاً كلَّها وأَحوطُها ... ولستُ بسَبَّابٍ لذي الرحْم مِلْطَم

وإنْ حَمَّلوني ما أُطيقُ حَمَلْتُهُ ... ويَكْرُمُ فيهمْ مُستَرادِي ومَطْعَمي

والعصبية القبلية وثيقة الصلة بقيمة القوة والبطولة، وهذه القيمة ظاهرة في شعر الفرسان القرشيين، ومنهم ضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب. وإذا تجاوزنا شعر أولئك الفرسان نجد قيمة القوة ـ وهي أصيلة في الشعر الجاهلي، وبارزة فيه ـ باهتة المعالم فيما وصل إلينا من شعر قريش الجاهلي بعامة.

وأمّا القيمة الدينية فيكاد شعر قريش الجاهلي أن يتفرد ويختص بها، ويرجع ذلك إلى البيئة الدينية التي عاشت فيها قريش، فهي راعية الكعبة، وما فيها وحولها من مقدسات وثنية. وقد مرّ بنا في الشعر المناهض للإسلام شواهد فيها دفاع عن

---

(1) انظر هذا البحث ص١١٢ ومابعدها.

(2) طبقات فحول الشعراء ص١٩٧-١٩٨. وللمسافر بن أبي عمرو أبيات يدعو فيها الى رعاية حقوق الأقارب (حذف من نسب قريش ص٣٧).

(3) حذف من نسب قريش ص٥٣.

الوثنية، ووصف المسلمين بالغواة.[1] وبرزت القيمة الدينية في مديح أبي طالب للرسول بخاصة، وبرزت أيضا في شعر الهجاء، ومن ذلك أن هند بنت عتبة وصفت أخاها الذي اتبع الإسلام بأنه شرّ الناس في الدين.[2]

٢ـ المعاني

لونت حياة قريش شعرها بمعان خاصة، ومنها المديح بسقاية الحجيج ورعايتهم وبالتدين، والفخر بالرفادة والسقاية وامتلاك الآبار والسكن جوار الكعبة، والسبق إلى سكن مكة، والدفاع عنها، ومن ذلك قول أبي طالب مفاخراً بالدفاع عن مكة:[3]

ونحمي حماها كلَّ يوم كريهةٍ ... ونضربُ عن أحجارها مَنْ يَرومُها

وكان للتجارة تأثير واضح في تلوين شعر قريش بمعان جديدة، ومن ذلك قول عبدا لله بن الزبعرى يمدح هاشم بن عبد مناف:[4]

وهو الذي سَنَّ الرحيلَ لقومِهِ ... رحْلَ الشتاء ورحلةَ الأصيافِ

وقوله يمدح بني عبد مناف بأخذهم الإيلاف لقريش من القبائل والدول:

الآخذون العَهْدَ من آفاقِها ... والراحلونَ برحلةِ الإيلافِ

ومن ذلك حديث أبي طالب عن طواف قريش في البلاد، في معرض مديحه لمن نقض صحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم. يقول أبو طالب:[5]

ويبني لأبناء العشيرةِ صالحاً ... إذا نحنُ طُفْنا في البلادِ ويَمْهَدُ

ومن أثر التجارة قول أبي طالب في رثاء أبي أمية بن المغيرة المخزومي:[6]

وكان إذا يأتي من الشام قافلاً ... تَقَدّمُهُ، تَسْعَى إلينا البَشَائِرُ

وهذا البيت من قصيدة ذُكرت فيها مآثر أبي أمية، ومنها خبرته التجارية، وما

---

(١) انظر هذا البحث ص١٠٦-١٠٨

(٢) الطبقات الكبرى ٣/٨٥.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٤٣.

(٤) الحماسة البصرية ١/١٥٦.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/٢٠.

(٦) جمهرة نسب قريش - مخطوط ص٢٠٣/ب.

ينتج عنها من ربح يستبشر الناس به حين يأتي أبو أمية من الشام.

ولم يخل شعر الحماسة من أثر التجارة، فهذا ضرار بن الخطاب يتحدث عن انتصار قريش في أحد، فيقول:[1]

قد عُوّدوا كلّ يوم أن يكون لهم ... ربحُ القتال وأسلابُ الذين لَقوا

فالحرب عند ضرار تجارة، فيها الربح والخسارة.

* * *

إن لشعر قريش الجاهلي خصوصية في قيمه ومعانيه المنتزعة من حياة القبيلة. وكان ذلك الشعر شاهداً على بداية مرحلة جديدة، متطورة، أخذت تسري في بنيان المجتمع العربي الجاهلي، مرحلة الانتقال من اقتصاد رعوي، ومن مجتمع بدوي إلى مرحلة اقتصاد تجاري تسود فيه القيمة المادية، وإلى مجتمع يسير نحو التحضر ويبتعد عن حياة الغزو والرعي، وما يتبعها من قيم قبلية ناتجة عن تلك الحياة التي بدأ نجمها بالأفول.

-٢-

اللغة

١- الجانب المتحضر

قريش قبيلة متحضرة، وقد أكسب ذلك لغتها وضوحاً ورقة، وبعداً غير قليل عن الغرابة والتبدي، وهذا واضح في معظم شعر قريش، وقد سبق لابن سلام الجمحي أن قال: «وأشعار قريش أشعار فيها لين».[2] ومن القصائد التي يظهر فيها وضوح اللغة وسهولتها لاميّة عبد الله بن الزبعرى في أحد، ومطلعها:[3]

ياغرابَ البَيْنِ أسمعتَ فَقُلْ ... إنّما تَنْطِقُ شيئاً قد فُعِلْ

ومنها قوله:

---

[1] المصدر السابق ص٢٠٣/ب. ويروى: (ربحُ القتال....)

[2] طبقات فحول الشعراء ص٢٠٤.

[3] سيرة ابن هشام ٣/٦٨-٦٩.

ليـتَ أشـياخي ببـدر شَـهدُوا ... جَزَعَ الخـزرج مـن وقـع الأسَـلْ
حـينَ حكّـتْ بقُبـاء بَرْكَهـا ... واستحَرَّ القتـلُ في عبـدِ الأشَـلْ
ثـمّ خَفُّـوا عنـد ذاكـمْ رُقَّصـاً ... رَقْـصَ الحَفّـان يَعْلُـو في الجَبَـلْ
فَقَتلنـا الضِّعْـفَ مـن أشـراهمْ ... وعَدَلْنـا مَيْـلَ بـدر فـاعْتَدَلْ
لا ألـومُ النفـسَ إلاّ أنّنـا ... لو كَرَرْنـا لَفَعَلْنـا المفتَعَـلْ
بسيوفِ الهـندِ تعلـو هـامَهُمْ ... عَلَـلاً تعلوهُـمُ بعـدَ نَهَـلْ

ومن ذلك قول عمارة بن الوليد المخزومي يفخر على عمرو بن العاص:[1]

ألاَ يا عمـرو هـل لـكَ في قريـش ... أبٌ مثـلُ المغـيرةِ والوليـدِ
وجـدٌ مثـلُ عبـد الله ينمـي ... إلى عمـرو بـن مخـزوم بعُـودِ
إذا مـا عُـدَّتِ الأعـوادُ نَبْعـاً ... فمـالي في الأباطـح مـن نديـدِ
وأبـذُلُ مـا يَضِـنُّ بـه رجـالٌ ... وتُطْمِعُـني المـروءَةُ في المزيـدِ
وإنّكَ من بـني سَهْم بـن عمـرو ... مكانَ الرِّدْفِ مـن عَجُـز القعـودِ
وكـانَ أبـوكَ جـزّاراً وكانـتْ ... لـه فأسٌ وقِـدْرٌ مـن حديـدِ

إن شعر قريش يميل إلى التحضر من جهة لغته الواضحة المهذبة، والمائلة إلى السهولة والليونة. ونحن لانكاد نحسّ بأيّ بعد لغوي يعوق فهمنا لأبيات ابن الزبعرى وعمارة وأمثالها على الرغم من البعد الزمني الذي يفصل مابين الجاهلية وعصرنا.

ومن المفيد الإشارة إلى الصلة بين الشعر وموضوعاته؛ فشعر الحماسة تلآئمه اللغة الجزلة القوية كما أنه يتّكئ على الموروث الضخم من الشعر الجاهلي الحماسي، وأغلبه بدوي الطابع، وبذلك نُفَسِّر الجزالة والقوة في لغة الشعر الحماسي القرشي، ولو كان صادراً عن شواعر قرشيات، كقول درّة بنت أبي لهب في حروب الفجار.[2]

لاَ قَـوْا غـداةَ الـرّوع ضَمْـزَرَةً ... فيهـا السَّـنَوَّرُ مـن بـني فِهْـر
ملمومـةً خرسـاءَ تحسَـبُها ... لمـا بَـدَتْ موجـاً مـن البحـر

---

[1] الأغاني ١٨/١٢٥.

[2] الوحشيات ص٦٦. والضمزرة: السوء والغلظ. تصف بذلك كتيبة قومها. والسنور: لبوس من جلد غير مدبوغ كالدرع. والذعاف: السمُّ القاتل. والعرامس: جمع عرمس وهي الصخرة الصلبة.

والجُـــرْدُ كالعِقْبـــانِ كاســـرةً ... تَهـــوي أمـــامَ كتـــائبٍ خُضْـــرِ
منهـــا ذُعـــافُ المـــوتِ أَبْـــرَدُهُ ... يَغْلـــي بهـــمْ وأَخَـــرُه يجـــري
قـــومٌ لَـــوَ انَّ الصَّخْـــرَ صَالَدَهـــمْ ... صَلُبُـــوا ولانَ عرامِـــسُ الصَّخْـــرِ

وقول عاتكة بنت عبد المطلب في حروب الفجار (يوم عكاظ) أيضاً:[1]

ســـائلْ بنـــا في قومِنـــا ... ولْيَكْـــفِ مـــن شـــرٍّ سَـــمَاعُهْ
قيســـاً ومـــا جمعـــوا لنـــا ... في مَجْمَـــعٍ بـــاقٍ شَـــنَاعُهْ
فيـــه السَّـــنَوَّرُ والـــقنا ... والكَـــبْشُ مُـــلتَمِـــعاً قِناعُـــهْ
بِعُكـــاظَ يُعشِـــي الناظريـــنَ ... إذا اهُـــمُ لَمحُـــوا شُـــعَاعُهْ
فيـــه قَتَلْنـــا مالكـــاً ... قَسْـــراً وأَسْـــلَمَهُ رَعَاعُـــهْ
ومُجَـــدَّلاً غادَرْنَـــهُ ... بالقـــاعِ تَنْهَشُـــهُ ضِباعُـــهْ

وأحدث تحضر قريش أثراً بارزاً في البنية الصرفية للألفاظ، فجعلها تجنح نحو سهولة في النطق، ويتجلى ذلك في ظاهرتين: تخفيف الهمزة، وفكّ الإدغام.

يظهر تخفيف الهمزة في شكلين: الحذف، والقلب. ومن الشكل الأول همزة القطع إذا وقعت بين ساكنين، وإلقاء حركتها على الساكن قبلها كما في قول نبيه بن الحجاج:[2]

فَسَـــلي بمكـــة تخـــبري ... أنّـــا مِـــنَ اهْـــلِ وفائـــها

وقول سعيد بن العاص:[3]

قومي وقومُكَ ياهاشـم قَدَ اجتمعوا ... تركي وتركَكَ آخـرَ الأعصـار

وكذلك حذف الهمزة المتوسطة المتحركة بالفتح، ونقل حركتها إلى الحرف الصحيح الساكن قبلها، ومنه قول هند بنت عتبة:[4]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٢/٧٤١-٧٤٣. قناعه: المراد بيضة الحديد. ومجدّلاً: مطروحاً على الجدالة، وهي الأرض. وغادرنه: النون عائدة على الخيل.

(٢) الأغاني ١٧/٢٨٦.

(٣) نسب قريش ص٤٢٣. وحذف الهمزة هنا، وفي البيت السابق ضرورة شعرية، ولكن ذلك كثير في شعر قريش ممايؤيد ميل القرشيين الى تخفيف الهمزة في مثل هذا الموضع.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٨٢. والمراة: المنظر الحسن. والأصل (المَرْءَاة). خففت الهمزة بحذفها ونقل حركتها الى الساكن قبلها ثم أبدلت الهمزة ألفاً لتحركها في الأصل وانفتاح ماقبلها الآن، فالتقى ألفان (المَرَااة) فحذفت الأولى لأنها حرف مدّ، فأصبحت (المَرَاة). وزنها: المَفَلَة).

وكــانَ لنــا جبــلاً راســياً　　　جميــلَ المَــرَاةِ كثــيرَ العُشُــبْ

وقول مسافع بن عبد مناف:[1]

تَسَلُ الـنزالَ عليٌّ فـارسَ غالــبٍ　　　بجنــوب سَــلْعٍ ليتــه لم يــنزل

وقول أبي زمعة بن الأسود:[2]

وبَكّيهــمْ ولاتَسَــمي جميعــاً　　　ومـا لأبــي حَكِيمَــةَ مـن نديــدِ

وقول نُبيه بن الحجاج:[3]

فَسَــلي بمكّــةَ تُخبــري　　　أنّــا مِــنَ اهْــلِ وَفائهــا

ومن الشكل الثاني لتخفيف الهمزة قلب الهمزة المتوسطة المفردة الساكنة حرف مدّ من جنس حركة ما قبلها كقول الخطاب بن نفيل:[4]

هُــمُ الــراسُ المقــدّمُ في قريــش　　　وعنـد بيوتهــمْ تَلْقَــى الوفــودُ

وقول زيد بن عمرو بن نُفيل:[5]

لاتحســبنيني في الهـــوا　　　ن صَفِــيٌّ مادابــي ودابُــهُ

وقريب من ذلك إيثار استعمال غير المهموز إذا كان للفعل مصدران: مهموز، وغير مهموز، ومن ذلك استخدام (سُوْدُد)، وترك استخدام.(سُؤْدُد). تقول هند بنت ربيعة:[6]

ماخَلّفــا إذْ وَدَّعــا　　　في سُــوْدِدٍ شَــرْواهما

وقول تَخْمر بنت قصي:[7]

طَرَقَ النَّعِيُّ بُعَيْدَ نـوم الهُجَّـدِ　　　فَنَعَى قُصَيّاً ذا النَّدَى والسُّـوْدُدِ

وكذلك قلب الهمزة المتوسطة المفردة المتحركة بالفتح بعد ضمّ واواً، وبعد

---

[1] المصدر السابق ٣/١٦٦. وأصل تَسَلْ: تَسْأَل.

[2] المصدر السابق ٢/٢١١ وأصل تَسَمي: تَسْأَمي.

[3] الأغاني ١٧/٢٨٦. وأصل سَلي: اسألي. حذفت الهمزة المتوسطة المتحركة بالفتح، وألقيت حركتها على الصحيح الساكن قبلها، فسقطت همزة الوصل لتحرك فاء الكلمة.

[4] أخبار مكة ٢/٢١١. وأصل الراس: الرأس.

[5] سيرة ابن هشام ١/٢١٢. وأصل مادابي ودابه: مادأبي ودأبه.

[6] الأغاني ٤/٢١٠. وشرواهما: مثلهما.

[7] الطبقات الكبرى ١/٧٣.

فتح ألفاً. ومن الأول قولُ زيد بن عمرو بن نفيل:[1]

وأخي ابنُ أُمّي ثُمّ عمّي لايُواتيني خطابه

ومن الثاني قول هند بنت عتبة:[2]

مَنْ حسَّ لِيّ الأخوين كالـ ... غصنين أو مـنْ رَاهُمَا

وتصرف القرشيون بالهمزة المتطرفة المسبوقة بكسر بقبلها ياءً، ومن ذلك قول ضرار بن الخطاب:[3]

وجرداً كالقداح مُسوَّماتٍ ... نَؤُمُّ بها الغواةَ الخاطيينا

وقوله أيضاً:[4]

فقلتُ:يومٌ بأيام ومعركةٌ ... تُنبي لما خَلْفها ماهُزْهِزَ الوَرَقُ

وقول عبد المطلب بن هاشم:[5]

يُنبي عَدِيّاً وديناراً ومازنَها ... ومالكاً عِصْمَةَ الجيران عن حالي

وقول الزبير بن عبد المطلب:[6]

.... وليس على مساوينا ثياب

وتصرفوا بالهمزة المتطرفة المسبوقة بفتح بقبلها ألفا، ومن ذلك قول أبي طالب:

فَمَنْ يَنْشَ منْ حُضَّار مَكّة عزّهُ ... فعِزُّتنا في بطن مَكّةَ أتلدُ[7]

وقلبوا الهمزة المتطرفة المسبوقة. بحرف مدّ زائدٍ ياءً أو واواً من جنس الحرف الزائد قبلها، وأدغموا، ومن ذلك قول أبي طالب:[8]

---

(1) سيرة ابن هشام ٢١٢/١. وأصل لايواتيني: لأيُؤاتيني.

(2) الأغاني ٢١٠/٤. وأصل راهما: (رَأاهما). قلبت الهمزة ألفاً، لتحركها وانفتاح ماقبلها، فالتقى ساكنان (رااهما) فحذف الأول لأنه حرف مدّ.

(3) شعر ضرار بن الخطاب ص٥٧.

(4) المصدر السابق ص٥٠. وأصل تُنْبي: تنبىء.

(5) تاريخ الطبري ٢٥٠/٢.

(6) سيرة ابن هشام ١٨٤/١. وأصل مساوينا: مساوئنا.

(7) المصدر السابق ١٩/٢. وأصل ينش: ينشأ، قلبت الهمزة ألفاً ثم حذفت لمناسبة الجزم.

(8) المصدر السابق ٢٠/٢. وأصل جَرِيٌّ: جريءٌ.

جَريٌّ على جُلّى الخـطوبِ كأنّــهُ شهـــابٌ بكَفّي قابس يَتَـــوَقَّدُ

وقول ورقة بن نوفل:[1]

ولقد دَخَلْتُ البيتَ يُخْشَى أَهْلُــهُ بعـدَ الهـدْوَ وبعـدَ ماسقط النّــدى

إن تخفيف الهمزة ظاهرة لغوية متحضرة؛ فهو يجنح باللغة نحو السهولة والرقة والليونة. ولكن لغة شعر قريش لم تخل من مظاهر تحقيق الهمزة في المواضع التي يجوز فيها التخفيف، ومن ذلك قول الزبير بن عبد المطلب:[2]

ضعيفاً بجنْبِ الكَأْس قَبْضُ بَنانِـهِ كليلاً علـى وجـهِ النديـم أظافِــرُهْ

وقول عبدا لله بن الزبعرى:[3]

كلُّ بُؤْس ونعيــــم زائـــــلٌ وبناتُ الدَّهــــر يَلْعَبْــــنَ بكـُـلّ

وقول حذيفة بن غانم في مدح أبي لهب:[4]

.... وسدّتَ وليداً كلّ ذي سُؤْدُدٍ غَـمْر

وقول أبي طالب:[5]

أفي فَضْـل حَبْـل لاأبـاكَ ضَرَبْتَــهُ بِمِنْسَـأةٍ قـد جـاء حَبْـلٌ بـأَحْبُل

وقول أبي زمعة:[6]

إنْ تَسْأَلي أَيْمانَنا لا نَقْبَــــــل

إنّ تحقيق الهمزة تارة، وتخفيفها أخرى في لغة قريش ظاهرة واضحة، ويمكن تعليلها بتأثر قريش بالقبائل التي تحقق الهمزة، وبأن قريشاً كانت تعيش آنذاك في مرحلة الانتقال من البداوة إلى التحضر. ولما كان تحقيق الهمزة ظاهرة بدوية فإن وجودها في شعر قريش أمر مقبول ومنسجم مع منطق التطور اللغوي، حيث يتعايش القديم مع الجديد، ونمثل لذلك بقول ضرار بن الخَطّاب:[7]

---

(1) جمهرة نسب قريش ١/٤٠٩. وأصل الهدوّ: الهدوء (انظر من لغات العرب لعبد الجواد الطيب ص٨٨).

(2) حذف من نسب قريش ص٢٢. ويجوز: الكاس.

(3) الحماسة البصرية ١/١٠٠. ويجوز: بُوسٍ.

(4) سيرة ابن هشام ١/١٦١. ويجوز: سُوْدد.

(5) نسب قريش ص٤٢٤. ويجوز: مِنْسَاة. وربما اتجاه الوزن الى تحقيق الهمزة (مِنْسَأَة).

(6) جمهرة نسب قريش ١/٤٣٢. ويجوز: تَسَلِي.

(7) الحماسة الشجرية ١/٥٨.

ألْم تَسْأَلي النـاس عـن شأننـــــا ولم يُنْبِ بالأمـــر كالخابـــــر

فالشاعر خفف همزة (ينبئ)، وكان باستطاعته أن يخفف في الشطر الأول فيقول:

ألم تَسَلِي الناسَ عن شأننـــــا

ولكن ضراراً آثر الهمز، وقدم لنا في ذلك البيت صورة من تعايش الهمزة والتخفيف في لغة قريش.[1]

والظاهرة الصرفية الثانية الدالة على تحضر لغة شعر قريش هي عدم إدغام التماثلين، ومن ذلك قول الحارث بن هشام:[2]

وعلمت أنّي إنْ أُ قاتِلْ واحداً أُقْتَــلْ ولايَضْــرُرْ عـــدوّيَ

وقول أبي طالب:[3]

نشأنا بها والناس فيها قلائـــلّ فَلَـمْ ننفكِـكْ نـزدادُ خـيراً

عدم الإدغام في البيتين السابقين ليس ضرورة؛ فالإدغام تميمي، والإظهار حجازيّ وفي ذلك يقول المبّرد في حديثه عن الإدغام المثلين في الفعل الثلاثي المجرّد: «أمّا أهل الحجاز فيجرونه على القياس الأصلي، فيقولون: اُرْدُدْ، واغضض».[4]

٢ـ الجانب المعجمي

لشعر قريش الجاهلي أهمية ملحوظة في كتب اللغة والمعاجم؛ فهو مادة استشهاد في مواضع كثيرة في تلك الكتب، ومن ذلك قول أبي علي القالي في أماليه مفسراً معنى الميل: «ميله: فضله وزيادته... وهذا كقول ابن الزبعرى:

وأقمنا ميلَ بَدْرٍ فاعتدلْ»[5]

وجاء في أمالي المرتضى: «وبيضة البلد: الذي لانظير له، وإن كان قد يستعمل

---

(١) روي أن تميم هم أصحاب النبر (تحقيق الهمزة) وأن أهل الحجاز - وقريش منهم، لاينبرون إلاّ اضطراراً (من لغات العرب ص٨٥). وقد مرّ بنا أن النبر في شعر قريش جاء في غير مواضع الاضطرار. وربما كان ذلك النبر لا أصل له، وأنه أثر مما استقر عليه نطق الفصحى وكتابتها.

(٢) الأغاني ٤/١٦٩.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٢٠.

(٤) الكامل في اللغة ص٢٩٤. وانظر من لغات العرب ص١٤٣.

(٥) الأمالي ١/١٤٢.

ذلك في المدح والذم على سبيل الأضداد.... فمِمّا جاء من ذلك في المدح قول أخت عمر بن وُدّ ترثيه، وتذكر قتل أمير المؤمنين عليه السلام له:

لو كانَ قاتلُ عمرو غيرَ قاتِلِهِ ... لكنتُ أبكي عليه آخرَ الأبَدِ
لكنّ قاتِلَهُ من لا يعابُ بهِ ... مَنْ كان يُدْعَى قديماً بيضةَ البَلَدِ[1]

وقد أكثر أصحاب المعاجم من الاستشهاد بشعر قريش الجاهلي، ونمثل لذلك ببعض شواهد ابن دريد في جمهرته ومن ذلك «الفغا: قشرة تركب البسرة، فتغلظ ويركبها التراب، قال الشاعر، أبو سفيان بن الحارث:

أحسانُ إنا يابنَ آكلةِ الفغا ... لَعمرُكَ نغتالُ الخروقَ كذلك»[2]

وقول ابن دريد أيضاً: «الجرّ: سفح الجبل حيث علا من السهل إلى الغلظ. قال الشاعر عبدالله بن الزبعرى السهمي يذكر وقعة أحد:

كم ترى بالجَرِّ من جمجمةٍ ... وأكُفٌّ قد أُتِرَّتْ ورجلْ »[3]

ولشعر قريش الجاهلي أهمية أخرى بالنسبة إلى مصنفي المعاجم العربية؛ فهو يتضمن ألفاظاً استخدمت في معانٍ لم تثبتها المعاجم العربية، وقد وقف محقق القسم المطبوع من جمرة نسب قريش عند بعض تلك الألفاظ، ومن ذلك استعمال كلمة (البريد) بمعنى الرسالة في قول أبي أحيحة سعيد بن العاص:[4]

ياراكباً إمّا عَرَضتَ فَبَلّغاً قومي بَريدَا

واستعمال كلمة (العوادي) بمعنى جوانب الأودية في قول أبي زمعة مشيداً ببني مخزوم وبني عبد مناف:[5]

وقد منعوا الظواهر غير شكٍّ ... إلى جَنْبِ البواطن فالعَوادي

وفي شعر قريش الجاهلي كلمات لم تثبتها المعاجم كالفعل (اتّسل) من

---

(1) أمالي المرتضى ٢/٧-٨.

(2) جمهرة اللغة ٣/١٦٤.

(3) المصدر السابق ١/٥٠. واستشهد صاحب الجمهرة بشعر قريش الجاهلي في مواطن كثيرة. انظر ١/٤٢، ٢٧٢، ١٩٣، ٣١٨، و٢/٥٨، ١٦٤، ٢٢١، ٢٣٨، ٣٠٤، ٣٢٥، ٣٣٦، و٣/١٧، ٢٦٧، ٤٨٤.

(4) جمهرة نسب قريش ١/٤٢٨.

(5) المصدر السابق ١/٤٣٨. والعوادي (هنا): جوانب الأودية. يقول المحقق: لم أجدهم قالوا: العادية: جانب الوادي، ولكنهم ذكروا عَدوة الوادي. وهي جانب الوادي وحافته، وهذا منه إن شاء الله.

الوسيلة، في قول أبي زمعة:[1]

أسامي الأكرمين بجلّ مالي إذا اتَّسَلَ الضعيف بغير زادِ

والمصدر (سرود) في قول أبي أحيحة:[2]

فَلأمدَحَنَّ الوافدينَ بِمَدْحَةٍ تأتي سَرُودَا

ومن سمات الجانب المعجمي في شعر قريش الجاهلي كثرة الألفاظ الدينية فيه؛ فمنزلة قريش الدينية أثرت في شعرها، وجعلته يزخر بالألفاظ الدينية المتصلة بعقيدة قريش ومقدّساتها. ومن ذلك: البيت والوصائل، وإناخة المشعرين، والحجرالمسود، وموطئ إبراهيم، والمروتين، والصفا، والصور، والتماثيل، والمشعر الأقصى، والإال، ومنى، والمزدلفة، والجمرة الكبرى، ويوم النحر، وشرب الحجيج، واللات والعزى، وإساف ونائلة، وهُبل، ومن تلك الألفاظ أيضاً الله، وربّ البيت، والنبيّ، والكتب، وإبراهيم، وموسى، والبيعة.

* * * * *

إن لغة شعر قريش الجاهلي تُظهر تَحَضّر القبيلة؛ فهي لغة تميل إلى السهولة والرقة والوضوح؛ فلانكاد نحسّ بالفاصل الزمني بين عصرها وعصرنا، وظهر أثر التحضر في ميل تلك اللغة إلى تخفيف الهمز وفك الإدغام تماشياً مع السهولة والرقة. ولشعر قريش أهمية من جهة الاستشهاد به، ووجود ألفاظ فيه استخدمت في معان لم تثبتها المعاجم العربية، وألفاظ أهمل ذكرها في المعاجم، كما كثرت فيه الألفاظ الدينية المنبعثة من واقع الحياة القرشية.

---

(1) المصدر السابق ١/٤٣٧. ويقول المحقق: لم يذكروا (اتّسل) في معاجم اللغة.

(2) المصدر السابق ١/٤٢٨. والسّرود: من قولهم سرد الحديث يسرده سرداً: ساقه سياقاً جيداً متتابعاً مستعجلاً فيه. يقول المحقق: سرود: بناء لم تذكره كتب اللغة. وهو جائز.

-٣-

التصوير

١ـ التصوير الجزئي

يزخر شعر قريش الجاهلي بألوان التصوير الجزئي المعهـودة في علـم البيـان، وهي التشبيه والاستعارة والكناية. ومن التشـبيهات الجيـدة قـول العبـاس بـن عبـد المطلب:(١)

أبى قومُنـا أنْ يُنصفونـا فَأَنصفَـــتْ قواطِـعُ في أَيْمانِنـا تَقْطُـرُ الدّمَـا
إذا خالطتْ هامَ الرّجـال رأيتهـــا كبيض نَعام في الوغَى قد تَحطَّمـــا

فقد شبه رؤوس الرجال وقد خالطتها سيوف بني هاشم ببيض النعام المتحطم. ومثل ذلك قول هبيرة بن أبـي وهـب المخزومـي مشـبها رؤوس المقتولـين مـن بـني النجار بأحد بقطع قشر بيض النعام أو بحنظـل تتلاعـب به الريـاح، وتَسـفّ عليـه التراب:(٢)

كأنّ هامَهُمُ عند الوغى فِلَـــقٌ من قَيْض رُبْدٍ نَفتْهُ عن أداحِيهـــا
أوحَنْظَلٌ ذَعْذَعَتْهُ الريحُ في غُصُنٍ بـــال تَعَـــاوَرَهُ منهـــا

وقريب من ذلك قول عمرو بن العاص مشـبهاً رؤوس مـن قتـل مـن الخـزرج بأحد بالبروق:(٣)

كـأنَّ رؤوسَ الخزرجـيِّينَ غـُدْوةً وأَيْمـانهـــم بالمشرفيـــــــــةِ بَرْوَقُ

وشبهت صفية بنت مسافربن أبي عمرو الأموية مَن قتل مِن قومها ببدر بعمد الخباء التي تكسّرت في قولها:(٤)

كانوا سُقُوبَ سماء البيتِ فانقصفَتْ فَأصبحَ السَّمْكُ منها غيرَ ذي عَمَدِ

ومن تشبيهات الحرب قول ضـرار بـن الخطـاب في وصـف وميـض السـيوف

---

(١) الحماسة البصرية ٥٢/١.

(٢) سيرة ابن هشـام ٦٤/٣. والقيـض: قشـر البيـض. والربـد: النعـام. والأداحـي: أمـاكن تبيـض فيهـا النعـام. والسوافي: الرياح التي تحمل التراب والرمل.

(٣) المصدر السابق ٧٤/٣. والبروق: نبات له أصول تشبه البصل.

(٤) المصدر السابق ٢٨٣/٢. والسقوب: عمد الخباء.

المشرعة بأيدي المحاربين:[1]

بأيدينا صوارمُ مُرْهفاتٌ ... نَقُدّ بها المفارقَ والشؤونا
كأنّ وميضَهُنّ مُعَرَّياتٍ ... إذا لاحتْ بأيدي مُصْلِتِينا
وميضُ عَقيقةٍ لمعتْ بليلٍ ... ترى فيها العقائقَ مُسْتَبِينا

وشبه ضرار اختفاق الراية بجناح النسر بقوله:[2]

وَجَرَّدوا مشرفياتٍ مُهَنَّدَةٍ ... ورايةً كجناح النَّسْر تَخْتَفِقُ

وشبّه عبدالله بن الزبعرى الفرس الضامرة الشديدة الانقضاض بذئب ينقض، وقد غفل عنه الرقباء بقوله:[3]

مِنْ كلِّ سَلْهَبَةٍ وأجردَ ... كالسِّيد بادرَ غَفْلَةَ الرُّقَباب

والحسية ظاهرة في شعر قريش، وهي من الظواهر السائدة في الشعر الجاهلي، وذلك لأنّ «الأشياء الحسية أقوى ظهوراً، وأسرع إدراكاً، وأقرب منالاً، ولاتحتاج في إدراكها إلى تعب عقلي أوكدّ ذهني، وهذه أنسب الأمور للعقليات التي لم تُمَرّن على التعمق في التفكير أو إجهاد العقل في البحث والتأمل».[4] وهذا الحكم لايحظى بصفة الشمول؛ وفمن الدلائل على التعمق في التفكير تشبيه أمر عقلي بشيء حسّي، كما في قول هبيرة بن أبي وهب:[5]

وإنّ كلامَ المرءِ في غير كُنْهِهِ ... لكالنبل تَهوي ليس فيها نصالها

فقد شبه الكلام الذي يخلو من الواقعية والصدق بالنبال التي يُرمى بها، وهي بغير نصال، والجامع بين الطرفين ضياع الجهد، وافتقاره إلى الفائدة والنفع.

تلك نماذج تبين اقتدار شعراء قريش على تلوين شعرهم بالتشبيه، وكذلك الأمر في الاستعارة والكناية، فمن الاستعارة قول أبي طالب:[6]

ودونَ مُحَمّدٍ منّا أسودٌ ... هُا في كلّ معركةٍ هَمِيمُ

---

(1) المصدر السابق ١٥٦/٣. والعقيقة من البرق: مايبقى في السحاب من شعاعه.

(2) المصدر السابق ٧٥/٣.

(3) المصدر السابق ١٥٨/٣. والسلهبة: الطويلة.

(4) في تاريخ الأدب الجاهلي ص٣٦٣.

(5) سيرة ابن هشام ٤٧/٤.

(6) المصدر السابق ٥٩/١.

وقوله يمدح من قام بنقض صحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم:[1]

أعانَ عليها كلّ صقرٍ كأنّهُ ... إذا مامشى في رفرفِ الدّرعِ أحْرَدُ

ومن الكناية قول الزبير بن عبد المطلب مشيراً إلى شدّة قطع سيفه:[2]

وينهى نخوةَ المختالِ عنّي ... غموضُ الحدِّ ضَرْبَتُهُ صَموتُ

وكنى ضرار بن الخطاب عن طول القامة والشجاعة باسترخاء الحمائل في قوله:[3]

شُمٌّ بها ليلُ مُسْتَرْخٍ حَمَائِلُهُمْ ... يَسْعَونَ للموتِ سعياً غيرَ دَعْداعِ

وكنى أبو طالب عن الموت باصفرار الأنامل في قوله:[4]

فيالكَ من ناعٍ حُبِيتَ بآلةٍ ... شراعيةٍ تَصْفَرّ منها الأناملُ

تلك نماذج من التصوير الجزئي في شعر قريش الجاهلي، ولسائل أن يقول: أين الأصالة والإبداع في ذلك التصوير؟

لقد ترافقت نهضة شعر قريش مع بعثة الرسول (ص)؛ فهي نهضة مُتَأخرة، جاءت بعد تبلور مناحي التصوير في الشعر الجاهلي تبلوراً أساسه العلاقات الحسية المستمدة من البيئة، ولما كانت تلك البيئة متشابهة الملامح، وتكاد تخلو من جهد الإنسان لتطويرها، فإنّ الشعراء تعاوروا صوراً متشابهة، ولم يستطيعوا الفكاك منها، وقد وعى شعراء جاهليون ذلك، ومنهم امرؤ القيس في قوله:[5]

عُوْجَا على الطَّلَلِ المحيلِ لَعَلَّنا ... نبكي الدّيارَ كما بكى ابنُ حُمامِ

ومن البداهة أن يترسم شعراء قريش خطى غيرهم، ومن تأثرهم بغيرهم في مجال التصوير قول ورقة بن نوفل مشبهاً آثار الديار بالصحيفة:[6]

لمنْ الدّيارُ غَشِيتُها كالمُهرَقِ ... قَدُمَتْ وعهد جَديدها لم يُخْلِقِ

---

(1) المصدر السابق ٢/٢٠.

(2) المعاني الكبير ص١٠٧٥. وفيه: "السيف إذا كان قاطعا مرّ في العظم سريعاً فلم يكن له صوت".

(3) سيرة ابن هشام ٣/٧٥. وغير دعداع: غير ضعيف.

(4) الخزانة ٤/٢٤٥.

(5) العمدة ١/٨٧.

(6) جمهرة نسب قريش ١/٤٢٠.

وهذا تشبيه تعاوره القدامى، ومنهم الحارث بن حلّزة في قوله:[١]

لمنْ الديارُ عَفَـوْنَ بالحَبْـــس ... آياتهـا كمهـــارق الفُــرْس

وتشبيه عبد الله الزبعرى لآثار الديار بالكتابة في قوله:[٢]

حتّى الديارُ مَحَا معارفَ رَسْمِها ... طـولُ البِلَـى وتـراوحُ الأحقـابِ

فكأنما كتبَ اليهـودُ رُسُومَهَـــا ... إلا الكنيفَ ومعقـــدَ الأطنـــابِ

قديم، فهو يشاكل قول المرقش الأكبر:[٣]

الدارُ قَفْـرٌ والرســـومُ كمـــا ... رَقَّشَ في ظَهْرِ الأديـــم قَلَـــمْ

وقول لبيد بن ربيعة:[٤]

وجلا السيولَ عـن الطول كأنّهـا ... زُبُرٌ تـجدُّ مُتونَهـا أقْلامُهـــا

ومن الصور المتداولة تشبيه الدرع بالنّهي، بجـامع الصفـاء بـين حديـد الـدرع وماء النهي كما في قول هبيرة بن أبي وهب:[٥]

هذا وبيضاءَ مثل النّهي محكمـة ... نيطتْ عَلَيَّ فما تبدو مساويهـــا

فالشاعر يحذو حَذْوَ آخرين سبقوه، ومنهم ثعلبة بن عمرو العبدي في قوله:[٦]

بَيْضاءَ مثل النّهي ريْـحَ، ومَـــدَّهُ ... شآبيبُ غَيْـثٍ يَحْفِـشُ الأُكْـمَ صنائِفُ

والجميع الأسدي في قوله:[٧]

مُدَّرِعاً رَيْطَـــةً مُضَاعَفَــــةً ... كالنّهْي وَ فّـى سِـرارَهُ الرِّهَــــمُ

ونرى الشاعر القرشي يعمد أحياناً إلى صورة خاصة، فيتكئ عليها، ويسلكها في شعره، ومن ذلك قول ضرار بن الخطاب في مطلع قصيدة:[٨]

---

(١) شرح اختيارات المفضل للتبريزي ص٦٣٢. والحبس: موضع.

(٢) سيرة ابن هشام ١٥٨/٣. الكنيف: حظيرة الماشية. والمقعد: الوتد. والأطناب: الحبال التي تشدّ بها الخيام.

(٣) شرح اختيارات المفضل ص١٠٥٥.

(٤) شرح القصائد العشر ص٢٠١. وزُبر: جمع زبور، وهو الكتاب.

(٥) سيرة ابن هشام ٦٤/٣. والنّهي: مطمأن من الأرض، له حاجز يمنع الماء أن يفيض منه. ونيطت: علقت.

(٦) شرح اختيارات المفضل ص١٢٢٨. الشاعر يصف صفاء حديد الدرع، فهو كصفاء ماء النهي، قد ضربته الريح فأزالت كدره، ومدّ ماءه دفعات أمطار فكثر. ويحفش: يقشر وجه الأرض لشدة وقعه.

(٧) المصدر السابق ص٢٠٤. والريطة (هنا) الدرع. والسرار: خير موضع في الوادي. والرهم: المطر الخفيف.

(٨) شعر ضرار بن الخطاب ص٥٧. والعرندسة: الناقة القوية الشديدة.

ومشفقةٍ تظنُّ بنـــا الظّنـــونا وقَـدْ قُدْنـا عَرَندسـةً طَحُـونا

ومن الظاهر أن ضراراً قد نظر إلى قول عمرو بن كلثوم في معلقته:[1]

متى ننقـل إلى قـوم رَحَانـا يكونـوا في اللقـاء لهـا طَحينـا

وقوله فيها أيضاً:[2]

قَرَيْناكُـمْ فَعَجَّلْنـا قِراكُـمْ قُبيـلَ الصبـح مِـرادةً طحـونا

ومن ذلك تشبيه السيوف بأيدي المحاربين بالمناديل، في قول هبيرة بن أبي وهب:[3]

وصارتْ بأيديها السيوفُ كأنّها مخاريقُ ولْـدان، ومنهـا ظِلالُهـا

وذلك موجود في قول عمرو بن كلثوم:[4]

كأنّ سيوفنـا فينـا وفيهـمْ مخاريـقٌ بأيـدي لاعبينـا

إن اتكاء شعراء قريش على صور من سبقهم يدل على دراية القرشيين العميقة بالشعر الجاهلي، وقد ساهمت تلك الدراية في صقل مواهب الشعراء، وفي إقدارهم على إبداع صور أصيلة، كقول ضرار بن الخطاب مشبهاً أفلاق هامة فارس ممزقة بالسيف بقروة الراعي:[5]

وفارسٌ قد أصاب السيفُ مَفْرِقَهُ أفلاقُ هامَتِهِ كَقَـرْوَةِ الرّاعـي

وقول أبي طالب مشبهاً أعداء الرسول(ص) بالخدّ اللطيم:[6]

سَيَعْلَمُ مَعْشَرٌ ظَلَموا وعَقّـوا بأنّهمُ هُمُ الخَـدُّ اللطيـمُ

وكذلك تشبيه الجبان، المفتقر إلى الثقة بالنفس بالظبية في قول عثمان بن الحويرث:[7]

وإنّـكَ يـابنَ شـهلةَ أمُّ رئْـم خفيـفُ القلـبِ مجرورُ اللسـان

---

(1) شرح القصائد العشر ص٣٣٢.

(2) المصدر السابق ص٣٦٠. والمرداة: الصخرة.

(3) سيرة ابن هشام ٤/٤٧.

(4) شرح القصائد العشر ص٣٣٩.

(5) شعر ضرار بن الخطاب ص٤٨.

(6) الحماسة الشجرية ١/٥٩.

(7) معجم الشعراء ص٨٨. والرئم: الظبي الأبيض الخالص البياض.

ومن الكنايات الطريفة قول الزبير بن عبد المطلب يصف نديمه:[1]

ضعيفاً بجنبِ الكأس قَبْضُ بنانِهِ   كليلاً على وجه النديم أظافِرُه

فالشطر الأول كناية عن تعلق النديم بالخمرة وتمكنها منه، والثاني كناية عن حسن المنادمة. ومن الصور الأصيلة الإشارة إلى الإيغال في القدم في قول عمارة بن الوليد المخزومي:[2]

خُلِقَ البيضُ الحِسَانُ لنا   وجيادُ الرَّيْطِ والأُزُرُ

كابراً كنا أحقَّ به   حين صِيغَ الشمس والقمرُ

لقد اتّكأ شعراء قريش في تصويرهم على الصور الجزئية المألوفة في الشعر الجاهلي، ولكنهم أبدعوا إلى جانب ذلك صوراً طريفة تنمّ عن أصالتهم اقتدارهم.

٢- لوحات فنية

إن توظيف ألوان البيان لتكوين لوحات فنية كان قليلاً في شعر قريش الجاهلي، ويمكن إرجاع ذلك إلى ثلاثة أسباب هي:

الأول: أن أكثر شعراء قريش لم يتمكنوا من تشكيل صور كلية لضعف عودهم، وتضاؤل خيالهم الشعري عن خلق التلاؤم والانسجام بين الصور الجزئية التي أبدعوها، ونمثل لذلك بقول أبي طالب مادحاً الرجال الذين نقضوا صحيفة مقاطعة قريش لبني هاشم:[3]

قعوداً لدى خَطْمِ الحَجُون كأنَّهمْ   مقاولةٌ بَلْ هُمْ أعزُّ وأمجدُ

أعانَ عليها كلّ صَقْرٍ كأنّهُ   إذا مامشى في رَفْرف الدرع أَحْرَدُ

جَريٌّ على جُلّى الخطوبِ كأنّه   شِهابٌ بكفي قابس يَتَوقّدُ

فالصور الجزئية في الأبيات السابقة ارتبط بعضها إلى بعض بمعاني السيادة ولكنها تبدو متنافرة شكلاً وتفتقر إلى التلاؤم الحسّي الذي يخلق منها لوحة كُلِّيَّة يمكن تخيلها دفعة واحدة، أو تخيلها كمشاهد متتابعة ومترابطة؛ فالقعود الملكي عند خطم الحجون لا يتفق مع مشهد الصقر المعروف بانقضاضه السريع، وهذا

---

[1] حذف من نسب قريش ص٢٢.

[2] الأغاني ٩/٤٩.

[3] سيرة ابن هشام ٢/٢٠.

لاينسجم مع المشية البطيئة للمحارب المثقل بآلة الحرب؛ ولما كانت آلة الحرب حديداً قاتما لونه فإن التوافق بين آلة الحرب والشهاب الساطع بعيد أيضاً، فالصور السابقة رصف بعضها إلى جانب بعضها الآخر، وهي عاجزة عن تحقيق متعة الاستمتاع المتتابع والمتواصل بها.

الثاني: أن شعرقريش الجاهلي ارتبط ارتباطاً قوياً بالأحداث المتلاحقة والمهمة في عصر البعثة؛ فكان أكثر ذلك الشعر ردّ فعل على تلك الأحداث، ولم تتجاوز القصيدة منه الخمسة عشر بيتاً إلا قليلاً، ولم تتجاوز العشرين إلا نادراً.

لقد انشغل الشاعر بالموضوع، ولم يحتفل بالشكل الفني، وابتعد بذلك عن الاستطراد في التصوير، وبذلك فقدت الوسيلة الرئيسة التي اتكأ عليها الشاعر الجاهلي لرسم لوحاته الفنية، ويمكن توضيح ذلك بالوقوف عند تشبيه الفرس بحمار الوحش في قول هبيرة بن أبي وهب:[1]

وقد حَمَلْتُ سلاحي فَوقَ مُشْتَرَفٍ ساطٍ سبوح إذا تجري يُباريها

كأنّه إذ جَرَى عَيْرٌ بفَدْفَدَةٍ مُكَدَّمٌ لاحِقٌ بالعُونِ يَحْمِيها

فالناظر في الصورة السابقة ينتظر استمرار الشاعر في وصف حمار الوحش القوي، وهو يتعرض للمخاطر، ويدافع عن نفسه وعن أتنه جرياً على عادة الشعراء الجاهليين في عرض لوحة تصويرية مفعمة بالنشاط والحركة والقوة، تنتهي حدودها نهاية تتوافق مع غرض الشاعر من إنشاء القصيدة، ولكن هبيرة اكتفى بمشهد واحد، مشهد حمار الوحش، وهو يلحق بقطيع الحمر الوحشية في الفلاة ليحميها، ولم يتبع ذلك بتصوير المخاطر التي تواجهه والحمر، بل أتبع ذلك بصورة جديدة للفرس، وهي قول هبيرة:

من آل أعوجَ يرتاحُ النَّدِيُّ له كجِذعِ شعراءَ مُسْتَعْلٍ

وهذه الصورة ترتبط بسابقتها من جهة المعنى؛ فكلتاهما تبرزان بعض صفات الفرس المثلى كالسرعة والأيد والأصالة؛ ولكن التنافر الحسّيّ بينهما ظاهر، وذلك لأن المشبه به في الصورة الأولى من عالم الحيوان(حمار الوحش) وفي الصورة الثانية من عالم النبات (النخلة الشعراء).

---

[1] المصدر السابق ٣/٦٣-٦٤. والساطي: بعيد الخطو إذا مشى. والعون: القطيع من حمار الوحش.

الثالث: أن بيئة قريش لاتساعد الخيال على الانطلاق، فهي طبيعة قاسية في وادٍ غير ذي زرع تحيط به الجبال الجرد، وتتخلّله الشعاب الوعرة؛ وهي تفتقر إلى الجمال. ويضاف إلى ذلك أن القيمة المادية، ولها الصدارة في مجتمع قريش، تتعامل مع حقائق الأشياء، وتحدّ من قدرة التخييل.

وثمة لوحات شعرية تمتلك قدراً كبيراً من الحيوية والانسجام في شعر قريش، ومن ذلك قول دُرّة بنت أبي لهب، تصف قومها، في حروب الفجار:(١)

لاقَوا غداةَ الرّوعِ ضَمْزَرَةً	فيها السَّنَوَّرُ من بني فِهْرِ
مَلْمُومَةً خَرْسَاءَ تَحْسَبُها	لَمّا بَدَتْ موجاً من البحرِ
والجُردُ كالعِقْبانِ كاسِرَةً	تَهْوي أمامَ كتائبٍ خُضْرِ
منها ذُعَافُ الموتِ أَبْرَدُهُ	يَغْلي بهمْ وأَحَرُّه يَجْري
قومٌ لَو أنَّ الصخرَ صالدَهُمْ	صَلُبوا ولانَ عرامِسُ الصخرِ

فالشاعرة تتحدث عن جموع قومها، وقد توجهت إلى ملاقاة الأعداء مسرعة، فسقط بعضهم قبيل الالتحام خوفاً ورعبا، وقتل آخرون عند اللقاء، وكان التصوير سبيل الشاعرة لإبراز تلك الأفكار، فبنو فِهر الغلاظ الشداد يبدون لكثرتهم، وللبسهم الدروع ولاجتماع بعضهم إلى بعض مثل موج البحر، وهم يمتطون الخيول القوية السريعة الانقضاض كالعقبان الكاسرة، وإنهم لذوو نسب عريق، يتجلى في خضرة أديمهم، وكتائب بني فهر تحمل موتاً ذعافاً، وهو نوعان: بارد يغلي في أجسادهم ويذوقه الأعداء وقت الالتحام؛ وحارّ يجري، فيسبق الفرسان القرشيين إلى أعدائهم، وهؤلاء الفرسان أولو بأسٍ شديد، فهم أصلب من الصخر الصلد القاسي.

والمشاهد في تلك الأبيات متلاحقة ومترابطة؛ فهي تبدأ بظهور بني فهر في الأفق، ثم نراهم يقتربون من العدو، والجرد تهوي أمامهم، والخوف يقع في نفوس الأعداء هيبة ورهبة من اللقاء، ويلي ذلك الالتحام بالعدو. ومن مظاهر التلاؤم في الأبيات أنها تمتاز باللون القاتم؛ وهذا ظاهر في لون موج البحر، والعقبان، والكتائب الخضر، وأنها تمتاز بالحركة المتتابعة السريعة؛ ويتجلى ذلك في حركة

---

(١) الوحشيات ص٦٦. والضمزرة: السوء والغلظ. وذلك وصف لكتيبة قومها. والسنور: لبوس من جلد كالدروع. وخضر: جمع أخضر. وهي السمرة. وبها تفاخر العرب.

موج البحر، وحركة الجياد وهي تهوي، وجريان ذعاف الدم سابقاً الفرسان إلى الأعداء، ويكمل التصوير في الإفصاح عن شدّة انفعال الشاعرة وإعجابها بقوة قومها المدمِّرة، فموج البحر والعقبان الكاسرة والسم الذعاف، ومصالدة الصخر تجسيم لقوة كتيبة بني فهر التي لاتقهر.

ومن اللوحات الملحمية البديعة قول العاص بن وائل السَّهمي في وقعة كانت لقريش على قيس عيلان:[1]

لما أتَيْنا بني عَيْلانَ قاطِبةً ... قد أَجْمَعُوا أمْرَهُم للحَيْنِ واختَلَفُوا

فعاينوا جَحْفَلاً كالموج زَيَّنَهُ ... بيضُ الصوارم والماذِيُّ والحَجَفُ

يَمْشُونَ مَشْيَ الجمال البُزْل سامِيةً ... جُرْدَ المناكبِ في أعناقِها هَيَفُ

فَرَّتْ سُلَيْمٌ، وقِدماً قال قائِلُهُم: ... فِرّي، سُلَيمُ، فإنَّ الموتَ مُزْدَلِفُ

فكان يومٌ هَوَتْ فيه سَراتُهُمُ ... وخامَتِ المِيْلُ والأكفالُ فانكشَفُوا

وأدبرتْ هَرَباً كعبٌ وإخوَتُها ... وابنا بغيض، وكَعْبٌ مَعْشَرٌ كُشُفُ

وقالَ عوفٌ، وفيه الرمحُ معترضٌ: ... ياقيسُ، أين؟ فما عاجوا وماعَطَفُوا

وقال قائلهم ـ والموتُ يَرْهَقُهُمْ ـ: ... أَسْرَفْتُمُ، فَأَجَبْنا: إنَّنا سُرُفُ

لقد صوّر العاص هروب قبائل قيس بأسلوب غير مزدحم بألوان البيان، ولكنه غني بالحوار، والوصف السردي لما تراه العين، وتسمعه الأذن، وقدّم بذلك لوحة تفيض بالحيوية، وتجعل هروب قبائل قيس، وبطش قريش بها مشاهد متتالية مترابطة تَمْثُلُ في مخيلة من يستمع إلى هذه الأبيات أو يقرأها.

* * *

لقد استطاع شعراء قريش أن يبتدعوا صوراً أصلية تدل على اقتدارهم، ولكن ذلك لايعني خروجهم من دائرة الشعر الجاهلي بعامة، وفيها نلمس جنوح الخيال إلى الحِسيَّة وتعاور الشعراء لصور مألوفة؛ ومن الملاحظ افتقار ذلك الشعر إلى اللوحات الفنّية التي تقدم صوراً مترابطة منسجمة تدل على الرويّة، والموهبة المصقولة المدرّبة.

---

[1] الحماسة الشجرية ١/١٥٥-١٥٦. والماذي: الدرع اللينة، والسلاح كله أيضاً. والحجف: جمع حجفة، وهي ترس من جلد. والمزدلف: المقترب. وخامت: جبنت ونكصت. والميل: الذين لا سلاح معهم والجبناء. والأكفال: الذين همهم في الحرب التلأخر والفرار.

-٤-

بناء القصيدة

إن المقطعات هي الشكل السائد في شعر قريش الجاهلي، وقصائده يغلب عليها القصر، ولايتجاوز عدد أبيات الواحدة منها العشرين إلانادراً.[١] وهذه السمة في شعر قريش يمكن إرجاعها إلى ثلاثة أسباب، هي:

الأول: غلبة الارتجال، فأكثر ذلك الشعر وليد معارك متتابعة،[٢] فالشاعر القرشي وقد نمت موهبته في خضم الصراع مع الإسلام - كان همه أن يعبر عمّا يعتلج في صدره من مشاعر ثائرة، تأبى أن تتعمق في نفسه، كي تخرج في إطار فني، تراعى فيه تقاليد القصيدة العربية الجاهلية، وقد شارك شعراءَ قريش في هذه السمة شعراءُ المدينة الذين تجنبوا إطالة القصائد، ولم يحفلوا كثيراً بمراعاة تقاليد القصيدة الجاهلية؛ فالأحداث تتلاحق، وعلى شعراء مكة والمدينة أن يتفاعلوا مع تلك الأحداث، وأن يسجلوها في أشعارهم، فاهتموا بالغرض، وأهملوا سنن الشكل الفني للقصيدة، ويضاف إلى ذلك أن الصراع الشعري بين مكة والمدينة غلب عليه طابع المناقضات، فكان التأثر والتأثير متبادل بين شعراء المدينتين، فانطبع شعرهما بقصر النفس، وغلبت على قصائده وحدة الموضوع.

الثاني: أن طبيعة الحياة القرشية تركت آثارها على شكل القصيدة؛ فالشاعر القرشي الذي ترعرع في بيئة تجارية انطبع تفكيره بالأساليب التي توصله إلى هدفه بأقصر الطرق، وأقلها كلفة، وأكثرها وضوحاً، والشاعر القرشي سكن مكة، ولم ينتقل طلباً للماء والكلأ، فالإقامة الدائمة في مكة تجعل المقدمة الطللية، والرحلة عبر الصحراء على الناقة القوية من المعاني المصطنعة، والبعيدة عن الواقع المعاش، ويضاف إلى ذلك أن التمسك بسنن القصيدة في عصر البعثة ـــ وهو زمن ازدهار

---

[١] تجمّع لديّ من شعر قريش الجاهلي (١٣٠) مقطعة، أكثر من نصفها يقع في ثلاثة أبيات أو أربعة، والقسم الآخر من المقطعات يضم (٥٦) مقطعة، عدد أبيات الواحدة يتراوح بين خمسة أبيات وتسعة. وأما القصائد فتجمع لدي منها (٢٧)، منها أربع تجاوز عدد أبيات كلّ منها العشرين.

[٢] انظر تاريخ الشعر السياسي لأحمد الشايب ص٧٤ ومابعدها.

الشعر القرشي - أضحى سمة تلازم شعر المديح المحترف بخاصة، ولما كان شعر قريش الجاهلي يخلو من المديح المحترف فإن إهمال السنن التقليدية يتوافق مع السمة العامة للشعر الجاهلي في تلك الحقبة.

الثالث: تطامُنُ الموهبة وضعف التجربة الشعريَّتين؛ فشعر قريش الجاهلي يقرب في خصائصه من خصائص بدايات الشعر العربي التي وصلت إلينا، وفيها تكثر المقطعات ويقل عدد أبيات القصائد، وتبرز أهازيج الحرب وأغاني العمل، وأناشيد الاستسقاء وغلبة الموضوع الواحد.(١)

لقد مرّت بنا نماذج شعرية تكثر فيها أهازيج الحرب، والمقطعات والقصائد ذات الموضوع الواحد، وأمّا أناشيد الاستسقاء فملحوظة في شعر قريش الجاهلي، ومنها قول أمية بنت عميلة العبدرية، زوج العوام بن خويلد، حين حفر بنو عبد الدار بئر أحراد:(٢)

نحنُ حَفَرْنا البحر أمّ أحراد لَيْسَتْ كَبَذّر النزود الجَمَادِ

فأجابتها ضرتها صفية بنت عبد المطلب:

نحنُ حَفَرْنا بَذّرْ تروي الحجيج الأكبرْ من مُقْبل ومُدْبرَ

وأمّ أحرادَ شرّ فيها الجرادُ والذّرّ وقَذَرٌ لا يُذْكَرْ

ويدل على تطامن الموهبة وضعف التجربة الشعريتين بروز السقطات في موسيقا الشعر الخارجية كالإقواء في قول هبار بن الأسود:(٣)

تويتُ ألْم تعلمْ وعلمكُ ضائرُ بأنّكَ عَبْدٌ للئام خدينُ

أتَرْجُو مُسَاماتي بأتياسِكَ جَعلتُ أراها دونَ كلّ قِرينِ

والإيطاء في قول هند بنت عتبة:(٤)

قَرْمَان لايَتَظَالمان ولايرامُ حماهما

ثم قولها بعد بيتين:

أسدان لايتذلّلان ولايرامُ حماهما

---

(١) انظر الشعر الجاهلي: مراحله واتجاهاته الفنية، لسيد حنفي حسنين، ص٢٤-٢٧.

(٢) فتوح البلدان ١/٥٧. وانظر الروض الأنف ٢/١٢٤-١٢٨، وفيهما أشعار أخرى مشابهة.

(٣) معجم الشعراء ص٤٧٣. وانظر شواهد أخرى في الطبقات الكبرى ١/٨١، وتاريخ الطبري ٢/٢٥٣.

(٤) الأغاني ٤/٢١٠.

ومن تلك العيوب سناد التوجيه[1] ، ونمثل له بقصيدة أميمة بنت عبد شمس في رثاء قتلى قومها في حروب الفجار، فحركة الحرف الذي قبل الروي المقيد في هذه القصيدة هي الفتح، ولكن الشاعرة لم تلتزم بتلك الحركة؛ ففي القصيدة سبع قواف مكسور في كل منها ماقبل الروي المقيد، وقافية واحدة مضموم فيها ماقبل الروي المقيد وإذا عرفنا أن عدد أبيات القصيدة ثمانية عشر بيتاً أدركنا شدة افتقار القوافي إلى الانسجام الموسيقيّ.[2]

ولأبي زمعة أبيات في رثاء قتلى قريش ببدر، وفيها يبرز تنافر حركة الرويّ بين خفض بالكسر، وارتفاع بالضم، وهذا نوع غريب من الشعر، أطلق عليه اسم القواديس، تشبيها بقواديس السائمة.[3]

إن الملاحظات السابقة على موسيقا الشعر الخارجية تؤكد ضعف التجربة، واعتلال الملكة الفنية، ويدل على ذلك أيضاً تنافر الألفاظ وركاكتها في بعض الأشعار، كما في قول قيس بن عديّ السّهمي:[4]

تنشّبتُ عيصي مابقيتُ لعيصهمْ — تَنَشُّبَ عيصِ القَشْعَةِ المتنشّبِ

وقول نبيه بن الحجاج:[5]

ولكلتُ المعروف كَيْلاً هَنِيّاً — يَعْجزُ الناسُ أنْ يكيلوا ككيلي

وقول عمارة بن الوليد:[6]

خَليّاً كأنّي لم أكنْ كنتُ فيهم — وليس الخِداعُ مرتضىً في التنادم

في الأحكام السابقة لاتشمل شعراء قريش كلهم، فتلك السقطات لانلحظها في شعر المشهورين كضرار بن الخطاب، وعبد الله بن الزبعرى وهبيرة ابن أبي وهب؛ فهؤلاء امتلكوا مواهب حسنة، وتجارب تعمقت في خضم الصراع بين شعراء مكة والمدينة.

---

(1) اختلاف حركة الحرف الذي قبل الروي المقيد.

(2) انظر القصيدة في هذه الدراسة ص١٣٥-١٣٦.

(3) انظر الأبيات في هذه الدراسة ص١٣٧.

(4) نسب قريش ص٣٧٥. وتنشب: تعلق. والعيص: الأصل. والقشعة: القطعة من الجلد اليابس.

(5) الأغاني ١٧/ ٢٨٢.

(6) المصدر السابق ١٨/ ١٢٣

ثمة محاولات في شعر قريش الجاهلي للسير على سنن القصيدة الجاهلية، ومن ذلك تسعة أبيات رواها المصعب الزبيري لمسافر بن أبي عمرو، وقد استهلّها مسافر بذكر الأطلال، ثم افتخر، واختتم الأبيات بالحكمة. يقول مسافر:[1]

غشـيت الـدارَ موحِشَـةً ... ولم تُؤنِـسْ بهـا أحَـدَا
عَفَـتْ آياتُهـا إلاّ ... أواريّـاً، ومُقْتَصَـدَا
وأشـعثَ مـاثلاً خَلَقـاً ... وسَـبْعاً حَوْلَـهُ رُكُـدَا
عَلِمـتُ بأنّنـا قِدْمـاً ... خُلِقْنـا سـادةً رُفُـدَا
ورثنـا المجـدَ عـن آبـا ... ئنـا فَنَمَـوْا بنـا صُعُـدَا
فـأيُّ منـاقبِ الخيـرا ... تِ لم نَشْـدُدْ بهـا عَضُـدَا
ألـم نَسْـق الحجيـجَ ونـنـ ... حـر الدّلاّفَـةَ الرُّفُـدا
وزمـزمُ مـن أَرُومَتنـا ... ونُرْغِـمُ أنـف مـن حَسَـدا
فـإنْ نَهـلكْ فلـمْ نهلـكْ ... وهَـلْ مـن خـالدٍ خَلَـدَا

ومن الملاحظ انقطاع المقدمة الطللية، وهي ثلاثة الأبيات الأولى، عمّا يليها من الفخر، ومن المحتمل أن يكون سبب الانقطاع يرجع إلى ضياع جزء من القصيدة، ويرجح ذلك أن ابن هشام أورد خمسة أبيات من القصيدة ثم قال: «وهذه الأبيات في قصيدة له».[2]

وروى الزبير بن بكّار خمسة أبيات لورقة بن نوفل، استهلها بالوقوف على الأطلال، ثم افتخر بمنعته وشرفه وشجاعته وحلمه وشدّة بطشه، وهي قوله:[3]

لمـن الديـارُ غَشـيتُها كـالمُهرقُ ... قدمـتْ وعهـدُ جديدهـا لم يُخْلَـق
إنّـي يرانـي الموعِـدِيُّ كـأنّني ... في الحِصْـن مـن نجـرانَ أوفي الأبلـق
في يـافع دون السّـماء مُمَـرّدٍ ... صَعْـبٍ تَـزلّ بـه بنـانُ المُرتقـي
ويَصدُّهـمْ عنّـي بـأنّي مـاجدٌ ... حَسَـبي وأصْدُقُهـمْ إذا مـا نَلْتقـي
وإذا اعَفوتُ عفوتُ عفواً بَيّنـاً ... وإذا انتصـرتُ بَلغـتُ رنـقَ المسْـتقِي

---

(1) نسب قريش ص١٣٥- ١٣٦- والأواري: حرالنار والشمس. والمقتصد: من القصيدة، وهي كل شجرة شائكة أول نباتها. والدلافة: الناقة التي تدلف بحملها، أي تنهض به. والرفد: الناقة التي تملأ إناءين عند الحلب.

(2) سيرة ابن هشام ١/١٣٩. الأبلق: حصن. اليافع: المشرف. الممرد: البناء المملس المرتفع. الرنق: الكدر.

(3) جمهرة نسب قريش ١/٤٢٠.

والانقطاع بين البيت الأول (الوقفة الطلية) والأبيات التالية (الفخر) واضح كما هو الأمر في أبيات مسافر السابقة.

ولعبد الله بن الزبعرى قصيدة مروية في سيرة ابن هشام، وفي عيون الأثر لابن سيد الناس، وقد استهلها ابن الزبعرى بقوله:[١]

حتى الديار محَا معارفَ رَسْمها ... طول البلى وتراوحُ الأحْقَابِ

فكأنّما كَتَبَ اليهود رسومَها ... إلا الكنيفَ ومعقِدَ الأطْنابِ

قَفْراً كأنّك لم تكن تلهو بها ... في نعمةٍ بأوانس أترابِ

وتلا ذلك بيت انتقل عليه الشاعر من الوقوف على الأطلال وتذكر أيام اللهو إلى مديح الأحزاب وذكر مسيرهم إلى المدينة ومحاصرتهم المسلمين، يقول ابن الزبعرى:

فاتركْ تذكّر مامَضَى من عيشةٍ ... ومحلّةٍ خَلَق المقام يبابِ

واذكرْ بلاءَ معاشر واشكرهمُ ... سارُوا بأجمعهمْ من الأنصابِ

فالمقدمة الطللية قصيرة، ولكن الشاعر كان بارعاً بانتقاله منها إلى الحديث عن يوم الخندق. وابن الزبعرى يذكرنا ببدايات تقصيد الشعر العربي، وإطالته بمقدمة طللية موجزة يتلوها الغرض الذي يشغل بال الشاعر، وتلك المقدمة، عند ابن الزبعرى، قد تكون تقليداً فنيّاً، أوتعبيراً عن تجربة حقيقية، أو مزجاً بين هذا وذاك. والجدير بالذكر هنا أن الشاعر القرشي قد أهمل الحديث عن بعض أجزاء المقدمة الطللية كوصف المرأة المحبوبة وارتحالها، كما تجنب الحديث عن الناقة، والرحلة الشاقة عليها، وما يتبع ذلك من وصف المشاق، وقوة احتمال الناقة، والاستطراد إلى وصف صور من صراع حيوان الصحراء من أجل الحياة.

وأظهر بعض الشعراء القرشيين أصالة في بناء القصيدة، ومنهم عبد الله بن الزبعرى في لاميته المشهورة التي افتخر فيها بانتصار قريش في أحد؛ فقد استهل قصيدة الفخر بأبيات اعتاد الشعراء الجاهليون أن يبتدئوا بأمثالها قصائد الرثاء، وهي قوله:[٢]

---

[١] سيرة ابن هشام ١٥٨/٣. وحتى: حرف ابتداء، ويجوز أن تكون حرف عطف، على كلام سابق لم يصل إلينا، والأقرب أن (حتى) تصحيف للفظة (حيٍّ)، وبذلك جاءت رواية عيون الأثر ٦٦/٢.

[٢] سيرة ابن هشام ٦٨/٣. وقبل: مقابلة ومعاينة.

يــاغُرابَ البَـين أسمعـتَ فقُـــلْ إنّمــا تنطــقُ شـيئاً قــد فُعِـــلْ
إنّ للخـــير وللشـــرِّ مـــدىً وكِـــلا ذلـــكَ وَجْـــهٌ وقبَـــلْ
والعطيّـــاتُ خِسَـــاسٌ بينهُـــمْ وســـواءٌ قَـــبرُ مُـــثر ومُقـــلّ
كلُّ عَيش ونعيـــمٌ زائـــــلٌ وبنـاتُ الدهـر يَلعبنَ بكــــلّ

فابن الزبعرى يذكر غراب البين والموت، وزوال كل نعيم، ومصائب الدهر التي تذهب بالسعادة، ولكن هذا الاستهلال الحزين لقصيدة فخر يعبر عن تجربة انفعالية صادقة، وينسجم مع مايجول في نفس الشاعر، وفي نفوس المشركين، ينسجم مع الألم العميق الذي يحز في تلك النفوس لمقتل ساداتهم في بدر، وكان لايزال يعتمل في الصدور، ولم تقدر فرحة الانتصار في أحد على طمس آثاره،[1] ويؤكد ذلك أن ابن الزبعرى أتبع الأبيات بقوله مخاطباً حسان بن ثابت شاعر المسلمين:

أَبْلِغَـنْ حَسّـانَ عَنّـي آيـــــةً فقريضُ الشّعرِ يَشْفي ذ الغُلَـــلْ

ثم انتقل إلى الفخر بانتصار قريش.

* * * * *

وهكذا يتبين لنا أن القصائد في شعر قريش الجاهلي قليلة، وذات نفس قصير، وموضوع واحد غالباً؛ فالشاعر القرشي كان يقصد موضوعه، ويباشره بغير تمهيد غالباً، وقد أهمل وصف الناقة والرحلة عبر الصحراء، ويرجع ذلك إلى غلبة الارتجال وطبيعة البيئة، وضعف الملكة والتجربة الشعريتين، كما لايستبعد ضياع بعض الأشعار الطللية. ولمسنا في ذلك الشعر استهلال بعض القصائد بمعان غير مألوفة توحي بالأصالة وصدق التجربة الفنية.

---

[1] يضاف إلى ذلك أن المشركين القرشيين قتلوا عدداً من المسلمين القرشيين بأحد، وهذا مثير للآلام، ومبرر آخر لمقدمة ابن الزبعرى الحزينة.

النقائض

عُرفت ظاهرة النقائض في الشعر الجاهلي، ولاسيما في يثرب، كما برزت في شعر قريش، وأخصّ منه ماقيل في صراع قريش مع المسلمين.

والنقائض في شعر قريش أقلّها داخلية؛ وقعت بين أبناء القبيلة، وأكثرها خارجية؛ وقعت بين شعراء قريش وغيرهم. ومن النقائض الداخلية ماقيل في الشّر الذي وقع بين عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد في الجاهلية، وفيه قال عمرو:[1]

لعمرُ أبيكَ والأخبار تنمي ... لقد هيَّجتني يابنَ الوليدِ

فلاتعجلْ ـ عمارةُ ـ إنَّ سهْماً ... لمخزوم بن يَقْظةَ في العديدِ

وأوردْ ياعمارةُ إنْ عُوْدي ... مِنَ اعوادِ الأباطح خيرُ عودِ

فنقض عمارة هذا الشعر بأبيات، ومنا قوله:[2]

ألا يا عمرو هلْ لكَ في قريش ... أبٌ مثل المغيرةِ والوليدِ

وجدٌّ مثلُ عبد الله ينمي ... إلى عمرو بن مخزوم بعُودِ

إذا ماعدّتِ الأعوادُ نَبعاً ... فما لي في الأباطح من نديدِ

وإنّكَ من بني سهم بن عمرو ... مكانَ الرِّدْفِ من عَجُزِ

وقد اتخذت تلك النقائض الداخلية شكل مقطعات قصيرة.[3]

وحين أشرقت الجزيرة بنور الإسلام، وهاجر المسلمون إلى يثرب، اشتعل الصراع بين المدينتين، واتخذ الجانب الشعري منها شكل نقائض أحياناً، وكانت بداية الصراع الشعري بينهما مناقضة بين ضرار بن الخطاب وحسان بن ثابت؛ فقد تناهى إلى أسماع قريش خبر بيعة العقبة الثانية، فلحق فرسان قرشيون بمن بايع

---

(1) الأغاني ١٨/١٢٤. وأورد: أذكر. والعُود: بضم العين، خشبة كلّ شجرة، أو هو ما جرى فيه الماء من الشجر وأراد نسبه.

والعَود: بفتح العين، الرحل المسنّ. أوالجد القديم.

(2) المصدر السابق ١٨/ ١٢٥.

(3) انظر الأغاني ١٨/١٢٢.

الرسول، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو الأنصاريين، فأعجزهم المنذر، ووقع سعد أسيراً، فقادوه إلى مكة، فقال ضرار بن الخطاب:[1]

تداركت سعداً عنوةً فأخذته ... وكان شفاءً لو تداركت منذرَا

ولو نلته طُلَّتْ هناك جراحه ... وكان حَرِيّاً أنْ يُهانَ ويهدرا

فلما تناهى البيتان إلى سماع المدينة قال حسان بن ثابت يجيبه، وهو أول شعر قاله في الإسلام:[2]

لستُ إلى عمرو ولا المرءِ مُنْذر ... إذا ما مطايا القوم أصبحْنَ ضُمَّرَا

ولولا أبو وَهبٍ لمرّتْ قصائِدٌ ... على شَرَفِ البرقاء يَهْوِينَ حُسَّرا

فإنّنا ومنْ يهدي القصائد نحونا ... كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرَا

فلاتَكُ كالوَسْنان يحلمُ أنَّهُ ... بقريةِ كِسْرى أوبقريةِ قيصرا

ولاتكُ كالشّاة التي كان حتفُها ... بحفر ذراعَيها فلمْ ترضَ محفرَا

أتفخرُ بالكتّان لمّا لَبستَهُ ... وقد يلبَسُ الأنباطُ رَيطاً مُقَصَّرَا

وبذلك نقض حسان بيتي ضرار، ثم سخر منه لأن ضراراً أورد نفسه المهالك حين تطلّع إلى مقارعة أهل يثرب بالشعر.

وكانت بعد ذلك مساجلات كثيرة بين شعراء مكة ويثرب، ولاسيما عقب الغزوات الكبرى، كغزوة بدر، وفيها أنشد ضرار بن الخطاب خمسة عشر بيتاً مطلعها:[3]

عجبتُ لفخر الأوس والحَيْنُ دائرُ ... عليهمْ غَداً، والدهر فيه بصائِرُ

فنقضها كعب بن مالك الأنصاري بستة عشر بيتاً مطلعها:[4]

عجبتُ لأمر اللهِ والله قادرُ ... على ماأراد ليس للّه قاهِرُ

ورثى عبد الله بن الزبعرى قتلى المشركين ببدر، بسبعة أبيات أولها:[5]

---

[1] سيرة ابن هشام ٢/٦٩-٧٠.

[2] شرح ديوان حسان بن ثابت ص٢٤٨. وعمرو والمنذر من آباء حسان وأصبحن ضُمّرا: يريد معدّة للحرب. ويهوين حسّرا: لعله يريد أنه لولا أن أبارهب أبلغنا أبياتك هذه لهوت من مرتفعات البرقاء معيية، ولم تصل إلينا لضآلتها.

[3] سيرة ابن هشام ٢/٢٦٣.

[4] المصدر السابق ٢/٢٦٤

[5] المصدر السابق ٢/٢٦٥. وقال ابن هشام: «وتروى للأعشى بن زرارة بن النباش».

مـــاذا علـــى بـــدْر ومـــاذا حَـــولهُ   مـــن فتيـــةٍ بيـــض الوجـــوهِ كـــرام

فنقضها حسان بن ثابت بخمسة أبيات، أوّلها:[1]

ابكِ بكتْ عيناكَ ثـمّ تبـــادَرَتْ   بـدم يَعُلُّ غــــرُوبها سجّــــام

وفي أحد افتخر عمرو بن العاص بستة أبيات استهلّها بقوله:[2]

خرجْنا مـن الفيفـا عليهـم كأنّنـا   مع الصُّبح من رَضْوى الحبيكِ المُنطّق

فناقضه كعب بن مالك بستة أبيات بدأها بقوله:[3]

ألاَ أبلغنا فِهْراً علـى نَـأي دارهـا   وعِندهـم مـن علمنـا اليـوم مصْـدَقُ

وافتخر عبد الله بن الزبعرى بلامية مطلعها:[4]

ياغرابَ البـين أسمعتَ فقـــلْ   إنّمـا تَنطِـقُ شـيئاً قـد فعـلْ

فناقضه حسان بن ثابت بقصيدة أوّلها:[5]

ذهبـــتْ بـابن الزّبعــرى وقعـــةٌ   كــانَ منّـا الفضــلُ فيهـا لوعـدَلْ

وفي أشعار غزوة الخندق مناقضات مشـهورة؛ فقـد نقـض كعـب بـن مـالك قصيدة لضرار بن الخطاب مطلعها:[6]

ومُشـــفقةٍ تظـــنّ بنـــا الظنونـــا   وقـــد قُدْنـــا عَرَنْدَسَــةٍ طَحُــونــا

بقصيدة بدأها كعب بقوله:[7]

وســـائلةٍ تســـائلُ مالقينـــا   ولــو شهـــدتْ رأتنـا صابرينـــا

وأما قصيدة عبد الله بن الزبعرى البائية التي مطلعها:[8]

---

(1) المصدر السابق ٢/٢٦٥. والغروب: مجاري الدمع.

(2) سيرة ابن هشام ٣/٧٤. والفيفا: الصحراء. ورضوى: اسم جبل. والبيك: مافيه طرائق. والمنطق: لابس النطاق.

(3) سيرة ابن هشام ٣/٧٤. والفيفا: الصحراء. ورضوى: اسم جبل. والحبيك: مافيه طرائق. والمنطق: لابس النطاق.

(4) شرح ديوان حسان بن ثابت ص٣٥٧- ٣٥٨.

(5) شرح ديوان حسان بن ثابت ص ٣٥٧- ٣٥٨.

(6) سيرة ابن هشام ٣/١٥٦- ١٥٧.

(7) سيرة ابن هشام ٣/١٥٦- ١٥٧.

(8) المصدر السابق ٣/١٥٨- ١٦٠

حتى الديار محا معارف رسمها ... طولُ البلى وتراوح الأحقابِ

فقد نقضها شاعران؛ نقضها حسان بن ثابت، وكعب بن مالك الأنصاريان.[1]

ومن الملاحظ أن شعراء المدينة كانوا ينقضون القصائد القرشية، وقد اتخذوا أساليب عديدة لتحقيق ذلك،[2] وقلما نجد شاعرا قرشيا ينقض قصيدة شاعر أنصاري، كنقض أبي سفيان بن الحارث الهاشمي بقصيدة مطلعها:[3]

أحسّانُ إنّا يابنَ آكلة الفَغَا ... وجدّك نغتالُ الخروقَ كذلك

قصيدة لحسان بن ثابت مطلعها:[4]

أقمنا على الرسّ النزيع لياليـاً ... بأَرْعنَ جَرّار عريض المباركِ

لقد استطاع شعراء قريش مجاراة شعراء المدينة في نقائضهم من جهة التصوير والمعاني الجاهلية، وعدد الأبيات، بل برز تفوق بعض القرشيين أحياناً، ومنهم هبيرة بن أبي وهب المخزومي في قصيدة له، مطلعها:[5]

مابالُ هَمٍّ عَميدٍ بات يطرقُني ... بالود من هند إذ تعدو عواديها

وهي ذات حظ كبير من الجمال الفني، فقد مهّد الشاعر فيها لغرضه بذكر زوجه هند ثم مسيره إلى المدينة لحرب المسلمين، ووصف سلاحه وفرسه وقيادة قريش لجموع كنانة، ثم صور انتصار قريش في أحد، وافتخر بشجاعته وكرمه ونبل نجاره، وذلك في ثلاثة وعشرين بيتاً تحدّى فيهما هبيرة شاعرية الأنصار، وقد تصدى له حسان، فنقض القصيدة بخمسة أبيات فقط؛[6] وهي رائعة المعاني

---

[1] المصدر السابق ٣/١٥٨-١٦٠.

[2] انظر الإسلام والشعر لسامي مكي العاني ص١٥٣- ١٥٨

[3] سيرة ابن هشام ٣/١٢٥ والفغا: ضرب من النبهر، ويقال: هي غبيرة تعلوه. والخروق: جمع خَرْق، وهي الفلاة الواسعة.

[4] شرح ديوان حسان بن ثابت ص٣٤٩- ٣٥١. والرسّ: البئر. والنزيع: قريبة القعر تنزع دلاؤها بالأيدي لقربها. والأرعن المضطرب لكثرته. وعظيم المبارك: من قولهم ابترك القوم في القتال: أي حثوا على الركب واقتتلوا، وهذا دليل على الثبات والجدّ. والقصيدة قيلت بمناسبة غزوة بدر الكبرى.

[5] سيرة ابن هشام ٣/٦٣- ٦٤.

[6] انظر شرح ديوان حسان بن ثابت ص٤٨٥.

الإسلامية، ولكنها لاترقى إلى المستوى الفني لقصيدة هبيرة، وقد تجلى في حسن التمهيد، وبراعة الانتقال إلى وصف الفرس وعدّة الحرب، وقيادة قريش لجموع كنانة، ثم إلى الفخر بالانتصار والشجاعة والكرم والنسب.

وظاهرة النقائض الخارجية تعدّت مجال الصراع بين مكة والمدينة، ونمثل لذلك بما وقع بين هند بنت عتبة الأموية والخنساء السلمية؛ فقد روى صاحب الأغاني أن الخنساء كانت تقول: «أنا أعظم العرب مصيبة، وأن العرب قد عرفت لها بعض ذلك، فلما أصيبت هند بما أصيبت به، وبلغها ذلك، قالت: أنا أعظم من الخنساء مصيبة، وأمرت بهودجها فسُوّم براية، وشهدت الموسم بعكاظ... فقالت: اقرنوا جملي بجمل الخنساء، ففعلوا، فلما دنت منها، قالت لها الخنساء: من أنت ياأُخيّة؟ قالت: أناهند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة، وقد بلغني أنّك تعاظمين العرب بمصيبتك، فبمَ تعاظمينهم؟ فقالت الخنساء: بعمرو بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو، وبمَ تعاظمينهم أنت؟ قالت بأبي عتبة بن ربيعة وعمي شيبة بن ربيعة وأخي الوليد، قالت الخنساء: أوسواءٌ هم عندك، ثم أنشدت تقول:

أُبكّي أبي، عمراً، بعين غزيرةٍ ... قليلٌ إذا نامَ الخليّ هجودُها
وصِنْوَيَّ لاأنسى معاوية الذي ... له من سراةِ الحرّتين وُفودُها
وصخراً ومن ذا مثل صخر إذا غدَا ... بساهمةِ الآطالِ قُبّاً يقودها
فذلك ياهند الرزيّةُ فاعلمي ... ونيرانُ حربٍ حينَ شَبَّ وقودُها

فقالت هند تجيبها:

أبكي عميد الأبطحَيْن كلَيْهما ... وحاميهما من كلّ باغ يُريدها
أبي عتبةُ الخيراتِ ويحكِ فاعلمي ... وشَيْبَةُ والحامي الذّمارَ وليدُها
أولئك آلُ المجدِ من آل غالبٍ ... وفي العزّ منها حين ينمي عديدُها[1]

لقد أرادت هند أن تعاظم الخنساء بمصيبتها، وأن تجاريها في شعرها، فبلغت ماأرادت، وعرف لها العرب ذلك في عكاظ.

* * *

لقد كان لشعراء قريش في الجاهلية مشاركة نشطة في فن النقائض، ساعدت

---

[1] الأغاني ٤/٢١١-٢١٢. وثمة نقائض أخرى بين قريش والقبائل. انظر سيرة ابن هشام ٢/٤١-٤٢.

على نموه وتطوره، وكانت النقائض بين مكة والمدينة مظهراً بارزاً للصراع بين الأدب الإسلامي الذي بدأ فجره بالبزوغ، والأدب الجاهلي الذي أذن لنهاره بالأفول، وبرزت في تلك النقائض مقدرة شعراء قريش ظهوراً لايقل عن مقدرة شعراء المدينة الذين تناهى إليهم قصب السبق والتفوق على شعراء القرى العربية قبل البعثة.



الباب الرابع

شعر قريش في صدر الإسلام



- موضوعات شعر قريش في صدر الإسلام.
- خصائص شعر قريش في صدر الإسلام.

الفصل الأول

موضوعات
شعر قريش في صدر الإسلام

- ١ -

الشعر السياسي

١ـ مناصرة الإسلام

حين حتدم الصراع بين مكة والمدينة كان شعراء قريش الكبار يقفون في الصف المعادي للإسلام. وظل أغلبهم يصارع الإسلام حتى عام فتح مكة (٨هـ). وفيه أسلم ضرار بن الخطاب وعبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث وغيرهم من الشعراء القرشيين. ولكن هبيرة بن أبي وهب المخزومي أخذته العزة بالإثم فظل مكابراً، ومات طريداً منبوذاً، وهو مشرك.

وقد استكانت موهبة الذين أسلموا بعد الفتح وتضاءلت أمام حدث انتصار الإسلام، فنصروا الإسلام بسيوفهم، ولم ينصروه بشعرهم إلا قليلاً. لذلك كان الشعر القرشي المناصر للإسلام، والداعي إلى نبذ عبادة الأوثان في عصر البعثة ـ قليلاً.

ومن الذين نصروا الإسلام بشعرهم في عصر البعثة المبّرق، عبد الله بن الحارث السهمي، وله في ذلك ثلاث مقطعات قالها في هجرته إلى الحبشة. وفيها يخاطب المضطهدين المسلمين في مكة داعياً إياهم إلى الهجرة من مكة إلى بلاد الله الواسعة تاركين وراءهم ذلّ الاضطهاد والقهر بقول المبرق:[1]

ياراكباً بلّغَنْ عَنّي مغلغَلةً	مَنْ كان يرجو بلاغَ اللهِ والدين
كلُّ امرئ من عباد اللهِ مضطهدٍ	ببطن مكّةَ مقهور ومفتون
أنّا وجدنا بلاد الله واسعةً	تنجي من الذلّ والَمخزاةِ والهُون

[1] سيرة ابن هشام ٢٨٦/١. والمغلغلة: الرسالة. وعالي في الميزان: خان.

فلاتُقيموا على ذلّ الحياةِ وخزْ ي في الممات وعيبٍ غير مأمون
إنّا تبعنا رسولَ اللهِ واطّرَحُوا قولَ النّبيِّ وعَالوا في الموازين

فالأبيات السابقة دعوة صريحة إلى الهجرة من مكة فراراً من الذلّ والفتنة وحفاظا على العقيدة والكرامة. وأشار المبرق في أبيات أخرى إلى محاولة قريش إغراءه بالغدر بالمسلمين وهو في الحبشة، ولكنه أبى ذلك، واستنكر على قريش أن تدعوه إلى قتل من يدعوها إلى الحق، وبيّن الهموم التي يعانيها المهاجرون ثم أظهر رغبته في أن يتحلى قومه بالتقوى. يقول المبرق:[1]

أبتْ كبدِي لاأكذبنْكَ قتالهم عليَّ وتأباه عليَّ أناملي
وكيف قتالي معشراً أدَبوكُمُ على الحقّ أن لاتأشِبوه بباطل
نَفَتْهُمْ عبادُ الجنّ من حُرّ أرضهمْ فأضحَوا على أمر شديد البلابل
فإن تكُ كانت في عديٍّ أمانةٌ عديٌّ بن سَعْدٍ عن تُقىً أوتواصل
فقد كنت أرجو أنّ ذلكَ فيكُمُ بحمْدِ الذي لايُطَّبى بالجعائل

فالشاعر يعاتب قومه لأنهم أخرجوه من مكّة. ولعله يعاتبهم لأنهم أرسلوا وفداً إلى النجاشي لإغرائه بالإيقاع بالمهاجرين إلى الحبشة.

وأظهر المبرق في مقطعة ثالثة تذمره من الإقامة في الحبشة؛ فقد ضاقت عليه الأرض: برّها وبحرها وفضاؤها، إنه يريد أرضا فيها محمد رسول الله، يُظهر دعوته، ويهدد أعداء الإسلام، وذلك في قوله:[2]

إذا أنا لم أُبْرقْ فلا يَسَعَنّنِي من الأرض برٌّ ذو فضاء ولا بحرُ
بأرض بها عبدُ الإلهِ محمدٌ يبَيِّنُ مافي الصّدْر إذ بلغَ النّقْرُ
فتلْكَ قريشٌ تجحدُ اللهَ ربَّهَا كما جَحَدَتْ عادٌ ومدينُ والحِجرُ

والظاهر أن المبرّق أنشد هذه الأبيات بعد هجرة الرسول إلى المدينة. ثم هاجر المبرق من الحبشة إلى المدينة، وساهم في نشر راية الإسلام إلى أن استشهد في الطائف بعد فتح مكة.

ومن شعر الهجرة إلى الحبشة أبيات لعثمان بن مظعون، يعاتب فيها قومه،

---

[1] المصدر السابق ١/٢٨٧. وتأشبوه: تخلطوه. وحر أرضهم: الحر من الأرض: كريمها. والبلابل: الهموم. ولايطبى بالجعائل: لايستمال بالرشوة.

[2] نسب قريش ص٤٠١. وأبرق: أرعد وهدد. وقبل: ذهب. والنقر: البحث.

وسيدهم أمية بن خلف الجمحي الذي أخرجه من مكة، وأرغمه على ركوب البحر مهاجراً إلى الحبشة، وفيها يحذر أمية من عاقبة فعله، وينذره، يقول عثمان:[1]

أتيمُ بن عَمرو والذي فارَ ضغنهُ ومن دونه الشَّرمان فالبركُ أجمعُ
أأخرجْتني من بطن مكّة آمناً وألحقتني في صَرح بيضاءَ تُقْدعُ
تَريشُ نبالاً لايُواتيك ريشُها وتبْري نبالاريشُها لك أجمع
فكيف إذا جاءتكَ يوماً مُلِمَّةٌ وأسلمكَ الأوباشُ منْ كُنْتَ تجمعُ

وغدت معاتبة كفار قريش في شعر المبرق وعثمان تهديداً ووعيدا عند أبي جندل العامري الذي وقف من كفار قريش موقف التحدي مشاكساً بفتية تسلحوا بالعقيدة والبيض والقنا، وقد قرّ في نفوسهم أن حقهم سيغلب باطل قريش. يقول أبو جندل:[2]

أَبلغْ قريشاً عن أبي جندل أنّي بذي المَروَةِ بالسَّاحل
في معشر تخفُقَ أيمانهم بالبيض فيها والقنا الذّابل
يأبونَ أن تبقى لهم رُفقةٌ من بَعْدِ إسلامهمُ الواصل
أويجعلَ الله لهم مخرجاً والحقُّ لايغْلبُ بالباطل

إن أبيات أبي جندل تبرز حرارة الإيمان والالتزام المطلق بالدفاع عن العقيدة والإصرار على محاربة مشركي قريش فقط. ولاغرابة في ذلك، فقريش كانت رأس الشرك وشوكته.

وحين بدأ احتكاك الدولة العربية الإسلامية الوليدة بالدولتين المجاورتين: الفرس والروم نشط المجاهدون القرشيون في التعبير عن مشاعرهم، وتسجيل أحداث الفتح شعراً. وتجلى ذلك في شعر الفتوح. وأول شعر قيل في الفتوح إنشاد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة:[3]

ياحبّذا الجنةُ واقترابُها طَيِّبةً وبارداً شرابُها

---

[1] جمهرة نسب قريش ـ مخطوط ص١٧٦/ب وتيم بن عمرو: هو جمح. والشرمان: تثنيه شرم، وهو لجة البحر. والبرك: جماعة الإبل الباركة. وأراد بها السفن. وبيضاء تقدع: سفينة تدفع.

[2] الاستيعاب ص١٦٢٢. وكان أبوجندل يقاتل قريشاً بعد صلح الحديبية.

[3] سيرة ابن هشام ١٢/٤.

والـروم رومٌ قـد دَنـا عذابُهـا　　كافـرةٌ بعيـدةٌ أنسابُهـا
عليَّ إذ لاقيتُها ضِرابُها

والشعر السابق يكاد أن يلخص أسباب الفتوحات؛ فالمسلمون يطلبون الجنة بالجهاد لنشر الإسلام، وللخلاص من سيطرة الروم الأجانب نسبا وعقيدة.

ولخالد بن الوليد المخزومي شعر كثير في الفتوح، ومن ذلك قوله مهدداً الروم:[1]

ويلٌ لجمع الروم من يوم شَغِبْ　　إني رأيتُ الحربَ فيه تلْتهِبْ
وكمْ لقَوا منّا مواقِعَ النصَبْ　　وكمْ تركتُ الرومَ في حال العطبْ

وقوله - وقد ترك سور دمشق، وانعطف لنجدة ضرار بن الأزور - حين وصل إليه نبأ أسر الروم لضرار:[2]

اليوم يومٌ فازَ فيه مَنْ صدقْ　　لأرهب الموت إذا الموتُ طرَقْ
لأروينَّ الرمحَ من ذوي الحدقْ　　لأهتكنَّ البيضَ هتكاً والدّرقْ
عسى أرى غداً مقام من صدقْ　　في جنّةِ الخلدِ وألقى من سَبَقْ

فخالد يقذف نفسه إلى المخاطر طمعاً بجنة الخلد، ولقاء الأحبة فيها.

وفي شعر الفتوح تحريض على محاربة أعداء الله، ومن ذلك قول خالد بن الوليد:[3]

هُبُّوا جميعَ إخوتي رواحا　　نحو العدوّ نبتغي الكِفاحا
نرجو بذاك الفوزَ والنجاحا　　إذا بَذلنا دونَهُ الأرواحا
ويَرزُقُ اللهُ لنا صلاحا　　في نَصرنا الغدوّ والرّواحا

ويزخر شعر الفتوح بذكر المعارك، وهو مصدر تاريخي لها. ومن ذلك أن الطبري تحدث عن مسير عياض بن غنم من العراق إلى الجزيرة بتوجيه من عمر بن الخطاب لتخفيف الضغط على جند أبي عبيدة في حمص «فكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسره فتحاً، فكانت تلك السهولة مهجنة عليهم (على عياض

---

(1) فتوح الشام ٩٩/١. ويوم شغب: يوم يهيّج منه الشرّ.

(2) المصدر السابق ٢٦/١. والبيض: الخوذ.

(3) المصدر السابق ١١١/١.

وجنده)..... وقال عياض بن غنم:[1]

مــن مبلــغُ الأقــوام أنَّ جُموعَنــا ... حَوتِ الجزيــرةَ يــومَ ذاتِ زحــام

جَمعوا الجزيرةَ والغياثَ فَنَفَّسُوا ... عَمَّــنْ بحِمْــصَ غَيابــةَ القُــدَّام

إنّ الأعــزةَ والأكــارمَ معشــرٌ ... فضُّوا الجزيــرةَ عــن فِــراخ الهــام

غَلبوا الملوكَ على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو منْ يأوي بــلادَ الشــام

فعياض يأبى التقليل من شأن جنده؛ فوجودهم في الجزيرة هو الذي سهل على جند أبي عبيدة الانتصار في حمص، وسائر بلاد الشام.

ومن شعر الفتوح أبيات لهاشم بن عتبة الزهري ـ وقد سرحه سعد بن أبي وقاص بطلب من الخليفة عمر إلى جلولاء في العراق سنة ١٦ هـ يذكر فيها بعض المعارك، ويظهر حنينه إلى البلد الحرام في تشبيه أصداغه بثغام البلد المحرّم. يقول هاشم:[2]

يــومُ جلــولاءَ ويــومُ رُســتمْ ... ويــومُ زحــفِ الكوفــةِ المُقــدَّمْ

ويــومُ عَــرْض النَّهْــر المُحَــرمْ ... مــن بــين أيــام خَلَــونَ حُــرَّمْ

شــيبن أصداغــي فهــنَّ هُــرَّمْ ... مِثْلُ ثغــام البــلدِ المحــرَّمْ

وهكذا نجد أن شعر قريش له مشاركة في مناصرة الدعوة الإسلامية، وفي التعبير عن مشاعر الفاتحين، وتسجيل أحداث الفتح العربي الإسلامي في صدر الإسلام.

٣ـ الخلافة

ظهر التنافس على الخلافة عقب وفاة الرسول (ص). وقد تطور هذا التنافس من شغب بعض الأنصار، وبعض بني عبد مناف إلى صراع حاد التهب بمقتل عثمان، وبلغ ذروته في نهاية عصر الإسلام بمقتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هـ. وبرزت في خضم ذلك الصراع فئة آثرت الحياد، ومن أشهر رجالها سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

أ ـ **الشغب في الخلافة:** انحصر التنافس على الخلافة عقب وفاة الرسول بين

---

[1] تاريخ الطبري ٤/٥٤ـ ٥٥. والهام: جمع هامة. وهي الرأس.

[2] المصدر السابق ٤/٣٣ ـ ٣٤. والثغام: نبت أبيض الثمر والزهر.

المهاجرين القرشيين والأنصار، ثم استقر الرأي على أن تكون الخلافة في قريش، وسارع عمر بن الخطاب إلى مبايعة أبي بكر الصديق التيمي، ثم تبعه الناس، وهدأت بذلك فتنة كادت أن تشتعل بين المهاجرين والأنصار. وقد أدلى الشعراء بدلوهم في تلك الأحداث، ومن ذلك قول حسان بن ثابت الأنصاري يذكر ماحدث في سقيفة بني ساعدة، يوم بويع أبوبكر بالخلافة:[1]

تنادى سهيل وابنُ حربٍ وحارثٌ ... وعكْرِمَةُ الشاني لنا، ابنُ أبي جهل
قتلنا أباه وانتزعنا سلاحهُ ... فأصبحَ بالبطحا أذلَّ من النّعل
أولئك رهطٌ من قريش تبايعوا ... على خطةٍ ليستْ من الخطط الفُضْل
وأعجبُ منهم قابلو ذاك منهم ... كأنّا اشتملنا من قريش على ذَحْل
وكلُّهُمُ ثانٍ عن الحقّ عطفهُ ... يقولُ: اقتلوا الأنصارَ بئس من فعل
فكان جزاءُ الفضل منّا عليهم ... جهالتَهُم حمقاً، وماذاك بالعدل

والأبيات السابقة تظهر استياء الأنصار من تدخل مسلمة الفتح القرشيين في قضية الخلافة، وتعجبهم من جحود بعض القرشيين.

وخير شعر يمثل القائلين شعراً في أحقية قريش بالخلافة آنذاك هو قول ابن أبي عزة الجمحي في تولي أبي بكر الخلافة:[2]

معشر الأنصار خافوا ربَّكُمْ ... واستجيروا الله من شرِّ الفتنْ
إنني أرهبُ حرباً لاقِحاً ... يَشْرقُ المرضعُ فيها باللبنْ
جَرها سعدٌ وسعدٌ فتنةٌ ... ليتَ سعدَ بن عبادةَ لم يكنْ
ليس ماقدر سعدٌ كائناً ... ماجرى البحر ومادام حضنْ
ليس بالقاطع منّا شعرةً ... كيفَ يُرجى خيرُ أمرٍ لم يحن
ليس بالمدرك منها أبداً ... غيرَ أضغاث أمانيّ الوَسَنْ

ولابن أبي عزة أبيات أخرى في ذلك، وهي قوله:[3]

شكراً لمن هو بالثناء خليقُ ... ذَهَبَ اللجاجُ وبويعَ الصديقُ
من بعد ماركضتْ بسعدٍ بغلةٌ ... ورجا رجاءً دونه العيُّوقُ

---

(1) الأخبار الموفقيات ص٥٨٥-٥٨٦.

(2) المصدر السابق ص٥٨٦. وحضن: جبل بنجد معروف.

(3) الاستيعاب ص٩٨٦. والعيوق: نجم أحمر مضيء. والفاروق: عمر بن الخطاب وعتيق: أبو بكر الصديق.

جاءت بـه الأنصار عاصب رأسـهِ | فأتـاهمْ الصديـق والفـاروقُ
وأبـو عبيـدة والذيـن إليهـمُ | نفـسُ المؤمّـل للبقـاء تتـوقُ
كنّـا نقـولُ: لهـا علـيّ والرّضـا | عمـرٌ، وأولاهُـم بتلـك عتيـقُ
فدعـت قريـشٌ باسـمهِ فأجابهـا | إنّ المنـوّه باسـمهِ الموثـوقُ

ولم يقتصر الشغب في خلافة أبي بكر على الأنصار بل تعداهم إلى بني عبد مناف الذين رأوا أنهم أحق بالخلافة؛ فرسول الله منهم، وهم ذؤابة قريش في الجاهلية. فقد أعلن أبو سفيان بن حرب الأموي استياءه من الخضوع لبني تيم رهط أبي بكر. يقول أبو سفيان:[1]

وأضحت قريشٌ بعد عزٍّ ومنعَـةٍ | خُضُوعـاً لتيْـم لابضـربِ القواضـبِ
فياهـف نفسـي للذي ظفرتْ بـهِ | ومـا زالَ منهـا فائـزاً بالرغـائبِ

وكان أبو سفيان يظن أن عمر بن الخطاب العدوي بايع أبابكر التيمي كي يردّ الخلافة إليه، ولذا اندفع أبو سفيان داعياً بني هاشم بن عبد مناف إلى عدم الرضا إلا بخلافة علي بن أبي طالب، وقال في ذلك:[2]

بني هاشـم لاتطمـعِ النـاسُ فيكـمُ | ولاسـيما تَيْـمُ بـن مُـرّةَ أوعَـدي
فمـا الأمـرُ إلاّ فيكـمُ وإليكـمُ | وليـس لهـا إلاّ أبـو حسـن عَلـي

وإن دعوة أبي سفيان إلى جعل الخلافة في بني هاشم يعني انتقالها إلى أيدي بني عبد مناف، وبذلك يتمهد طريق نقلها إلى بني أمية - وهم من بني عبد مناف - رهط أبي سفيان.[3]

ب - الصراع على الخلافة: تسلم عمر مقاليد الخلافة، ولم يشغب في ذلك أحد، ثم كانت الشورى بعد استشهاده، وانحصر التنافس عليها بين رجلين من بني عبد مناف هما: عثمان بن عفان الأموي وعلي بن أبي طالب الهاشمي. وقد استقر رأي رجال الشورى على تسليم مقاليد الخلافة لعثمان.

أظهر عثمان رضي الله عنه ميلا إلى أقاربه وليونة في تعامله معهم. ومن ذلك أن عثمان كان يؤثر عمّه الحكم بن أبي العاص على الوليد بن عقبة الأموي،

---

[1] الأغاني ٦/٣٥٦.

[2] العقد الفريد ٤/٢٥٧.

[3] انظر تاريخ الشعر السياسي ص١٩٩.

فعاتب الوليد عثمان وكان أخاه لأمه، بقوله:[1]

رأيت لعمّ المرء زُلفى قرابةٍ ... دوينَ أخيهِ حادثاً لم يكنْ قِدما
فَأمَّلْتُ عمراً أنْ يشبَّ وخالداً ... لكي يدعُواني يومَ مزحمةٍ عمَّا

وبعد ذلك تولى الوليد الكوفة لعثمان بدل سعد بن أبي وقاص. وفي ذلك أنشد سعدٌ:[2]

خُذيني فجرّيني ضباعُ وأبشري ... بلحم امرئ لم يشْهَدِ اليوم ناصرُه

وكان عبد الرحمن بن حنبل الجمحي من أبرز الشعراء القرشيين الذين أظهروا الاستياء من سياسة عثمان. يقول عبد الرحمن لعثمان:[3]

فأَحْلفُ باللهِ ربِّ الأنا ... م ما كتبَ اللهُ شيئاً سُدَى
ولكن خلِقتَ لنا فتنةً ... لكي نُبْتَلى بكَ أوتُبتَلى
فإنَّ الأمينيْن قد بيَّنا ... مناراً لِحَقٍّ عليه الهدى
فما أخذا دِرهماً غيلةً ... وما تركا درهماً في هوى
وأعطيتَ مروانَ خُمسَ العبا ... دِ، هيهاتَ شأوك مُمَّنْ شأى

فالشاعر يوازن بين حرص أبي بكر وعمر على أموال المسلمين، وتساهل عثمان ولاسيما حين أعطى مروان خمس إفريقيا.

وتحول الاستياء من سياسة عثمان إلى تهديد. ومن ذلك قول هشام بن الوليد المخزومي مخاطباً عثمان:[4]

لِساني طويلٌ فاحترسْ من شَذاتهِ ... عليكَ وسيفي من لساني أَطْولُ

ثم حَزَب رؤوس الفتنة من المستائين أمرهم، واتجهوا إلى المدينة، وحاصروا عثمان في داره. وقد أحسّ المقربون من عثمان، والمدافعون عنه بضعف جانبهم، وفي ذلك يقول عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري:[5]

أرى الأمرَ لايَزْدادُ إلاّ تفاقُماً ... وأنْصَارُنَا بالمكّتَيْن قليلُ

---

(1) الأغاني ٥/١٢٣.

(2) المصدر السابق ٥/١٢٣.

(3) العقد الفريد ٤/٢٨٣ ـ ٢٨٤. والأمينان: أبوبكر وعمر. وشأى: سبق.

(4) المصدر السابق ٤/١٢. وشذاته: حدّته.

(5) جمهرة نسب قريش ـ مخطوط ص ١٩٥/ب.

أَسْلَمنا أهلُ المدينةِ والهوى ... هوى أهلِ مصرَ والذليلُ ذليلُ

وآلى الذين مع عثمان في المدينة أن ينصروه ويتمسكوا بخلافته. وكان أكثرهم من قريش. ومن الشعر القرشي الذي يمثل ضراوة الدفاع عن عثمان قول سعيد بن العاص الأموي، وقد خرج لمجابهة مهاجمي دار عثمان:[1]

صَبَرْنا غداةَ الدار والموتُ واقبُ ... بأسيافنا دون ابْنِ أَرْوَى نُضَاربُ

وكنّا غَداةَ الرَّوْعِ في الدار نُصْرَةً ... نُشَافِهُهُمْ بالضَّرْبِ والموتُ ثاقبُ

ومن ذلك أيضاً قول عبدا لله بن وهب بن زمعة الجمحي في حصار عثمان:[2]

آلَيْتُ جَهداً لاأُبايعُ بَعْدَهُ ... إماماً ولاأُرْعي إلى قولِ قائل

ولا أَبْرَحُ البابين ماهبَّتِ الصَّبَا ... بذي رَوْنَق قد أخْلَصَتْهُ الصَّياقِلُ

حسامٌ كلونِ الملح ليس بعائدٍ ... إلى الجفْنِ ماهَبَّتْ رياحُ الشَّمائل

نُقَاتِلُهُمْ عنْ ابن عفّانَ إنَّهُ ... إمامُ هُدًى جاشَتْ عليه القبائلُ

لكنّ الدفاع عن عثمان انهار أمام جموع المتألبين، فقُتل رضي ا لله عنه. ومن الشعر القرشي في ذلك قول محمد بن أبي سبرة بن أبي زهير القرشي مبرّراً موقف الذين قتلوا عثمان:[3]

نحنُ قتلنا نعثلاً بالسِّيرهْ ... إذ صَدَّ عن أعلامِنا المُنِيرَهْ

يحكمُ بالجَور على العشيرهْ ... نحنُ قتلنا قبلَه المغيرهْ

نالته أرماحٌ لنا موتورَهْ ... إنّا أناسٌ ثابتُو البصيرهْ

وانفتح بمقتل عثمان باب صراع أنهك العرب والمسلمين.

استلم علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة. لكن عدداً من كبار الصحابة تألبوا عليه، ثم استقرّ الصراع بعد وقعة الجمل بين الحزب الهاشمي بقيادة عليّ، والحزب الأموي بقيادة معاوية بن أبي سفيان الذي رفع لواء المطالبة بدم عثمان. وقد قال

---

[1] تاريخ الطبري ٣٨٩/٤. والموت واقب: آتٍ. والثاقب: المضيء.

[2] جمهرة نسب قريش ١/ ٥٠٧-٥٠٨. والبابان: هما بابا دار عثمان. وجاشت عليه القبائل: هاجت وبغت وحقدت. وثمة أشعار أخرى قالها قرشيون دفاعاً عن عثمان. انظر تاريخ الطبري ٣٨٨/٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١٨٦/٣.

[3] وقعة صفين ص٣٨٣. ونعثل: نبز لعثمان بن عفان. وبالسيرة: بطريقة عثمان بالحكم

معاوية حين نُعي إليه عثمان:[1]

أَتـاني أَمـرٌ فيـه للنـاس غمَّـةٌ ... وفيـه بكـاءٌ للعيـون طويـلُ
وفيـه فنـاءٌ شـاملٌ وخَزايـةٌ ... وفيـه اجتـداعٌ للأُنـوفِ أصيـلُ
مُصـابُ أمـير المؤمنـينَ وَهَـدَّةٌ ... تكـادُ لهـا صُـمُّ الجبـال تـزولُ
فَلِلّهِ عَيْنَـا مَـن رأى مثـلَ هـالكٍ ... تكـادُ لهـا صُـمُّ الجبـال تـزولُ
تداعـتْ عليـه بالمدينـةِ عُصْبَـةٌ ... فريقـان: منهـا قـاتلٌ وخَـذولُ
دعـاهمْ فَصَمُّوا عنه عنـد جوابـهِ ... وذا كم على مافي النفوس دليـلُ
نَدِمتُ على ماكانَ من تَبعِي الهوى ... وقَصْريَ فيـه حسـرةٌ وعويـلُ
سـأنعى أبـا عمـرو بكـلّ مثقّـفٍ ... وبيـض لهـا في الدارعـينَ صليـلُ
تركتـكُ للقـوم الذيـن هـمُ هـمُ ... شَـجاكَ فمـاذا بعـدَ ذاكَ أقـولُ
فلسـتُ مقيمـاً مـاحييت ببلـدةٍ ... أجـرُّ بهـا ذيلـي وأنـت قتيـلُ
فلانـومَ حتـى تُشْجَرَ الخيلُ بالقنـا ... ويُشـفَى مـن القـومِ الغُـواةِ غليـلُ
ونطْحنَهُـمْ طحـنَ الرّحـى بثفالهـا ... وذاكَ بمـا أسـدَوا إليـكَ قليـلُ
فأمّـا الـتي فيهـا مـودّةُ بيننَـا ... فليـس إليهـا مـاحييتَ سـبيلُ
سأُلقحهـا حربـاً عَوانـاً مُلِحّـةً ... وإنّـي بهـا مـن عامنـا لكفيـلُ

إن القصيدة السابقة تظهر عظمة مصاب المسلمين، وتبين ماسيتبع ذلك من أهوال لأن عثمان قتل مظلوماً، وقد أحجم بعض المقربين إليه عن نصره مدلّين بذلك على تواطئهم عليه، وعبر معاوية عن إحساسه بالذنب لأنه ظلّ مقيماً بالشام ولم يسرع إلى نصرة عثمان ثم أعلن إصراره على خوض الحروب الطاحنة حتى يشفي غليله ويأخذ بثأر عثمان. وللشعراء القرشيين مشاركة نشطة في تحزيب الناس، وتصوير أحداث الصراع بين علي ومعاوية. ومنهم الوليد بن عقبة الأموي الذي اشتهر بكثرة بكائه على عثمان ودعوته إلى الأخذ بثأره. ومن ذلك قوله مخاطباً معاوية بن أبي سفيان:[2]

فوالله ماهندٌ بأمّكَ إن مضى الـذَّ ... ـهارُ ولم يَثْـأرْ بعثمـانَ ثـائرُ

---

[1] المصدر السابق ص٧٩ ـ ٨٠. وخذول: تعريض بعلي خاصة. وقَصري: حسبي وكفايتي. وأبو عمر: كنية عثمان. ماحييت: المخاطب (هنا) علي بن أبي طالب على الأرجح.

[2] الاستيعاب ص١٥٥٧.

أيقتُـلُ عبـدُ القـوم سَــيِّدَ أهلــهِ ولم يقتلــوهُ ليــتَ أمُّــكَ عـــاقِرُ

وإنّا متى نَقْتُلْهُــمُ لايُقـدْ بهــــمْ مُقِيدٌ، وقـد دارتْ عليـه الدوائــرُ

ودعا الوليد معاوية إلى الاعتصام بالشام ومجابهة عليّ بحرب يتشيب النواصي وذلك في قوله مخاطباً معاوية:[1]

معاويَ إنَّ الشامَ شامُك فاعتصِمْ بشَامِكَ لاتُدْخلْ عليكَ الأفاعِيا

وإنْ عليّـــاً ناظــرٌ ماتُجيبُــهُ فَأَهْـدِ له حربـاً تُشـيبُ النواصيا

وعتب الوليد على معاوية لأنه راسلَ علياً؛ فالمراسلة لايدرك بها ثأر عثمان، بل يدرك الثأر بالحرب. يقول الوليد:[2]

ألاَ أيُّهـا المُزْجــي المطيّـةَ غاديَـا ألاَ أبْلغَـنْ عَنّـي هُديــتَ مُعَاوِيَــا

فإنّكَ إذ تُهـدي الرسـائل سَـادِرا وتدعـو عليًّا في الصحــائف خاليــا

كدابغـةٍ ترجــو صــلاحَ أديمِهَــا وقـد عـادَ بعـدَ الدّبـغ والـرمُّ باليــا

لكَ الخيرُ أَوْرِدْنا عليهم فخيرُ مَـنْ يريـدُ دِرَاكَ الثأرِ من كـانَ ناعيـا

ويرى الوليد بن عقبة أن قاتل عثمان وسالبه سواء؛ لقد اعتقد أن بني هاشم تآمروا مع قتلة عثمان طمعاً بالخلافة، ولذلك يجب عليهم أن يردوا سلَب عثمان (الخلافة) إلى أهله. ونجد ذلك في قول الوليد:[3]

بني هاشـم رُدُّوا سلاحَ ابـن أُختكُـمْ ولا تَنْهَبُـــوهُ لاتَحِـــلُّ مناهِبُـــهْ

بــني هاشــم لاتعجلُــوا بإقـــادةٍ ســـواءٌ عَلَيْنــا قـــاتلوهُ وسَـــالِبُهُ

وإنّــا وإيّــاكمْ وماكـــانَ مِنكُــمُ كصَدْعِ الصَّفا لايَرْأَبُ الصَّدْعَ شَاعِبُهْ

بـني هاشـم كيـف التعـاقُدُ بيننـا وعنـــد علـــيٍّ سَــيْفُهُ وحَرائِبُـــهْ

لَعَمْرُكَ لاأَنسَــى ابـنَ أروى وقتْلَـهُ وهــلْ يَنْسَيَنَّ المـاءَ ماعـاشَ شـاربُهْ

هُـمُ قَتَلُـوهُ كـي يكونــوا مكانَــهُ كمـا غَـدَرَتْ يومـاً بكِسْـرى مَرَازِبُـهْ

إن الأبيات السابقة وأمثالها تشير إلى عدم شرعية الخلافة في رأي الحزب الأموي، وفيها مفهوم سياسي جديد للخلافة؛ فالوليد بن عقبة جعل الخلافة حقاً مغتصباً من بني أمية، فدعاهم إلى استعادةِ حقهم ممهداً بذلك إلى مفهوم توارث بني

---

[1] وقعة صفين ص٥٢ ـ ٥٣.

[2] حماسة البحتري ص٣٤ ـ٣٥.

[3] الأغاني ٥/١٢٠

أمية للخلافة.

وقد نقض الفضل بن عباس الهاشمي أبيات الوليد السابقة بقوله:[1]

فلا تسألونا سيفكُمْ إنَّ سيفكُمْ ... أُضيعَ وألقاه لَدَى الروع صاحبُهْ
سَلُوا أهلَ مصرَ عن سلاح ابن أُختنا ... فهمْ سَلَبُوهُ سَيفَهُ وحرائِبهْ
وكان وليّ الأمر بعد محمَّدٍ ... عليٌّ وفي كلّ المواطن صاحِبُهْ
وقد أنزلَ الرحمنُ أنّكَ فاسِقٌ ... فمالكَ في الإسلام سَهْمٌ تطالِبُهْ

فالأبيات تنفي مقولات الحزب الأموي، وتدل على أحقية علي بن أبي طالب بالخلافة؛ فهو صاحب رسول الله، وولي الأمر بعده، وأما الوليد فلايحقّ له أن يتحدث في أمور الخلافة، وأنى يكون له ذلك وقد أنزل الله فيه أنّه فاسق؟ وبذلك غمز الفضل قناة بني أمية، فقد عُرف كثير من ساداتهم بعداء الإسلام قبل فتح مكة، ومنهم معاوية ووالده أبو سفيان.

إن أبيات الفضل السابقة فيها مجمل آراء الحزب الهاشمي، ولاسيما تعظيم منزلة علي بن أبي طالب، وإشهار أمر اختصاصه بولاية أمر المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك طعن بشرعية غير علي بالخلافة. ومقولة تخصيص علي بولاية أمر المسلمين بعد الرسول هي عماد الدعوة إلى خلافة علي ثم إلى أحقية أبنائه بعده بها. ونجد الدعوة إلى أحقية علي بالخلافة واضحة في قول الفضل أيضاً:[2]

ألا إنّ خيرَ الناس بعدَ مُحمّدٍ ... وَصِيُّ النبيِّ المصطفَى عند ذي الذكر
وأوّلُ مَن صلى وصِنْوُ نبيّه!! ... وأوّلُ من أردى الغُواةَ لدَى بَدْر

لقد أصبح العداء بين الأمويين والهاشميين صراعاً دموياً مزّق قريشاً والعرب والمسلمين، واستحكم العداء بين الحزبين، وفي ذلك يقول الفضل بن العباس الهاشمي مخاطباً بني أمية:[3]

اللهُ يعلمُ أنّا لانُحبّكمُ ... ولا نَلُومكُمُ ألاّ تُحبُّونا

ثم انتهى الصّراع بين الحزبين في صدر الإسلام حين قُتل الإمام عليّ رضي

---

[1] مروج الذهب ٢/٣٤٧-٣٤٨.

[2] تاريخ الطبري ٤/٤٢٦.

[3] معجم الشعراء ١٧٨.

الله عنه، فصُرفت الخلافة إلى بني أمية بشكل فاجأ الحزب الهاشمي وأثار ذهوله، وفي ذلك يقول الفضل بن عباس:[1]

ماكنتُ أحسَبُ أنَّ الأمرَ منصَرفٌ	عن هاشم ثُمَّ منها عن أبي الحسن
أليس أوّلَ من صلّى لِقُبْلَتِكمْ	وأعلمَ الناس بالقرآن والسُّنَن؟

ج ـ **الحياد**: ثمة فئة من قريش تجنّبت الصراع الذي دار على الخلافة بين علي ومعاوية، وآثرت موقف الحياد ورعاً وتقىً. ومن تلك الفئة سعد بن أبي وقاص الزهري الذي تجنب أتون ذلك الصراع، ولزم بيته، وأمر أهله ألاّ يخبروه من أخبار الناس بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام، فطمع فيه معاوية، وكتب إليه يدعوه إلى مساعدته في المطالبة بدم عثمان، فأبى سعد ذلك، وأجابه بأبيات بيّن فيها موقفه من الصراع على الخلافة، وهي قوله:[2]

مُعاويَ داؤكَ الداءُ العَياءُ	فليس لما تجيء به دواءُ
طمعتَ اليومَ فيَّ ياابنَ هندٍ	فلا تطمعْ فقد ذهبَ الرّجاءُ
عليك اليومَ ماأصبحتُ فيه	فما يكفيكَ من مثلي الإباءُ
فما الدّنيا بباقيةٍ لِحَيٍّ	ولاحيٌّ له فيهنا بقاءُ
وكلّ سرورها فيها غُرُورٌ	وكلُّ متاعها فيها هَباءُ
أيدعوني أبوحسن عليٌّ	فلم أَرْدُدْ عليه بما يشاءُ
وقلتُ له اعطني سيفاً بصيراً	تمرُّ به العَداوةُ والولاءُ
فإنّ الشرَّ أصغرُهُ كبيرٌ	وإنّ الظّهرَ تُثقلُهُ الدماءُ
أتطمع في الذي أعْيا عليّاً	على ماقد طمعت به العَفاءُ
لَيومٌ منه خيرٌ منك حيّاً	وميْتاً أنتَ للمرء الفداءُ
فأمّا أمْرُ عثمان فَدَعْهُ	فإنّ الرأيَ أذْهَبَهُ البلاءُ

فسعد ينكر على معاوية أن يطالب بدم عثمان، ولكنه مع ذلك لم يبادر إلى مؤازرة عليّ تحرجاً من الوقوع في الإثم. ولسعد قصيدة أخرى يؤكد فيها موقفه السابق، وقد أنشدها حين طلب منه ابنه أن يحضر التحكم بين ممثل عليّ (أبي

---

[1] الاستيعاب ص١١٣٢.

[2] وقعة صفين ص٧٥ ـ ٧٦. وما يكفيك: الذي يكفيك

موسى الأشعري) وممثل معاوية (عمرو بن العاص)، ومنها قوله:[1]

هربتُ بديني والحوادثُ جَمَّةٌ ... وفي الأرض أَمْنٌ واسِعٌ ومعوَّلُ
فقلت: معاذ الله من شرّ فتنةٍ ... لها آخر لايُستَقَالُ وأوَّلُ
ولو كنت يوماً لامحالةَ وافداً ... تَبِعْتُ علياً والهوَى حيثُ يُجْعَلُ
ولكنني زاولتُ نفساً شحيحةً ... على دينها تأبى عليٍّ وتَبْخَلُ
فأمّا ابن هندٍ فالترابُ بوجههِ ... وإنَّ هوايَ عن هواه لَأَمْيَلُ

ولعبيد الله بن عمر بن الخطاب موقف مشابه لموقف سعد من الصراع بين علي ومعاوية؛ فقد لجأعبيد الله إلى الشام خوفاً من أن يطلبه علي بدم الهرمزان فطمع فيه معاوية وطلب منه أن يشتم علياً، ويتهمه بالتواطؤ مع قتلة عثمان، فوافق عبيد الله، ثم صعد المنبر، وخطب الناس، ولكنه لم يشتم عليّاً، ولم يتهمه، فقال له معاوية : «ابنَ أخي، إنّك بين عِيٍّ أوخيانة» وفي ذلك يقول عبيد الله:[2]

معاويَ لم أَخْرُصْ بخطبةِ خاطبٍ ... ولم أكُ عَيّاً في لؤيّ بن غالبِ
ولكنني زاولتُ نَفْساً أبيَّةً ... على قَذْفِ شيخ بالعراقين غائبِ
وقذفي عليا بابن عفّانَ جهرةً ... يجدِّعُ بالشَّحْنَا أنوفَ الأقاربِ
فما قال أَحْسَنْتُمْ ولا قد أَسَأْتُمُ ... وأطرقَ إطراقَ الشجاع المواثبِ
فأمّا ابن عفّان فأشهدُ أنّهُ ... أُصيبَ بريئاً لابساً ثوبَ تائبِ
وقد كان فيها للزبير عجاجةٌ ... وطلحةُ فيها جاهدٌ غيرُ لاعبِ
وقد أظهرا من بعد ذلكَ توبةً ... فياليتَ شِعْري ماهما في العواقبِ

فالشاعر يبرّئ عليا من دم عثمان الذي قتل ظلماً، ويدين الزبير وطلحة اللذين حاربا عليا. ولاشك أن سعداً قد خالف معاوية بل أدانه، وأظهر ميلا واضحاً نحو علي.

وللزبير بن العوام موقف جريء يوم الجمل، يدل على عمق إيمانه وشدّة ورعه فقد رجع الزبيري عن القتال حين ذكّره عليّ بقول الرسول له (للزبير): «إنك والله ستقاتله (ستقاتل عليا) وأنت له ظالم». وفي ذلك يقول الزبير:[3]

---

[1] المصدر السابق ص٥٣٩.

[2] المصدر السابق ٨٣ - ٨٤. و لم أخرص: لم أكذب. وشيخ العراقين: علي بن أبي طالب.

[3] مروج الذهب ٢/٣٦٣.

اخترتُ عاراً على نار مؤجّجةٍ ... ما إنْ يَقُومُ لها خَلْقٌ من الطين
نادى عليّ بأمر لستُ أَجْهَلُهُ ... عارٌ لَعَمركَ في الدنيا وفي الدين
فقلتُ حسبكَ من عَذل أباحسن ... فَبَعْضُ هذا الذي قد قلتَ يَكْفيني

لقد تراجع الزبير عن مقاتلة علي حين أوشكت جموع الفريقين في وقعة الجمل أن تلتحم، وهو أحد القادة الثلاثة للجموع المناوئة لعليّ، وآثر الزبير أن يُتهم بالجبن والخوف - وهو الشجاع البطل - على أن يحارب عليا وهو ظالم له.

ومن الشعر المعبّر عن الألم الشديد من عنف الصراع بين علي ومعاوية قول عبد الرحمن بن الحكم الأموي حين نظر إلى القتلى في يوم الجمل باكياً:[1]

أيا عينُ جُودي بدمع سَرَبْ ... على فتيةٍ من خِيار العرَبْ
وما ضَرَّهُمْ غيرَ حيْن النفو ... س أيُّ أميرَيْ قريش غَلَبْ

* * * * *

لقد واكب شعر قريش في صدر الإسلام الأحداث السياسية، فناصر الإسلام، وعبّر عن مشاعر الفاتحين، وصور الصراع على الخلافة. وبرز فيه نقد لبعض مظاهر الحكم، وفيه إشارات إلى مواقف سياسية حيادية، وإلى أحاسيس بالذنب والألم لمصاب المسلمين الجلل في الوقائع التي احتدمت بين المتصارعين على الخلافة.

- ٢ -

شعر الحماسة

١- التهيُّؤ للمعركة ووصفها

تبرز في هذا الصنف من شعر الحماسة محاولات الشعراء الرامية إلى تهيئة نفوس المقاتلين لخوض غمار الحرب، وإلى حثّهم على الصبر والتجلّد. ومن ذلك رسالة شعرية بعث بها خالد بن الوليد إلى عياض بن غنم يعده فيها بالإغاثة، وفيها يقول: «من خالد إلى عياض، إياك أريد:

---

[1] الأغاني ١٣/٢٦٧. وبدمع سرب: سائل متتابع. ونسبت الأبيات في (مروج الذهب ٢/٣٩٤) إلى امرأة من أهل العراق، في مقتل بنيها.

لَبِّثْ قليلاً تأتيكَ الحلائبُ   يَحمِلْنَ آساداً عليها القاشِبُ

كتائبٌ يَتْبَعُها كتائبُ»[1]

ومن شعر تهيئة النفوس للحرب قول المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب في صفين يخاطب أصحاب عليّ:[2]

وقاتِلوا كلَّ مَنْ يَبْغي غَوائِلَكُمْ   فإنّما النصرُ في الضرّا لمن صَبَرا

سِيفُوا الجوارحَ حدَّ السيفِ   في ذلك الخيرَ وارجُوا اللهَ والظفَرا

وأيقِنوا أنّ من أضحى يُخالفكمْ   أضحى شقِيّاً وأضحى نفسهُ خَسِرَا

فيكم وَصِيُّ رسولِ اللهِ قائِدُكُمْ   وأهلُهُ وكتابُ اللهِ قد نُشِرَا

ولاتخافوا ضلالاً لا أبالكمُ   سَيُحْفَظُ الدّينُ والتقوى لمنْ صَبَرَا

والشاعر الذي يتهيأ للمعركة يحاول أن يبثّ الرعب في قلوب الأعداء كقول عمرو بن العاص وقد بلغه مسير عليّ إلى صفين:[3]

لاتَحْسَبَنِّي ياعليُّ غافِلاَ   لَأُورِدَنَّ الكوفةَ القنابلاَ

بجمعي العامَ وجمعيْ قابلاَ

فأجابه عليّ:[4]

لَأُورِدَنَّ العاصيَ بنَ العاصي   سبعينَ ألفاً عاقِدي النَّواصي

مُسْتحقِبينَ حَلَقَ الدِّلاص   قد جَنبوا الخيلَ مع القِلاص

أسودَ غِيلٍ حينَ لامناصِ

ومن ذلك أن عليا كتب إلى معاوية مهدّدا:[5]

أصبحتَ منّي يابنَ حربٍ جاهِلاَ   إنْ لم نُرام منكم الكواهِلاَ

بالحقِّ والحقُّ يزيلُ الباطلا   هذا لكَ العامَ وعامَ قابلا

---

[1] تاريخ الطبري ٣/٣٧٧. والحلائب: الجماعات. يقال: أحلبَ القوم، إذا اجتمعوا للنصرة. والقاشب: المكتسب حمداً.

[2] وقعة صفين ص٣٥٨. وسيفوا: اضربوا بالسيوف. وحدّ السيف: منصوب بنزع الخافض وفي البيت الأخير إيطاء.

[3] المصدر السابق ص١٣٦. والقنابل: جماعات الخيل.

[4] المصدر السابق ص١٣٦- ١٣٧. والدلاص: الدروع اللينة الملساء البراقة. والقلاص: النوق الفتية.

[5] المصدر السابق ص١٣٧.

وفي هذا المجال يذكر الشاعر ماأعدّه الفريقان المتصارعان من الرجال والسلاح، ومن ذلك قول عمرو بن العاص:[1]

ولو شهدَتْ جُمْلُ مُقامي ومَوْقِفي … بصفّينَ يوماً شابَ منها الذوائبُ

غداة أتى أهلُ العراق كأنّهمْ … من البحر لُجٌّ مَوْجه متراكِبُ

وجئنا إليهمْ في الحديدِ كأنّنا … سحابُ خريفٍ زَعْزَعتْهُ الجنائبُ

وقد يسبق نشوب المعركة تفاوض بين المتحاربين، وإلى ذلك أشار عمرو ابن العاص في قوله:

فقالوا: نرى من رأينا أنْ تُبايعوا … عَلِيّاً، فقلنا: بل نرى أنْ تُضاربُوا

فالبيت يشير إلى المفاوضات التي جرت بين علي ومعاوية قبل وقعة صفين؛ فأهل العراق طلبوا من أهل الشام مبايعة علي بالخلافة، فأجابهم أهل الشام بالحرب.

وأمّا شعر وصف الحرب فيظهر فيه عنف القتال، وما يختلج في النفوس من أحاسيس. ومن ذلك قول العباس بن عبد المطلب مصوراً ثباته في المعركة دفاعاً عن الرسول مع نفر من الصحابة في غزوة حنين:[2]

ألاَ هَلْ أتى عِرْسي مَكَرّي ومَوقِفي … بوادي حُنينٍ والأسِنّةُ تُشْرَعُ

وقولي إذا ماالنفسُ جاشت لها: قَدِي … وهامٌ تدهَدى والسواعِدُ تُقْطَعُ

وكيف رددتُ الخيلَ وهْيَ مُغيرةٌ … بزَوْراءَ تُعطي باليدين وتَمنَعُ

نَصَرْنا رسولَ اللهِ في الحربِ سبعةٌ … وقد فرّ منْ قدْ فَرّ عنه فأقْشَعُوا

ومن الشعر المصور عنف القتال قول علي بن أبي طالب في صفين:[3]

ولمّا رأيتُ الخيلَ تُرْجَمُ بالقنا … نواصيُها حمرُ النحور دَوَامي

وأعرضَ نَقْعٌ في السّماء كأنّهُ … عجاجَةُ دَجْنٍ مُلْبِس بقَتام

ونادى ابنُ هندٍ في الكلاع وحمير … وكنْدَةَ في لَخْمٍ وحيٍّ جذام

تيمّمْتُ همدانَ الذينَ هُمُ هُمُ … - إذا نابَ دهرٌ - جُنّتي وسِهامي

---

(1) الحماسة الشجرية ١/١٩٩ - ٢٠٠. ونسبت الأبيات إلى محمد بن عمرو بن العاص (الاستيعاب ص١٣٧٥) وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص (العقد الفريد ٤/ ٣٤٣- ٣٤٤). والجنائب: رياح الجنوب.

(2) العمدة ١/٣٦. وقدي: حسبي، أو اسم فعل بمعنى: كفى. وتدهدى: تدحرج، والزوراء: الناقة الشديدة.

(3) المصدر السابق ١/٣٤. والدجن: إلباس الغيم السماء. والقتام: الغبار.

ونسبت إلى محمد بن عمرو بن العاص أبيات في تصوير عنف الصراع بين أهل العراق وأهل الشام في صفين؛ فهم كالطيور الجارحة، ينقض بعضها على بعضها الآخر، فأهل العراق انقضوا برماحهم، فتصدى لهم أهل الشام بالسيوف القاطعة، وصمد كلّ فريق لعدوه صمود الندّ للندّ، ومن تلك الأبيات قول محمّد:[1]

فطارتْ إلينا بالرماح كما تُهمْ ... وطِرْنا إليهمْ في الأكُفّ قواضِبُ

إذا ما أقولُ: استهزمُوا، عَرضتْ لنا ... كتائبُ منهم، وارْجَحَنّتْ كتائبُ

فلاهُمْ يُوَلُّونَ الظهورَ فيُدْبرُوا ... ونحنُ كما هُمْ نلتقي ونضاربُ

والأبيات تظهر إنصاف الشاعر لأعدائه، ومثل هذا الإنصاف نلحظه في قول عمرو بن العاص في صفين أيضاً:[2]

أجئتُمْ إلينا تسفِكُونَ دِماءَنا ... ومارُمْتُمُ وَعرٌ من الأمْرِ أَعْسَرُ

تعاورْتُمْ ضَرْباً بكلّ مُهَنّدِ ... إذا شدَّ وَرْدانٌ تقدَّمَ قَنْبَرُ

كتائبكمْ طَوْراً تَشُدُّ وتارةً ... كتائِبُنا فيها القَنا والسَّنَوَّرُ

إذا ماالتقوا يوماً تَدارَكَ بينَهم ... طِعانٌ وموتٌ في المعاركِ أحْمَرُ

وتنسب أشعار منصفة كثيرة إلى أصحاب معاوية بخاصة، ولعلّ في ذلك إشارة إلى وجود إحساس داخلي لدى أصحابها بعدالة قضية عليّ، وبخطأ موقفهم المعادي له.

٢ـ الحماسة في المعركة

يمتاز شعر الحماسة في المعركة بقوة العاطفة واندفاعها وشدّة المعاني وتنوع مظاهر التعبير عن البطولة واختلاجات النفس، ومن ذلك مايصدر عن المتبارزين من أشعار قبيل الالتحام؛ ففي غزوة الخندق اقتحم عمرو بن عبدودّ العامري الخندق على المسلمين، وراح يطلب من يبارزه، وهو يقول:[3]

ولقد بَحَحْتُ من النّدا ... ء بجمعكُمْ، هَلْ من مبارزْ؟

وَوَقَفْتُ إذْ جُبُنَ المُشَـ ... ـجّعُ مَوْقِفَ القِرْنِ المناجزْ

---

[1] الاستيعاب ص١٣٧٥.

[2] وقعة صفين ص٣٤٣. ووردان: غلام عمرو بن العاص. وقنبر: مولى علي بن أبي طالب.

[3] الروض الأنف ٦/٣١٦ـ ٣١٧. والهزاهز: تحريك البلايا والحروب.

وكـــذاكَ إنّـــي لم أزَلْ مُتَسَـرِّعاً قبـلَ الهَزاهِـزْ

إنّ الشجاعةَ في الفتى والجودَ مِن خَيْرِ الغرائِزْ

فقام عليّ، فقال: يارسول الله، أنا لـه، فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمرو، فأذن له النبيّ، فمشى إليه عليّ، وهو يقول:

لا تَعْجَلَـنَّ فقد أتـا كَ مجيب صوتِكَ غيرَ عاجزْ

ذو نيّـةٍ وبَصـيرةٍ والصدْقُ مُنجي كلَّ فائِزْ

إنّي لأرجو أنْ أُقيمَ عليكَ نائحةَ الجنائزْ

مِنْ ضربةٍ نجلاء يَبْـ قَى ذكرُها عند الهزاهِزْ

ومثل ذلك كثير.

ويغلب على شعر الحماسة في المعركة بروز الفردية، وتضخم الأنا، ويبرز ذلك في إسناد الشاعر البطولة إلى نفسه، وفي إعجابه بها، وتلذّذه بالحديث عنها، ومن ذلك قول عكرمة بن أبي جهل في حروب الردّة:[1]

أُهَفِـذُ قـولي ولـه نَفـاذُ وكـلُّ مَـنْ جاورنـي مُعَـاذُ

وفي صفين أقبل عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية الأعظم، وهو يقول:[2]

أنا ابنُ سيفِ الله ذاكُمْ خالدِ أضربُ كلَّ قَدَم وساعِدِ

بصارم مثل الشهابِ الواقدِ أنصُرُ عمّي إنَّ عَمّي والدي

بالجُهد لابلْ فوقَ جهدِ الجاهدِ ماأنا فيما نابني براقِدِ

وبعض الفرسان تتحطم سيوفهم في المعركة من شدّة الضرب، وتتقصف رماحهم من عزم الطعن، فيتنادون بمثل قول خالد بن سعيد بن العاص في موقعة مرج الصُّفّرِ مع الروم بالشام:[3]

مَن فارسٌ كَرِهَ الطّعان يُعيرني رُمْحاً إذا نزلوا بمرج الصُّفّر؟

والفارس الشجاع يضع نصب عينيه أن يَقتل أويُقتل في أثناء احتدام المعركة،

---

(1) تاريخ الطبري ٣/٣٣٧.

(2) وقعة صفين ص٣٩٥.

(3) فتوح البلدان ١/١٤١.

ومن الشعر المعبّر عن ذلك قول هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص في صفين:[1]

أعــورُ يبغــي أهلَــه مَحَــلاً ... قَــدْ عــالجَ الحيــاةَ حتــى مَــلاً

يَشلُّهــمْ بالسَّــمْهَريّ شَــلاً ... لابــدّ أنْ يَفُــلّ أويُفَــلاً

وقد يشعر المقاتل بحرج قائده، فيذكّره ببسالة الجند ليعيد الثقة إلى نفس قائده، بمثل قول رجل من بني تيم الأدرم مخاطباً عائشة أم المؤمنين يوم الجمل:[2]

ياأمَّنــا ياعيــشُ لاتُراعــي ... كــلُّ بنيــكِ بطــلٌ شــجاعي

والمقاتل يدافع عن قائده باستماتة، ويحض الآخرين على ذلك في مثل قول عبد الرحمن بن عتاب القرشي عند جمل عائشة أم المؤمنين:[3]

أنـا ابنُ عتّــابٍ وســيفي وَلوَلْ ... والمــوتُ عنـد الجمـلَ المُجلّــلْ

ويفخر المحارب في أثناء المعركة بقائده، فهاشم بن عتبة يقاتلُ:[4]

مــع ابــن عــمّ أحمــدَ المعَلّــى ... فيـه الرســولُ بـالهدى اسـتَهَلاً

أوّل مــن صدّقــه وصَلّــى ... فجاهَــدَ الكفــارَ حتّــى أبْلَــى

معبّراً بذلك عن قناعته بعدالة القضية التي يقاتل من أجلها.

والقائد يشجع أمراءه على القتال بمثل قول علي بن أبي طالب لابنه محمد:[5]

اطعنْهــمُ طعْــنَ أبيــك تُحْمَــدِ ... لاخــيرَ في الحــربِ إذا لم تُوقَــدِ

بالمشْرفِيّ والقنا المسَرْهَدِ

وظهر أثر الإسلام في كثير من تلك الأشعار، ومن ذلك قول علي بن أبي طالب:[6]

أنـا الـذي سَـمَّتْني أُمــي حَيْـدَرَهْ

أَضـربُ بالسَّـيفِ رؤوسَ الكَفَـرَهْ

أَكِيلُهُـمْ بالصـاع كَيْلَ السَّـنْدَرَهْ

---

(1) الإشتقاق ص١٥٤

(2) جمهرة نسب قريش ـ مخطوط ص٢٠٠/ ب وشجاعي: منسوب إلى شجاع.

(3) نسب قريش ص١٩٣. وولول: اسم سيفه.

(4) وقعة صفين ص٣٢٧

(5) مروج الذهب ٢/ ٣٦٧. والمسرّد: من السرد، وهو الثقب والمتابعة.

(6) الروض الأنف ٦/٥٦٦. والندرة: مكيال ضخم. وقيل: امرأة كانت تبيع القمح وتوفّي الكيل.

وكان الحارث بن هشام المخزومي، يقاتل، وهو يرتجز بقوله:[1]

إنّـــي بربّـــي والنّـــبيّ مُؤمِـــنْ

والبعـثِ مـن بعـدِ المـاتِ مُوقِـنْ

أقبـحْ بشَـخْص للحيـاةِ موطِـنْ

ومن ذلك أيضاً قول خالد بن الوليد يوم «فحل»:[2]

أضربُهـمْ بصـارم مُهَنَّـدِ ... ضربَ صليبِ الدّين هادٍ مُهْتَدِ

لاواهـنَ القـولِ ولامُفَنَّدِ

فالشاعر المسلم يقاتل نصرة لدين الله، وطلباً للثواب والجنة.

* * *

لقد اتّسم شعر الحماسة القرشي في صدر الإسلام بطابع القوة، وصدق التجربة؛ فهو وليد الغزوات والفتوحات، والصراع على الخلافة، وبرزت فيه صور من التهيؤ للمعركة، ومشاهد من الحروب الطاحنة، وخلجات النفوس في المعارك، وتأثر شعر الحماسة بالإسلام حيث أظهر الشعراء الالتزام بالعقيدة، والدفاع عنها.

-٣-

شعر الرّثاء

١ـ رثاء الأفراد

يثير موت الأحبة في نفوس محبيهم الحزن والأسى، ويذكرهم بمآثر الراحلين التي تدعوا إلى الإكبار والإجلال، ولاغرو ـ والأمر كذلك. أن نجد أغلب معاني الرثاء الجاهلي تمتد إلى صدر الإسلام؛ ومن ذلك قول نُعم بنت حريث المخزومية ترثي زوجها الذي استشهد بأحد:[3]

ياعينُ جُودِي بدمع غير إبساس ... وابكي الرّزيّةَ عثمانَ بنَ شَمَّاس

صعبُ البديهةِ ميمونٌ نقيبَتُهُ ... حَمَّالُ ألويةٍ رَكّابُ أفراس

غَيثٌ سريعٌ إذا ماأزمةٌ أزمَتْ ... تَبْري العظامَ وتَبْري قمّةَ الراس

---

[1] الإصابة ١/٢٩٤.

[2] تاريخ فتوح الشام ص١٣٦. والمفند: الذي لارأي فيه.

[3] جمهرة نسب قريش ـ مخطوط ص ١٥٣/ب. وبدمع غير إبساس: ترغب أن تسيل دموعها بغير تكلف.

قد قلتُ لمّا أتوا ينعَوْنَــهُ جزَعــاً: أودى الجوادُ وأودى المطعمُ الكاسـي

فالأبيات تظهر جزع الشاعرة لفقد زوجها، وإكبارها لشجاعته وجوده.

وحين قُتل عثمان رضي الله عنه أظهر الوليد بن عقبة الأموي حزنه الشديد وضعف جسمه، وهلع قلبه، وتمنى لوجاءه الموت قبل أن يسمع نبأ مقتل الخليفة، وفي ذلك يقول:[1]

ليتَ أنّي هَلَكْتُ قبل حديثٍ سَلَّ جسمي وَريعَ منه فؤادي
يوم لاقيتُ بالبلاطِ بجَاداً ليتَ أنّي هلكتُ قبلَ بجَادِ

والنموذجان السابقان يفتقران إلى المعاني الإسلامية، وهي معان تظهر في شعر رثاء الأفراد القتلى بعامة، ومن ذلك رثاء صفية بنت عبد المطلب لأخيها حمزة، فهي تعدّ استشهاده فوزاً كبيراً، فحمزة لبّى دعوة الله له إلى الجنة، فهي مصيره المنتظر، ولكنها ستبقى باكية حزينة على أسد الله، تقول صفية:[2]

دعاهُ إلهُ الحقّ ذو العرش دَعْوَةً إلى جَنّةٍ يحيا بها وسُرُور
فذلك ماكُنّا نُرَجّي ونَرْتجي لحمزَةَ يومَ الحشر خيرُ مصيرَ
فواللهِ لاأنساكَ ماهبّتِ الصَّبا بكاءً وحُزْناً مَحْضري ومَسيري
على أسدِ اللهِ الذي كان مِدْرَهاً يذودُ عن الإسلام كلَّ كفور

ولعاتكة بنت زيد العدوي القرشية القدح المعلى في رثاء الأفراد القتلى؛ فهي من أشهر المردفات في عصرها، وأزواجها صحابة قرشيون كبار، ماتوا شهداء، فأنشدت مقطعات في رثائهم؛ فحين مات زوجها الأول عبد الله بن أبي بكر بسهم أصابه بالطائف قالت:[3]

فُجعْتُ بخير الناس بعدَ نبيهمْ وبعدَ أبي بكر وماكانَ قَصَّرَا
فآليتُ لاتنفكُّ عيني سَخينةً عليكَ ولاينفكُّ جلدي أغبرَا
مَدَى الدهر ماغنّتْ حمامةُ أيْكَةٍ وماطَرَّدَ الليلُ الصباحَ المنوِّرَا
فللهِ عينا من رأى مثلَهُ فتىً أكَرَّ وأحْمَى في الجهادِ وأصْبَرَا

---

(1) الأغاني ٥/١٤٩. وبجاد: مولى عثمان الذي أخبر الوليد بمقتل مولاه. والبلاط: موضع بالمدينة مبلط بالحجارة، وهو بين مسجد الرسول وسوق المدينة.

(2) سيرة ابن هشام ٣/٩١ ـ ٩٢. والمدره: الذي يدفع عن قومه بلسانه ويده.

(3) المردفات في قريش ص٦٢.

إذا شَرعتْ فيه الأسِنَّةُ خاضَها إلى الموتِ حتى يَتْرُكَ الرمحَ أحْمَرَا

فَزَوَّجُها خيرُ الناس، لكن إسلامها قيّد هذا التفضيل؛ فقدمت الرسول وأبا بكر عليه، والأبيات تظهر شجاعة الشهيد وصبره على الجهاد.

وسرعان ماخطبها وتزوجها ابن عمها عمر بن الخطاب، ثم فجعت به، فرثته بمقطعات عدّة، أعلنت فيها حزنها وطول ليلها، وأشادت بشجاعة عمر وكرمه، وأبرزت منزلته الدينية العظيمة، وسجاياه الإسلامية، فهو أمير المؤمنين:[1]

أبكي أميرَ المؤمنينَ ودونَهُ للزّائرينَ صفائحٌ وصعيدُ

وهو الإمام النجيب، وعصمة الله، ومعين الضعفاء:[2]

عينُ جُودي بعَبْرَةٍ ونحيبِ لاتَمَلّي على الإمامِ النّجيبِ

عِصْمَةِ اللهِ، والمعينِ على الدّهـ ـرِ، غياثِ المنتابِ والمحروبِ

وهو التالي للقران والصادق السريع إلى الخيرات:[3]

فجّعني فيروزُ لادَرَّ درّه بأبيضَ تالٍ للقرآن مُنيبِ

رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدا أخي ثِقَةٍ في النائباتِ نجيبِ

متى مايقلْ لايكذِبُ القولَ فِعْلُهُ سريعٌ إلى الخيراتِ غيرُ قَطوبِ

وهي تطلب الرحمة لزوجها، في قولها:[4]

جَسَدٌ لُفِّفَ في أكفانِهِ رَحْمَةُ اللهِ على ذاكَ الجَسَدْ

ثم تزوجت عاتكة الزبير بن العوام، فقتل عنها غدراً يوم الجمل، فرثته بأبيات، استنكرت فيها غدر القاتل، وأكبرت شجاعة زوجها وبلاءه في الحروب، وظهرت الروح الإسلامية بقولها مخاطبة القاتل:[5]

شَلّتْ يمينُكَ إنْ قَتلتَ لمسلماً حَلّتْ عليكَ عقوبَةُ المتعمِّدِ

ورثى عبد الله بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص والده هاشماً الذي قتل في

---

[1] الأغاني ٦١/١٨.

[2] المصدر السابق ٦١/١٨. والمنتاب: الذي أصابته مصيبة.

[3] المردفات في قريش ٦٣.

[4] شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص١١٠٧.

[5] المردفات في قريش ص٦٤. ونسبها صاحب العقد الفريد (٢٧٧/٣) إلى أسماء بنت أبي بكر وقال إنها تروي لعاتكة أيضاً.

صفين بقوله:[1]

أهاشمُ بنَ عتبةَ بن مالكْ أعززْ بشيخ من قريش هالكْ
تَخْبطُهُ الخيلاتُ بالسنابكْ في أسودٍ من نَقْعِهنَّ حالكْ
أَبْشِرْ بحور العين في الأرائكْ والرَّوح والرَّيحان عند ذلكْ

فالشاعر يبَشِّر والده بحور العين والراحة والرغد في الجنة.

وأمّا رثاء الأفراد غير القتلى فكان قليلاً، ومنه قول أم المؤمنين، أم سلمة المخزومية ترثي الوليد بن الوليد بن المغيرة بأبيات تفتقر إلى المعاني الإسلامية:[2]

ياعينُ فابكي للوليـ ـد بن الوليد بن المغيرهْ
قد كان غَيْثاً في السنيـ ـن ورَحْمَةً فينا ومِيرَهْ
ضخمَ الدّسيعةِ ماجداً يسمو إلى طلبِ الوتيرهْ
مثل الوليد بن الوليـ ـدِ أبي الوليد كفى العشيرهْ

والظاهرة البارزة في هذا المجال هي رثاء الشعراء للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن القصائد التي يُطمأن إلى صحتها قصيدة لصفية بنت عبد المطلب، بسند الزبير بن بكار ترثي فيها الرسول، ومنها قولها:[3]

ألا يارسولَ اللهِ كُنْتَ رجاءَنا وكُنْتَ بنا بَرّاً ولم تَكُ جافياً
وكنتَ رحيماً هادياً ومُعَلّماً لِيَبْكِ عليكَ اليومَ من كان باكيا
لعمرُكَ ماأبكي النبيَّ لِفَقْدِهِ ولكنْ لما أَخْشى من الهَرْج آتيا
كأنّ على قلبي لذكر محمّدٍ وماخفتُ من بعد النبيِّ المكاويَا
أفاطِمُ صَلّى اللهُ ربُّ محمّدٍ على جدثٍ أمْسَى بيثربَ ثاويَا
فدىً لرسول اللهِ أُمّي وخالتي وعمّي وآبائي ونفسي وماليا
صَدَقْتَ وبَلّغْتَ الرسالةَ صادِقاً ومتَّ صليبَ العودِ أبلجَ صافيا
فلو أنّ ربّ الناس أبقى نَبِيّنا سَعِدْنا ولكنْ أمرهُ كانَ ماضيا
عليكَ من اللهِ السلام تحيةٌ وأُدخلتَ جنّاتٍ من العُدْن راضيا

---

[1] وقعة صفين ص٣٤٨. والرَّوح: الراحة. والريحان: الرحمة والرزق.

[2] الاستيعاب ص١٥٥٩. والميرة: الطعام يجمع للسفر وغيره. والدسيعة: الجفنة الواسعة. وكان الوليد قد هرب من قريش مهاجراً إلى المدينة، ومات في عهد الرسول.

[3] المصدر السابق ص٤٨- ٤٩. ورويت القصيدة لأروى بنت عبد المطلب (الطبقات الكبرى ٢/٣٢٥- ٣٢٦)

فالقصيدة تبرز بعض صفات الرسول الدينية، فهو الرجاء والبارّ والرحيم والهادي والمعلّم والصادق والمرسَل، وفيها تخوّف ممّا سيؤول إليه أمر المسلمين، ودعاء للرسول بالرحمة وتفدية له بالنفس والأهل والمال، واستسلام لقضاء الله.

ومن رثاء الرسول قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:[1]

أَرِقْـتُ فبـاتَ ليلـي لايَـزولُ ... وليـلُ أخـي المصيبـةِ فيـه طـولُ

وأَسْعَدَني البكـاءُ وذاكَ فيمـا ... أُصيـبَ المسلمونَ بـه قليـلُ

لقـد عَظُمَـتْ مُصيبَتُنـا وَجَلَّـتْ ... عَشِيَّةَ قيلَ: قـد قُبِضَ الرسـولُ

وأَضحـتْ أرضُنـا ممّـا عَراهَـا ... تكـادُ بنـا جوانبهـا تميـلُ

فقدنـا الوحـي والتنزيل فينـا ... يـروحُ بـه ويغْـدو جـبرئيلُ

نـبيٌّ كـانَ يجلـو الشّـكَّ عَنّـا ... بمـا يُوحـى إليـه ومـا يقـولُ

ويَهدينـا فـلا نخشـى ضَـلالاً ... علينـا والرسـولُ لنا دَليـلُ

فالشاعر أرق لمصاب المسلمين بوفاة الرسول، فقد افتقدوا برحيله الوحي والقيادة النبوية الهادية. وثمة أشعار قرشية كثيرة في رثاء الرسول، وهي تفيض بالأسى، وفيها تخوّف من الأمطار التي سيتعرض لها المسلمون بعد وفاة نبيهم وقائدهم.[2]

٢ - رثاء الجماعات

تلتهم الحروب والأمراض السارية أنفسا كثيرة، فيسكن الأسى في نفس من يفتقد جماعة من أهله وعشيرته، ومنهم المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي الذي أظهر في أبيات - وهو راض بقضاء الله - تعاون الطعن والطاعون على فناء رهطه، فقد خرج الحارث بن هشام المخزومي الى فتوح الشام في سبعين من أهل بيته فلم يرجع منهم الا أربعة، أحدهم المهاجر بن خالد الذي قال يرثيهم:[3]

مَـنْ يَسْكُنِ الشـامَ يُعَـرِّسْ بـه ... والشّـامُ إنْ لم يُفْنِنـا كـارِبُ

---

[1] الروض الأنف ٧/٥٩٣- ٥٩٤.

[2] انظر بعض ذلك في الطبقات الكبرى ٢/٣٢٥- ٣٣٠، وعيون الأثر ٢/٣٤٠، والعمدة ٢/١٥٣.

[3] تاريخ الطبري ٤/٦٥ ويعرس به: ينزل به. وكارب: دان وقريب. وريطة: امرأة المغيرة بن عبد الله المخزومي، وقد ولدت منه عشرة رجال.

أفنَـى بـني رَبْطَـةَ فرسـانُهُمْ عشـرونَ لم يُقْصَـصْ لهـم شـاربُ
ومـن بـني أعمـامِهِمْ مثلُهُـمْ لمثـلِ هـذا أُعْجِـبَ العـاجبُ
طعنـاً وطاعونـاً مَنَايـاهُمُ ذلـكَ مـا خَـطَّ لنـا الكـاتبُ

وقُتل هاشم بن عتبة الزهري في صفين، فجزع الناس عليه جزعاً شديداً، وقد أصيب معه جماعة من أسْلَم من القُرّاء، فمرّ علي بن أبي طالب بهم، فقال:(١)

جَـزَى اللهُ خـيراً عصبـةً أسْـلَمِيّةً صِباحَ الوجوهِ صُرِّعُوا حولَ هاشِـمِ
بشـرٌ، ومعبدٌيزيـد، وعبـد اللهِ، وسـفيانُ وابنـا هاشـم ذي المكـارم
وعـروةُ لايبعـدْ ثنـاه وذِكْـرُهُ اذا اخْتُرِطَتْ يوماً خِفافُ الصَّوارم

فعليّ أشاد بشجاعتهم ودعا لهم بالخير.

ومن رثاء الجماعات قول زينب بنت العوام بـن خويلد ترثي ابنها وأخيها وعثمان بن عفّان:(٢)

أَعينَـيَّ جُـودا بـالدموع وأَسْـرِعا على رَجُـل طَلْـق اليديـن كريـم
زُبـيراً وعبـد اللهِ نَدْعُـو لحـادثٍ وذي خَلَّـةٍ منّـا وحَمْـل يتيـم
قَتَلتُـمْ حَـواريَّ النـبيِّ وصِهْـرَهُ وصاحِبَـهُ فاستبشـروا بجحيـم
وقـد هَدَّنـي قَتْـلُ ابـن عفّـانَ قَبْلَـهُ وجـادتْ عليـه عَـبْرَتي بسُـجُوم
فكيف بنا؟ أم كيف بالدين بعد مـا أُصيبَ ابنُ أروى وابـنُ أمّ حكيـم؟
وعَطَّشْـتُمُ عثمـانَ في جَوْفِ دارِهِ شَرِبْتُمْ بشُرْبِ الهيم شَوْبَ حَميـم

لقد ظهر الطابع الإسلامي في رثاء الجماعات، اذ نجد فيه تسليما بقضـاء الله واحتفالا بالصفات الإسلامية، وغيرة على الديـن، وإنـذاراً لقتلـة الصحابـة بعـذاب النار.

* * * * *

ظلّ الرثاء لدى قريـش في صـدر الإسـلام محصـوراً داخـل نطـاق القبيلـة، ولم يتجـاوز ذلـك إلا نـادراً، وكـانت مشـاركة المرأة في رثـاء أقاربهـا ظـاهرة، ومـن الملاحظ أن نصوص الرثاء في صدر الإسلام قليلة بالمقارنة مـع مـا رأينـاه في العصـر

---

(١) وقعة صفين ص ٣٥٦. واخترط السيف : استله من غمده.

(٢) جمهرة نسب قريش ٣٧٩/١ - ٣٨٠. وحمـل اليتيـم: كفالتـه ومعونتـه. والهيـم : جمـع أهيـم، والأهيـم مـن الرجال والإبل : العطشان أشد العطش. والشوب : ما اختلط بغيره من الأشياء، وبخاصة السوائل.

الجاهلي، ويرجع ذلك الى أثر العقيدة الإسلامية في النفوس، فالأمل بلقاء الأحبة الراحلين في الآخرة يصبّر القلوب التي تتعزّى بما أعده الله للصالحين من الثواب، ومن الأخبار ذات الدلالة هنا أن نُعم بنت حريث المخزومية رثت زوجها الذي استشهد في أحد، فقال لها أخوها نعمان بن حريث مُعَنِّفاً:[1]

اقْنِيْ حياءَكِ في سِتْرٍ وفي خَفَرٍ　　فإنّما كان عثمانٌ مِن الناس

لاتَقْتُلِي النفس إذْ حانَتْ مَنِيَّتُهُ　　في طاعةِ اللهِ يوم الروع والباس

وقد تلّون أغلب شعر الرثاء بالمعاني الإسلامية، وظهر بذلك عمق أثر الاسلام في نفوس الشعراء ومناحي تفكيرهم.

— ٤ —

شعر الفخر

توضّعت قيم قريش بعد الاسلام وفق ترتيب جديد، سادت فيه العقيدة الإسلامية فامتزجت القيمة الدينية بالقيم الأخرى، وعلا شأن القوة والبطولة في ظلّ الجهاد من أجل تأسيس الدولة ونشر الإسلام، فاعتد الناس بالدين والقوة، وافتخروا بهما، ومن الأشعار التي تفصح عن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مفتخراً يوم حُنين:[2]

لقد عَلِمَتْ أفناءُ كَعْبٍ وعامِرٍ　　غَداةَ حُنين حين عَمَّ التَّضَعْضُعُ

بأنّي أخو الهيجاء أرْكَبُ حَدَّها　　أمامَ رسولِ اللهِ لا أَتَتَعْتَعُ

رجاءَ ثوابِ اللهِ واللهُ واسِعٌ　　إليه تعالى كلُّ أمْرٍ سَيَرْجِعُ

فبطولة الشاعر كانت بين يدي رسول الله دفاعا عن العقيدة، وجهادا في سبيل نشرها ورجاء لثواب الله، وبذلك تواضعت نفس الشاعر لله ورسوله تواضعا لم تألفه نفوس الجاهليين.

---

[1] جمهرة نسب قريش – مخطوط ص ١٥٣/ ب

[2] الطبقات الكبرى ٥٢/٤. وكعب وعامر : ولدا لؤي بن غالب بن فهر. وأتتعتع: أتردد.

ورويت لعلي بن أبي طالب أبيات مشابهة، وهي قوله:[1]

أفاطِمَ هاكِ السيفَ غيرَ ذَمِيم ... فَلَسْتُ برعْدِيدٍ ولا بمُلِيم

لَعمري لقد قاتَلْتُ في حُبِّ أحمدٍ ... وطاعةِ ربٍّ بالعبادِ رَحيم

وسيفي بكَفّي كالشّهابِ أَهُزُّهُ ... أَجذُّ به من عاتق وصَميم

فما زلتُ حتّى فضَّ ربّي جُمُوعَهُمْ ... وحتّى شفينا نَفْسَ كلِّ حَليم

فالإيمان يهيمن على نفس الشاعر، والبطولة تقترن بالتواضع لله، فالنصر كان بفضله، وبه تشتت جمع الأعداء.

وقد تقترن القيمة الدينية بالعصبية القبلية كما في قول عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وقد خرج يطلب مبارزة بعض الروم:[2]

أنا ابنُ عبدِ اللهِ ذي المعالي ... والشرف الفاضل ذي الكمال

أبي المجدُ الصادقُ المقال ... الدينُ هذا الدينُ بالفعال

وفي قول عبيد الله بن عمر بن الخطاب:[3]

أنا عُبَيْدُ اللهِ يَنْمِيني عُمَرْ ... خيرُ قريش منْ مَضَى ومَنْ غَبَرْ

إلاّ نبيَّ اللهِ والشيخَ الأغَرْ ... قد أبطأتْ عن نَصْرِ عثمانَ مُضَرْ

فالشاعر يفتخر بنسبه، ولكن إسلامه دفعه الى تقديم الرسول وأبي بكر على والده.

وتتداخل أحيانا قيم الدين والبطولة والعصبية القبلية كما في قول علي بن أبي طالب:[4]

إنّي عَلِيٌّ فاسْألوا لِتُخْبَرُوا ... ثُمّ ابرُزوا الى الوغَى أو أَدْبِرُوا

سيفي حسامٌ وسِناني أَزْهَرُ ... مِنّا النبيُّ الطيّبُ المُطَهَّرُ

وحمزةُ الخيرُ ومنّا جَعْفَرُ ... لنا جناحٌ في الجنان أخضَرُ

ذا أَسَدُ اللهِ وفيه مَفْخَرُ ... هذا وهذا وابن هندٍ مُحْجَرُ

مُذَبْذَبٌ مُطَرَّدٌ مُؤَخَّرُ

---

[1] تاريخ الطبري ٢/٥٣٣

[2] فتوح الشام ١/٧٧

[3] وقعة صفين ص ٢٩٩ والشيخ الأغر : أبو بكر الصديق

[4] المصدر السابق ص ٤٦٠ - ٤٦١. وابن هند: معاوية بن أبي سفيان. ومحجر : متأخر.

وقوله أيضا، وقد خرج لمبارزة حُريث مولى معاوية بن أبي سفيان:[1]

أنا عليٌّ وابنُ عبدِ المطلبْ ... نحنُ لَعَمْرُ اللهِ أَوْلَى بالكتبْ

منّا النبيُّ المصطفى غيرَ كذِبْ ... أهلُ اللواء والمقام والحُجُبْ

نحنُ نَصَرْناه على جُلِّ العربْ ... يَأَيُّها العبدُ العزيزُ المنتدِبْ

اثبتْ لنا يأَيُّها الكلبُ الكَلِبْ

وقد تضاءلت القيمة المادية في شعر الفخر، فالشاعر القرشي لم يعد يفتخر بامتلاك الأموال والنساء البيض والثياب الفاخرة، ولكنه افتخر بالكرم أحيان، ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما:[2]

اذا طارقاتُ الهَمّ ضاجعتِ الفتى ... وأعملَ فِكْرَ الليل والليلُ عاكِرُ

وباكرني في حاجةٍ لم يكنْ لها ... سوايَ ولا من نكبةِ الدّهر ناصرُ

فَرجتُ بمالي همَّهُ عن خناقِهِ ... وزايَلَهُ الهمُّ الطّروقُ المساورُ

وكان له فَضْلٌ عَلَيَّ بظَنّهِ ... بي الخيرَ إني للذي ظنَّ شاكِرُ

وأثر الإسلام ظاهر في الأبيات؛ فالفخر بالكرم تحول الى ثناء على من قبل العطاء، يُعلي شأن الضعفاء، ويصون كرامتهم. وندرة الفخر بالكرم ظاهرة لمسناها في شعر قريش الجاهلي، وترجع الى سكن قريش في مكة حيث يجد من يؤمها الطعام والمأوى في أسواقها، ويضاف الى ذلك في صدر الاسلام أن المجتمع شهد تطوراً اقتصاديا نعمَ فيه الفقراء بالاكتفاء المادي بفضل الفتوحات، ونصرة الإسلام للفقراء.

وثمة أشعار فخر تفتقر الى القيمة الدينية، وهي امتداد لمعاني الفخر الجاهلي، ومن ذلك قول الزبير بن العوام يوم الخندق:[3]

متى تَلْقَني يَعْدُو ببَزّي مُقَلّصٌ ... كُمَيْتٌ بَهِيمٌ أو أَغَرُّ مُحَجَّلُ

تلاقِ أمراً إنْ تَلْقَهُ فَبِسَيْفِهِ ... تُعَلّمُكَ الأيامُ ماكنتَ تَجْهَلُ

ومن الفخر بالبطولة قول مروان بن الحكم الأموي في دفاعه عن عثمان يوم

---

(1) المصدر السابق ص ٢٧٢ – ٢٧٣.

(2) العقد الفريد ١/ ٢٣٠. والليل عاكر: مشتد ظلامه. والطروق : الذي يأتي ليلا. والمساور :المواثب.

(3) المصدر السابق ١/ ١٨١ – ١٨٢. والبز : السلاح. والمقلص من الأفراس: المشرف الطويل. والبهيم من الخيل: مالاعيب فيه.

الدار:[1]

ماقلتُ يومَ الدار للقوم حاجزوا رُوَيْداً ولااستبْقُوا الحياةَ على القَتْل
ولكنّني قد قلتُ للقوم ماصِعُوا بأسيافِكُمْ كَيْمَا يَصِلْنَ الى الكَهْل

وفخر علي بن أبي طالب ببطولة أصحابه، فقال:[2]

وكم قد تركْنا في دمشقَ وأَرضِها مِنَ اشْمَطَ موتور وشمطاءَ ثاكِل
وعانيةٍ صادَ الرماحُ حَلِيلَها فأضحتْ تُعدُّ اليومَ إحدى الأرامل
تُبكّي على بَعْل لها راح غادياً فليس الى يوم الحسابِ بقافل
وإنّا أُناسٌ ماتصيبُ رِمَاحُنا إذا ماطَعَنّا القومَ غيرَ المقاتِل

فهو يفخر بشجاعة أصحابه وبطولتهم التي وترت أهل الشام، وأثكلت نساءها.

وافتخر عمرو بن العاص بدهائه يوم صفين في قوله:[3]

اذا تخازَرْتُ ومابي من خَزَرْ ثُمَّ كَسَرْتُ العينَ من غير عَوَرْ
أَلْفَيتني ألوي بَعيدَ المستَمَرّ أحمِلُ ماحُمِّلْتُ من خيرٍ وشرّ

ومثل ذلك قول عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في صفين أيضاً:[4]

إنّي إذا ماالحربُ فُرَّتْ عن كِبَرْ تَخالني أَخْزَرَ من غير خَزَرْ
أُقْحِمُ والخَطّيّ في النقْع كَشَرْ كالحيّةِ الصماء في رأس الحُجُرْ
أَحْمِلُ ماحُمِّلتُ منْ خيرٍ وشرّ

فعبد الرحمن يفخر بالشجاعة والدهاء مثل عمرو، ولكنهما تجاهلا القيمة الدينية، ولم يحفلا بها في تلك الأبيات.

ومن الشعر الذي يفتقر الى الروح الإسلامية، ويفيض بالروح الجاهلية قول جعدة بن هبيرة المخزومي، يفخر بنسبه:[5]

---

[1] تاريخ الطبري ٣٩٤/٤. وما صعوا : قاتلوا وجالدوا.

[2] وقعة صفين ص ٤٩٢ - ٤٩٣.. وليس بقافل :ليس براجع.

[3] الأخبار الموفقيات ص ١٨٤. وتخاذر : فتح عينيه وأغمضها، أو أن يحول إحدى عينيه.

[4] وقعة صفين ص ٣٩٦. وفرت عن كبر : كشفت عن أمور عظيمة. والصماء : التي لايطمع فيها، ولا ترد عن هواها.

[5] البيان والتبيين ٣٢٤/٢.وأم جعدة : هي أم هانىء أخت علي وعقيل. ويبأى : يفاخر ويعاظم.

أبي من بني مخزوم إنْ كنتَ سائلا ومن هاشم أُمّي لخير قبيل
فَمَنْ ذا الذي يبأى عَلَيَّ بخالِه وخالي عَلِيٌّ ذو الندى وعقيلُ

وذلك الفخر بالنسب من رواسب الجاهلية التي لن يدعها العرب.

* * * * *

لقد سرت الروح الإسلامية في معاني الفخر القرشي، فغدت القيمة الدينية في المرتبة الأولى، وعلا شأن القوة والبطولة، وتضاءلت القيمة المادية، وأطلّت من ذلك الفخر معان لايقرّها الإسلام، وتدل على تعلق بالقيم الجاهلية.

—٥—

شعر المديح والاعتذار

١ - المديح

تضنّ مصادر شعر قريش علينا بالمديح إلا قليلا، ومن ذلك القليل قول علي بن أبي طالب يمدح الحضين بن منذر، وكان يزحف براية ربيعة يوم صفين:[١]

لمن رايةٌ حمراءُ يَخفِقُ ظلّها إذا قيلَ: قدّمها – حُضَيْنُ – تَقَدَّمَا
ويدنو بها في الصفّ حتّى يديرها حمامُ المنايا تَقْطُرُ الموتَ والدَّمَا
تراهُ إذا ماكانَ يومُ عظيمةٍ أبى فيه إلاّ عِزَّةً وَتكرُّمَا
جَزَى اللهُ قوماً صابروا في لقائهمْ لدى الباس حُرّاً ماأعفَّ وأَكْرَمَا
وأَحْزَمَ صَبْراً حينَ تدعَى إلى الوَغَى إذا كان أصواتُ الكُماةِ تَغَمْغُمَا
ربيعةَ أعني إنّهم أهلُ نجدةٍ وبأس إذا لاقَوا خَمِيساً عَرَمْرَمَا

ومثل ذلك مدح عليّ أيضا لقبيلة همدان التي قاتلت بقوة الى جانب علي في صفين، يقول عليّ:[٢]

دعوتُ فَلَبّاني من القوم عصبةٌ فوارسُ من هَمْدانَ غيرُ لِئام

---

[١] وقعة صفين ص ٢٨٩. والحر (هنا) : الفعل الحسن الجميل. والخميس : الجيش. ورواية البيت الثاني، وهي الوجه، في تاريخ الطبري ٣٧/٥ (....حتى يزيرها حياض..)

[٢] وقعة صفين ص ٢٧٤. وشاكر وشبام : بطنان من همدان.

فوارسُ من هَمْدانَ لَيْسُوا بعُزَّل | غداةَ الوغى من شاكر وشِبام
بكلِّ رُدَيْنِيٍّ وعَضْبٍ تخالُهُ | إذا اختلفَ الأقوامُ شَعْلَ ضِرام
لهمدانَ أخلاقٌ ودينٌ يزينُهم | وبَأسٌ إذا لاقَوا وحَدُّ خِصام
وجدٌّ وصِدْقٌ في الحروبِ ونَجْدَةٌ | وقولٌ إذا قالوا بغير أثام
جَزَى اللهُ همدانَ الجنانَ فإنّها | سِمَامُ العدى في كلِّ يوم زحِام

فأبيات علي تظهر قيمة البطولة، وقد اتشحت بالإسلام؛ فمديح عليّ ثناء على الممدوحين لشجاعتهم ودينهم، ودعاء لهم بالخير ورضا الله وثوابه.

وثمة مديح يفتقر الى القيمة الدينية، ومن ذلك أن خالد بن الوليد دعا يوم السقيفة الى أن تكون الخلافة في قريش، فقال حَزْن بن أبي وهب المخزومي يمدحه:[1]

وقام رجالٌ من قريش كثيرة | فلمْ يكُ في القوم القيام كخالدِ
أخالدُ لاتُعْدَمْ لؤيُّ بنُ غالبٍ | يقاتلُ فيها عند قَذْفِ الجلائدِ
كساكَ الوليدُ بن المغيرةِ مَجْدَهُ | وعَلَّمَكَ الشيخان ضربَ القماحدِ
وكنتَ لمخزوم بن يَقْظَةَ جُنَّةً | كذا اسْمُكَ فيها ماجدٌ وابنُ ماجدِ

فالشاعر يفصح في الأبيات عن عصبيته القبلية وروحه الجاهلية؛ فالذين وقفوا يوم السقيفة مثل موقف خالد كثيرون، ولكن الشاعر خصَّ خالداً بالمديح لأنه مخزومي، كما أغفل الجانب الديني للمناسبة، فهي مناسبة انجلى عنها مبايعة أبي بكر بالخلافة.

وذُكر أنّ أبا عقيل لبيد بن ربيعة العامري كان قد حلف في الجاهلية ألا تهب الصبا إلاّ نحر وأطعم حتى تنقضي، فَهبّتْ في الإسلام، وهو مقتر في الكوفة، فعلم بذلك واليها الوليد بن عقبة الأموي، فخطب الناس، وقال: إنكم قد عرفتم نذرأبي عقيل فأعينوا أخاكم، ثم نزل، فبعث إليه بمائة ناقة، وبهذه الأبيات يمدحه فيها:[2]

أرى الجزّارَ يَشْحَذُ شفرتَيْهِ | اذا هَبّتْ رياحُ أبي عَقيل
أَشَمُّ الأنفِ أَصيدُ عامِريٌّ | طويلُ الباع كالسيفِ الصقيل

---

(1) الإصابة ١/٣٢٥. والقماحد : جمع قمحدوة، وهي الهنة الناشزة فوق القفا، وأعلى القذال خلف الأذنين.

(2) الأغاني ١٥/٣٧٠. وعلى العلات : على أكمل حال في العسر واليسر.

وفَى ابنُ الجعفريِّ بحَلْفَتَيْهِ　　على العِلاّتِ والمالِ القليلِ
بنحرِ الكُوْمِ إذ سُحِبَتْ عليه　　ذيولُ صَباً تَجاوَبُ بالأصيلِ

فالمديح بالكرم والنسب أمر اعتاده الجاهليون، ولا أثر للإسلام فيه.

* * * * *

تجاوز المديح القرشي في صدر الإسلام نطاق القبيلة، فلم يترفع القرشي عن مديح غير أبناء قبيلته، وهذا أمر جديد في قريش، ولكنه لايلغي اعتداد القرشي المادح بنفسه، وترفعه عن التكسب بشعره، فمديح علي بن أبي طالب للحضين بن المنذر ولقبيلتي ربيعة وهمدان لايعدو أن يكون ثناء من القائد على جنوده، ومديح الوليد بن عقبة للبيد بن ربيعة فخر غير مباشر بالنفس، وطلب للذكر الحسن بالتكرم على رجل له منزلة رفيعة بين قومه في الجاهلية والإسلام.

وقد ندر المديح في صدر الإسلام، وذلك بتأثير ما أحدثه الإسلام في مناحي تفكير العرب وموضوعات اهتمامهم، فالمديح لم يعد أمراً مرغوبا به في مجتمع يعيش حالة إشراق ديني، وانبهار بتعاليم الإسلام، فاستبدلت النفوس بحب الثناء والمدح الرغبةَ بالثواب في الآخرة، وانشغلت القلوب والعقول بأمور عظيمة لم تكن في الجاهلية، فزهد الناس بشعر المديح، بل نهى عنه بعضُ الصحابة، فهذا عمر بن الخطاب يسمع الحارث بن أبي وجزة يمدح خالد بن الوليد، فينهاه عن ذلك، ويقول له: (إن حبّ الفخر مَفسَدَة للدين).[1]

٢ — الاعتذار

ارتبطت قصيدة الاعتذار – وهو شعبة من المديح – منذ نشأتها في العصر الجاهلي بالقصور الملكية، وكانت القوة رأس القيم التي أسبغها الشعراء على المعتذر إليهم.[2] ويكمن الدافع الى الاعتذار في الخوف من التقصير في حقّ الممدوح (المعتذر إليه)، وفي الرغبة بنيل الأمان منه.

وقد خلا شعر قريش الجاهلي من الاعتذار، وهذا غير مستغرب في شعر قبيلة يعتد رجالها بأنفسهم، فقبيلتهم لقاح، لم تدن لأحد، ولها الصدارة بين القبائل نسباً

---

(١) الإصابة ٢٩٤/١

(٢) انظر قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي ٤١ – ٤٢ و ٤٨

ومالاً وفصاحة ومنزلة دينية. وحين دخلت قريش كلّها في الإسلام بعد فتح مكة تقدم بعض شعرائها الذين غالوا بعدائهم للإسلام، الى رسول الله بأشعار يعتذرون بها عما بدر منهم قبل إسلامهم، ولم يجدوا في ذلك غضاضة فمحّمد رسول الله وسيد العرب، وهم أقرب الناس إليه، فهذا ابن عم الرسول أبو سفيان بن الحارث يقرّ بضلاله حين عادى الإسلام، وناصر الشرك، ويعلن فضل الرسول عليه، وذلك في قوله:[1]

لَعمرُكَ إنيّ يومَ أحملُ رايةً لِتغلِبَ خَيلُ اللاتِ خيلَ محمّدِ

لكالمُدْلجِ الحيران أظلمَ لَيْلُهُ فهذا أوانُ حينَ أهدِي وأهتدي

هداني هادٍ غيرُ نفسي وقادني الى الله من طَرّدْتُ كلَّ مُطَرَّدِ

وقد أكثر عبد الله بن الزبعرى من الاعتذار الى الرسول، ومن ذلك قوله:[2]

يارسولَ المليكِ إنّ لِسَاني راتِقٌ مافَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

إذْ أُجاري الشيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ أنا في ذاك خاسرٌ مَثبورُ

يَشْهَدُ السمْعُ والفؤاد بما قُلْتُ ونفسي الشهيدُ وهْي الخبيرُ

إنّ ماجئتنا به حقٌّ صِدْقٍ ساطعٌ نورُهُ مضيءٌ منيرٌ

جئتنا باليقين والصدق والبرّ وفي الصدق واليقين السرورُ

أذهبَ اللهُ ضِلّةَ الجَهْلِ عنّا وأتانا الرخاءُ والميسورُ

فالشاعر يعدُ بأن يصلح لسانه ماأفسده في عهد الشرك ومواكبة الشيطان، ويقرّ بأن الإسلام رسالة حق جاء بها محمد، وأن جوارحه آمنت بها بفضل الله.

ونجد ابن الزبعرى في مقطعة ثانية أرقا، تخالج نفسه الهموم والوساوس لأن الرسول يلومه، ولذا تقدم الى الرسول معتذراً ومادحاً، فتنصل من ذنوبه، وألقى تبعتها على بني مخزوم وسهم الذين أمروه بالإساءة الى الرسول والمسلمين، ثم طلب الصفح من الرسول الرحيم الهادي الى نور الإيمان، وذلك حيث يقول:[3]

---

[1] طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٦

[2] الاستيعاب ص ٩٠٢ - ٩٠٣ وفتقت : كل إثم فتق وتمزيق في الدين، وكل توبة رتق. والبور : الهالك، وكذلك المثبور.

[3] طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٢ - ٢٠٣. والمعتلج : المختلط المتداخل. والرواق : ستر يمدّ دون السقف. والبهيم : المظلم، لاضوء فيه الى الصباح. والعيرانة : الناقة النشيطة الصلبة. والناقة الرسوم: التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء.

منعَ الرُّقادَ بلابلٌ وهُمومُ ... والليلُ معتلجُ الرِّواقِ بَهيمُ
مِمّا أتاني أنّ أحمدَ لامني ... فيه فبتّ كأنّني محمومُ
ياخيرَ من حَمَلَتْ على أوصالها ... عَيرانةٌ سُرُحُ اليدين رَسُوم
إنّي لمعتذرٌ إليكَ من الذي ... أسديتُ إذْ أنا في الضلال أهيمُ
أيامَ تأمُرُني بأغوى خُطةٍ ... سَهْمٌ وتَأمرني بها مخزومُ
فاغفِرْ -فدىً لكَ والديَّ كلاهما- ... ذنبي فإنّك راحمٌ مَرْحُومُ
وعليك من أثر المليكِ عَلامةٌ: ... نورٌ أضاءَ وخاتمٌ مختومُ

وأظهر ابن الزبعرى في مقطعة ثالثة سيطرة الهموم عليه وندمه على ماسلف من أخطائه، وهو مشرك يضله بنو جمح وبنوسهم، كما أعلن فيها إيمانه برسالة الإسلام وبنبوة محمد.[1]

ولضرار بن الخطاب قصيدة استعطف فيها الرسول يوم فتح مكة، ويُلحظ فيها اعتذار قرشي جماعي تقدم به ضرار الى الرسول طالبا الرأفة والرحمة، ومنها:[2]

يا نبيَّ الهدى إليكَ ... لجاحيٌّ قريش ولاتَ حينَ لَجاء
حينَ ضاقتْ عليهمُ سعةُ الأرْ ... ض وعاداهمْ إلهُ السماء
والتقتْ حَلْقَتا البطان على القو ... م ونُودوا بالصَّيْلم الصَّلْعَاء
إنّ سعداً يريدُ قاصمةَ الظَّهْـ ... ـر بأهل الحجُون والبطحاء
فانْهينَهُ فإنّهُ أسَدُ الأُسْـ ... ـدِ لَدَى الغابِ والغٌ في الدماء

فابن الخطاب يعبر في هذه الأبيات عن مخاوف قبيلته، ويتقدم بها الى الرسول مستعطفا ومقرّا بالذنب، ومصدقا بنبوة محمد، وراجيا كفّ يد سعد بن عبادة عن قريش يوم فتح مكة. وكانت راية المسلمين مع سعد، فنزعها الرسول منه ترفقا بقريش.

* * * * *

إن الاعتذار غرض جديد في شعر قريش، ظهر في عصر البعثة، وخص به شعراؤها الرسول صلى الله عليه وسلم - ولم يكن اعتذار القرشيين تقليدا لمن

---

(1) انظر الأبيات في الاستيعاب ص ٩٠٣

(2) عيون الأثر ١٧٢/٢. والتقت حلقتا البطان : يقال للأمر اذا اشتد. والبطان : الحزام. والصيلم :الداهية الشديدة، وكذلك الصلعاء.

سبقهم ويدل على ذلك أمران: الأول ظهور القيمة الدينية في شخص الرسول، وكانت مفتقدة عند الجاهليين، والثاني إحساس الشاعر بالأمان، فالدافع الى الاعتذار ليس الخوف من المعتذر إليه، بل الرغبة الصادقة في مدحه والإقرار بالذنب، والتقرب الى الرسول واكتساب وده، والشاعر لايخاف انتقام الرسول لأنه أسلم، والإسلام يجبّ ماقبله من آثام، ولايعاقب عليها.

-٦-
شعر الهجاء

كانت قريش في الجاهلية تعاقب الهجائيين من شعرائها أحيانا حفاظا على وحدتها وتضامنها، وحين ظهر الإسلام ضيقت تعاليمه الهجاء، ونحت به منحى إسلاميا. والنصوص التي وصلت الينا من ذلك الهجاء القرشي قليلة، يظهر فيها الطابع الإسلامي تارة ويختفي أخرى.

ومن الهجاء القرشي الذي تبرز فيه القيمة الدينية قول المبّرق يهجو أهل مكة الذين أعرضوا عن تعاليم الإسلام:[1]

إنّا تَبِعْنا رسولَ الله واطَّرَحُوا ... قولَ الرسول وعالوا في الموازين

وكذلك قوله معيرا قريشا بشركها وجحودها:[2]

فتلك قريشٌ تَجْحَدُ اللهَ رَبَّها ... كما جَحَدَتْ عادٌ ومَدْينُ والحِجْرُ

ومن الهجاء بالكفر قول جعفر بن أبي طالب في الروم:[3]

والرومُ زومٌ قد دنا عذابُها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابُها

وحين خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري في التحكيم بين علي ومعاوية قال عمرو أبياتا مطلعها:[4]

خدعتُ أبا موسى خديعةَ شَيْظم ... يُخادعُ سَقْباً في فلاةٍ من الأرْض

---

(1) سيرة ابن هشام ١/٢٨٦.

(2) نسب قريش ص ٤٠١.

(3) سيرة ابن هشام ٤/١٢.

(4) وقعة صفين ص ٥٥٠. والشيظم: الطويل الجسيم الفتي من الناس والخيل والإبل. والسقب: ولد الناقة.

فرد عليه ابن عباس بأبيات يهجوه فيها، وهي قوله:[1]

كذبتَ ولكنْ مثلُكَ اليومَ فاسِقٌ ... على أمركم يبغي لنا الشرَّ والعَزْلاَ
وتزعمُ أنّ الأمرَ مِنْكَ خَديعةٌ ... إليه وكلّ القول في شأنكمْ فَضْلاَ
فأنتمْ وربِّ البيتِ قد صار دينكمْ ... خلافاً لدين المصطفى الطيّبَ العَدْلاَ
أعاديتمُ حِبَّ النبيِّ ونَفْسَهُ ... فما لكمُ من سابقاتٍ ولا فَضْلاَ
وأنتمْ وربِّ البيت أخبثُ من مشى ... على الأرض ذا نعلين أو حافياً
غدرتُمْ وكان الغدرُ منكمْ ... كأنْ لم يكنْ حرثاً وأن لم يكنْ نَسْلاَ

فالقيمة الدينية في الأبيات واضحة; فابن عباس ينعت عمرا وحزبه بمخالفة تعاليم الإسلام وبمعاداة علي حبيب رسول الله، وأقرب الناس اليه، وبأنهم لاسابقة لهم في الدين، وبأنهم خبثاء شيمتهم الغدر.

وتوجه الشعراء القرشيون بنقدهم أحيانا الى رأس الدولة، فأدانوا تصرفات اعتقدوا أنها تخالف الإسلام، ولاتسير على نهجه القويم، ومن أولئك الشعراء عبد الرحمن بن حنبل الذي نقد بعض تصرفات عثمان بن عفان في قوله:[2]

فإنّ الأمينَيْن قد بَيّنا ... مَنارَ الطريق عليه الهُدَى
فما أخذا دِرْهماً غِيلةً ... وما جَعَلا دِرْهَماً في الهوى
وأعطيتَ مروانَ خُمْسَ العِبادِ ... فَهَيْهاتَ شأْوُكَ مِمَّنْ سَعى

فهو يأخذ على عثمان أنه لم يسر على نهج الأمينين: أبي بكر وعثمان.

ومن المعاني المألوفة في الهجاء نفي البطولة عن المهجو، ومن ذلك أبيات سعد ابن أبي وقاص، غمز فيها قناة قبيلة بجيلة، واتهمها بالضعف في وقعة القادسية، يقول سعد:[3]

وماأرجو بجيلةَ غيرَ أنيّ ... أُؤَمّلَ أجْرَها يومَ الحِسَابِ
وقد لَقِيتْ خيولُهُمُ خيولاً ... وقد وَقَعَ الفوارسُ في الضِّرابِ
فلولا جَمْعُ قعقاع بن عَمْرو ... وحَمّال لِلَجُّوا في الكِذابِ

---

(1) المصدر السابق ص ٥٥٠.

(2) المعارف ص ١٩٥. ومروان: ابن الحكم الأموي، أعطاه عثمان خمس إفريقية.

(3) أصابت سعد بن أبي وقاص قرحة منعته من الاشتراك في بعض أيام القادسية، فعيره بذلك جرير بن عبد الله البجلي (تاريخ الطبري ٣/٥٨٠)

هُــمُ مَنَعُــوا جُموعَكُــمُ بطعــن وضــربٍ مِثْــل تَشْـقيق الإهــابِ
ولـــولاَ ذاكَ أُلفيتُــــمْ رَعاعــاً تُشَـلُّ جموعكُـــمْ مثل الذبـــابِ

ومن الملاحظ أن سعدا ألبس معاني الهجاء القديمة ثوبا إسلاميا، فابتعد عن الإقذاع، وترك أمره وأمر بجيلة لله سبحانه وتعالى.

وروي في أخبار صفين أن بسر بن أرطأة العامري بارز عليا، فطعنه علي، وألقاه على الأرض، ومنع الدرع السنان من الوصول إلى بسر، فاتقاه بسر بعورته، مثلما فعل عمرو بن العاص قبله، في موقف مشابه مع علي، فانصرف علي عن بسر، وقال في ذلك النضر بن الحارث السهمي:[1]

أفي كُـلِّ يـوم فـارسٌ تندبونَــهُ لـه عـورةٌ وَسْـطَ العجاجَـةِ بادِيَـهْ
يَكُـفُّ بهـا عنــه علـيٌّ سِـنانَهُ ويضحـكُ منهـا في الخـلاء معاويـه
بَدَتْ أمْس مـن عمـرو فَقَنَّعَ رأسَهُ وعـورةُ بسـر مثلُها حَـذْوَ حاذِيـه
فقولا لِعمـرو وابـن أرطـاةَ: أبْصِرَا سـبيلَكمُا لاتَلْقيـا الليـثَ ثانيـه
متى تَلْقيـا الخيـلَ المُشيحَةَ صُبْحَـةً وفيهـا علـيٌ فاتركـا الخيـلَ ناحيـه
وكونـا بعيـداً حيـث لايبلـغُ القنـا وحَمِيُّ الوغَى إنّ التجاربَ كافيــه

فالهجاء في الأبيات طريف، يدعو الى السخرية من المهجو، ويستدعي الابتسام بل الضحك من وسيلة التخلص من ضربة علي القاتلة، واكتسب الهجاء بذلك قدرة إضافية على الإيلام.

ومن الهجاء الذي تبرز فيه قيمة القوة والبطولة ويمتزج بالفخر، أبيات لحمزة بن عتبة بن أبي وقاص يذكر فيها تراجع عمرو بن العاص عن القتال في صفين، يقول حمزة:[2]

وَوَلَّى علـى طِـرْفٍ يجـول بشِـكَّةٍ مُقَلَّصَــةٍ أحشـاؤُهُ ليـس يَنْثَنـي
فلـو أدْرَكَتْـهُ البيـضُ تحـتَ لوائِـهِ لَغُــودِرَ مَجْـدُولاً تَعَـاوَرُهُ القَنِـي
عليـه نجيـعٌ مـن دمـاء تَنُوشُــهُ قشـاعِمُ شُـهْبٌ في السباسِبِ تَجتني

وورد في بعض الهجاء طعن في الأنساب كقول الفضل بن عباس للوليد بن

---

(1) وقعة صفين ص ٤٦٢ والخيل المشيحة : الجدة.

(2) المصدر السابق ص ٣٧٧. والطرف : الجواد الكريم. والشكة : السلاح. والقني : الرماح.

عقبة:[1]

أتطلبُ ثاراً لستَ منه ولا له ... وأينَ ابنُ ذكوانَ الصَّفُوريُّ من عمرو

كما اتّصلَتْ بنتُ الحمار بأمّها ... وتَنْسَى أباها إذ تُسَامِي أولي الفَخْر

فالشاعر ينفي نسب الوليد بن عقبة الأموي في قريش، وينسبه الى رجل صفوري وهذا قذف لايرضى به الإسلام دون دليل.

* * * * *

لقد برزت في الهجاء القرشي في صدر الإسلام القيمة الدينية، فانتشرت المعاني الإسلامية في هجاء المشركين، ومن انحرف – في رأي الشعراء – عن تعاليم الإسلام، وأظهر الشعراء الغيرة على مصالح المسلمين، وابتعدوا عن الفحش والإقذاع، وأطلت من ذلك الهجاء قيمة القوة والبطولة، ولم يخل من العصبية القبلية والروح الجاهلية أحيانا.

-٧-

شعر الغزل

١ — الغزل العفيف

الحب عاطفة فطرت عليها القلوب الإنسانية، ولذا أقرها الإسلام، ولكنه وجهها نحو مايصلح حال الفرد والأسرة والمجتمع.[2] والغزل العفيف ثمرة أينعت في ظل الإسلام، وقد اقترن ذلك الغزل بقصص الحب المشوقة التي يسود فيها ألم الفراق، والرغبة في اللقاء، ومن ذلك قصة عبد الله بن أبي بكر وزوجه عاتكة بنت زيد، فقد عاشا تحت سقف واحد، وكل منهما منشغل بصاحبه، وكاد الرجل ينسى أمور دينه ودنياه، فغضب أبو بكر لذلك، وأمر ابنه بطلاقها، فأذعن عبد الله لطلب والده خليفة المسلمين، وطلق عاتكة تطليقة واحدة، وهو غير مقتنع بما أقدم عليه فأصيب الحبيبان بالهم والحزن بغتة، وقبل تمام سعادتهما، وفي ذلك يقول

---

[1] تاريخ الطبري ٤/٤٢٦

[2] انظر الحب في التراث العربي ص ٢٦ – ٣٣

عبد الله:[1]

وإنّ فراقي أهلَ بيتٍ جَمَعْتُهُمْ	على كِبَر منّي لَإحدى العظائم
أراني وأهلي كالعَجُول تَرَوَّحَتْ	الى بَوِّها قبل العِشار الروائم

ثم ازداد وله عبد الله بعاتكة، وعظم شوقه اليها، فأنشد أبياتا يعاهدها فيها على ألا ينساها، ويصفها بالحكمة والتعقل والعفة، ويظهر حيرته مما آل اليه أمرهما، وذلك في قوله:[2]

أعاتِكُ لاأنساكِ ماذرَّ شارقٌ	وما ناحَ قِمْريُّ الحَمام المطَوَّقُ
أعاتِكُ قلبي كلَّ يوم ولَيْلَةٍ	لديكِ بما تُخفي النفوسَ مُعَلَّقُ
لها خُلُقٌ جَزْلٌ ورأيٌ ومَنْطِقٌ	وخَلْقٌ مَصونٌ في حَياء ومصدَقُ
فلم أرَ مثلي طَلَّقَ اليومَ مِثلَها	ولا مثلَها في غير شيء تُطَلَّقُ

والظاهر أن عبد الله أراد من عاتكة أن تصبر حتى يجدا معا مخرجا يفضي بهما الى التلاقي، وقد تم ذلك حين سمع أبو بكر تلك الأبيات فرق لحال ابنه، وسمح له بارتجاع عاتكة، فارتجعها، وأنشد في ذلك أبياتا، اعتذر بها الى عاتكة، وأظهر حبه لها وأعجابه بها، فقال:[3]

أعاتِكُ قد طُلِّقْتِ في غير رِيْبَةٍ	ورُوجِعْتِ للأمر الذي هو كائِنُ
كذلك أمرُ اللهِ غادٍ ورائحٌ	على الناس فيه أُلفةٌ وتَبايُنُ
ومازالَ قلبي للتفرُّق طائراً	وقلبي لما قد قَرَّبَ اللهُ ساكِنُ
لِيَهْنِكِ أنّي لا أرى فيكِ سَخْطَةً	وأنّكِ قد تَمَّتْ عليكِ المحاسِنُ
فإنّكِ مِمَّن زَيَّنَ اللهُ وجهَهُ	وليس لوجهٍ زانَهُ اللهُ شائِنُ

والمعاني الإسلامية في الأبيات ظاهرة، فالفراق وجمع الشمل قدر من الله، وليس في عاتكة مايسخط، فهي تامة الحسن، ومن اللواتي زين الله وجوههن، ومن زين الله وجهه فلا معيب له.

---

[1] نسب قريش ص ٢٧٧. والعجول : الناقة التي ألقت ولدها لغير تمام. والبو : ولد الناقة. والعشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر. والروائم :جمع رؤوم، وهي صفة الناقة التي تعطف على ولدها.

[2] الأغاني ٥٩/١٨. وما ذر شارق : ما أشرقت الشمس.

[3] المصدر السابق ٦٠/١٨

٢ - الغزل الماجن

قام الوليد بن عقبة الأموي، والي الكوفة لعثمان، ليصلي الصبح في المسجد الجامع بالكوفة «فصلى بهم أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال لهم: أزيدكم؟. وقرأ بهم في الصلاة، وهو رافع صوته:

عِلِقَ القلبُ الرَّبابا بعدما شابتْ وشابا»[1]

وهذه الرواية - إن صحت - تعلن وجود من تجافت أخلاقهم عن تعاليم الإسلام، وميالوا الى اللهو والمجون.

وثمة أشعار قليلة غزلية ولاهية كقول المهاجر بن خالد بن الوليد:[2]

رُبَّ ليلٍ ناعِمٍ أَحْيَيْتُهُ في عَفَافٍ عند قَبَاء الحَشَا

ونهارٍ قد لَهَوْنا بالتي لايُرَى شِبْهٌ لها فيمَنْ مَشَى

ومعاشٍ قد شَهِدْنا حَسَنٍ فطشا الدهرُ عليه فطشا

ذاكَ إذ نحنُ وسَلْمَى جيرَةٌ تَصِلُ الحبلَ ونَعْصِي من وَشَى

فالأبيات تشير الى مغامرات غرامية للشاعر، والى استمتاعه باسترجاع ذكرياته لها، ومن ذلك قول المهاجر أيضا:[3]

إمَّا تَرَيْنِي أَشْمَطَ العَشِيَّاتْ

فقدْ لَهَوْتُ بالنِّساءِ الحُرَّاتْ

في بُغُطِ البَطْحاءِ مُضْرَجِيَّاتْ

فهذا اللهو الماجن يشعر بظهور بدايات التراجع عن تعاليم الإسلام، وعن التقيد بتوجيهاته الخاصة بالشعر.

ومن الشعر الذي تظهر فيه اللهفة الماجنة بيتان أنشدهما أبو قطيفة الأموي، وبعث بهما الى أبيه الوليد بن عقبة والي الكوفة، وهما قوله:[4]

مَنْ مُبْلِغٌ عنّي الأميرَ بأنّني أَرِقٌ بِلا داءٍ سِوى الإنْعاظِ

---

[1] المصدر السابق ٥/١٢٦.

[2] جمهرة نسب قريش - مخطوط ص ١٤٧/ب. رقباء الحشا :أنثى دقيقة الخصر ضامرة البطن.وطشا: لعله من الطش، وهو المطر الخفيف. وطشا الثانية: ضَعُف.

[3] المصدر السابق ص ١٤٧/ب.

[4] الأغاني ١/٣١. في الدار : يريد دار عثمان التي تقام فيها الحدود.

إنْ لم تُغِثْني خِفْتُ إثْمَكَ أو أُرَى   في الدار محدوداً بـزُرقِ لِجَبـايِظِ

ومن الواضح أن الشاعر يطلب من والده أن يبعث اليه بجارية، والا ارتكب الفاحشة، وأقيم عليه الحد في دار الخلافة.[1]

* * * *

وأما الغزل التقليدي في مقدمات القصائد فقد تضاءل حتى كاد يختفي، وبذلك يتبين لنا ضعف الغزل القرشي في صدر الإسلام، فقد انشغلت قريش أكثر من غيرها بأمور الدين والفتوح والخلافة عن مثيرات الغزل والصبوة الى النساء.

لكن الغزل القرشي، على قلته في صدر الإسلام، ظهرت فيه المعاني الإسلامية كما لم يخل من بعض مظاهر اللهو والمجون.

-٨-

موضوعات أخرى

١ - الدين

ظهرت في شعر قريش أشعار إسلامية، تنفي الشرك، وتقر بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتعلن الانتماء الى الإسلام، ومن ذلك قول نوفل بن الحارث بن عبد المطلب حين أسلم يخاطب المشركين:[2]

اليكمْ اليكمْ إنّني لَسْتُ منكمُ   تَبَرّأْتُ من دينِ الشيوخِ الأكابرِ

لعمركَ ما ديني بشيءٍ أبيعُهُ   وما أنا إذْ أسْلَمْتُ يوماً بكافِرِ

شهدتُ على أنّ النبيّ محمداً   أتى بالهدى من رَبّهِ والبصائرِ

وإنّ رسولَ اللهِ يدعو الى التقى   وإنّ رسولَ اللهِ ليسَ بشاعِرِ

على ذاكَ أحيا ثم أبعثُ مُوْقِناً   وأثوى عليه ميّتاً في المقابرِ

فالشاعر يتبرأ من دين آبائه وأجداده، ويرفض المساومة على عقيدته، ويعلن إسلامه وإيمانه بنبوة محمد إيمانا لايتزعزع أبدا. ويشبه ذلك قول الحارث بن

---

[1] انظر أشعارا مشابهة في العقد الفريد ٤/٣٥٧.

[2] الطبقات الكبرى ٤/٤٥ - ٤٦

هشام:[1]

إنــي بربّــي والنــبيٌ مؤمــنْ
والبعثِ من بعد الحيـاةِ موقنْ
أقبــحْ بشخص للحيـاةِ موطِـنْ

وهذا خالد بن الوليد يعلن الكفر بالعزى، ويعلي أمر الله بقوله، وهو يهدم العزى:[2]

يـا عزُّ، كُفرانَـكِ لاسُبحانَكِ   إنـي رأيـتُ اللهَ قـد أهانَـكِ

وروى المبرد أن الخوارج ساموا عليا أن يقر بالكفر، ويتوب حتى يسيروا معه الى الشام، فقال علي:[3]

يـا شـاهدَ اللهِ علـيٌّ فاشـهدِ
إنّـي علـى ديـن النـبيٌ أحمـدِ
منْ شـكَّ في اللهِ فـإنّي مهتـدي

فالأشعار السابقة ترفع راية الإسلام، وهي نماذج لبدايات شعر الزهد الذي نما و ازدهر في عصور تالية.

٢ ــ الحكمة

سادت الروح الإسلامية في شعر الحكمة القرشي في صدر الإسلام، ومن ذلك قول الفضل بن العباس:[4]

والحـزمُ تقـوى اللهِ فاتّقِـهِ   تُرشَدْ وليس لِفاجرٍ حزمُ
خيرُ الأمـورِ مَغَبّـةً وشـهادةً   تقـوى الإلـهِ وشرّها الإثمُ

ودعا علي بن أبي طالب الى نبذ صحبة الجاهل خوفا من أذاه، في أبيات رواها الأصمعي:[5]

---

(١) الإصابة ١/٢٩٤

(٢) الاستيعاب ص ٤٢٨

(٣) الكامل في اللغة للمبرد ص ٩١٩

(٤) حماسة البحتري ص ٢٥١. والمغبة :عاقبة الشيء.

(٥) نور القبس ص ١٦٨.

لاتصحبْ أخا الجهل وإيّاكَ وإيّاهُ
فكمْ من جاهلٍ آذى حليماً حين آخاهُ
يُقاسُ المرءُ بالمرءِ إذا ما هو ماشاهُ
وللشيء على الشيءِ مقاييسٌ وأشباهُ

وحث معاوية بن أبي سفيان على الثبات في المعركة، وعدم الخوف من القتل لأن الموت قضاء وقدر من الله، ولا مهرب منه، يقول معاوية:[1]

أكانَ الجبانُ يرى أنّه يُدافعُ عنه الفِرارُ الأجَلْ
فقد تُدركُ الحادثاتُ الجبانَ ويسلمُ منها الشجاعُ البطلْ

وتلك حكمة خالدة تضافر على صوغها الإيمان بالله مع التجارب الإنسانية في الحياة، ومن الحكم التي تعبر عن تجارب الإنسان في التراسل والشورى قول الزبير بن عبد المطلب:[2]

إنْ كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً فأَرْسِلْ حليماً ولا تُوصِهِ
وإنْ بابُ أمْرٍ عليكَ التوى فشاوِرْ لبيباً ولا تَعْصِهِ

٣ - الخمرة

جفا الشعراء المسلمون الخمرة، وتجنبوا ذكرها في أشعارهم، فالله حرمها، والمسلمون امتنعوا عن شربها، وأولو الأمر لايتسامحون مع شاربها، ولايغضون الطرف عن منشد شعر فيها، ومن الأخبار الدالة على ذلك أن عمر بن الخطاب استعمل رجلاً من قريش على عمل، فبلغه أن القرشي قال:[3]

إسقني شربةً ألَذُّ عليها واسقِ باللهِ مثلها ابنَ هشامِ

فطلبه عمر لذلك، فضم الرجل الى بيته الأول بيتاً آخر فلما قدم على عمر، قال: ألست القائل: اسقني..... قال نعم ياأمير المؤمنين:

عَسَلاً بارداً بماء سَحَابٍ إنني ماأحبُّ شُرْبَ المُدَامِ

وبذلك قلب القرشي المعنى، ونجا بنفسه من معاقبة عمر له.

---

(١) الكامل في اللغة المبرد ص ١١٧٣

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٥.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٣٧ - ١٣٨.

وكان النعمان بن عدي العدوي واليا لعمر على ميسان من أرض البصرة، فبلغ عمر أن النعمان قال:[1]

ألاَ هَلْ أتَى الحسناءَ أنَّ حَلِيلَها	بميسانَ يُسْقَى في زُجاجٍ وحَنْتَم
إذا شئتُ غَنَّتْني دهاقينُ قَرْيَةٍ	ورَقّاصةٌ تجذو على كلِّ مَنْسِمِ
فإنْ كنتَ نَدْمَاني فبالأكبر اسْقِني	ولاتَسْقِني بالأصْغَر المتَثَلِّم
لعلَّ أميرَ المؤمنينَ يَسُوؤه	تنادُمُنا في الجوْسَق المتهَدِّم

فقال عمر: نعم، وا لله، إن ذلك ليسوؤني، فمن لقيه، فليخبره أني قد عزلته، وعزله، فلما قدم النعمان على عمر اعتذر إليه، وقال: وا لله ياأمير المؤمنين ماصنعت شيئا مما بلغك أني قلته قط، ولكني كنت امرأ شاعرا، وجدت فضلا من قول، فقلت فيما تقول الشعراء، فقال له عمر: وايم ا لله، لاتعمل لي على عمل مابقيت، وقد قلت ماقلت.

ولكن هذه المراقبة الدقيقة للشعراء وغيرهم بدأت تضعف مع اضطراب أحوال الدولة، فالوليد بن عقبة الذي حده عثمان لشربه الخمر لم يتورع عن القول بعد مقتل عثمان:[2]

شربتُ على الجوزاء كأساً رَوِيّةً	وأخرى على الشِّعْرَى إذا ما استقَلَّتِ
مُشَعْشَعةً كانت قريشٌ تُكنُّها	فلما استَحَلُّوا قَتْلَ عُثمانَ حَلَّتِ

فالوليد لم يكتف بالجهر بشرب الخمرة، ولكنه استحل لنفسه شربها لأن الناس قد استحلوا دم عثمان، فقتلوه. ومن شعر الخمرة أيضا قول عبد الرحمن بن الحكم الأموي:[3]

وكأس ترى بين الإناء وبينها	قَذَى العين قد نازعتُ أمَّ أَبَان
ترى شارِبَيْها حين يَعْتَورانها	يَمِيلان أحياناً ويَعْتَدِلان
فماظَنُّ ذا الواشي بأروعَ ماجدٍ	وبدّاءَ خَوْدٍ حينَ يَلْتقيان

فالأبيات تصف صفاء الخمرة وأثرها في نفس الشارب وحركة جسمه، وفي

---

[1] سيرة ابن هشام ٢٣٧/٣ - ٢٣٨، والحنتم: الجرة الخضراء. والدهاقين: رؤوساء الأقاليم. وتجذو: تبرك على ركبتيها. وندماني: نديمي. والجوسق: القصر.

[2] الوحشيات ص ١٩٢.

[3] الكامل في اللغة للمبرد ص ١٠٩. ونازعت: عاطيت وجاذبت. والخود: الفتاة الشابة الناعمة الحسنة الخلق.

البيت الأخير فجور واضح، فالشاعر يذكر امرأة متزوجة؛ فأم أبان كانت زوجة مروان بن الحكم، وعنده توفيت، ولها يقول عبد الرحمن أيضا:[1]

فواكبدا من غير جوع ولاظَما ويا كَبدا من حُبّ أمّ أَبَان

فعبد الرحمن يفصح في شعره عن استهتاره، فهو يشرب الخمرة، ويفسد النساء المحصنات.

* * * * *

إن أكثر شعر قريش في صدر الإسلام أنشد بدوافع سياسية وإسلامية، واقترن بصراعات حادة، ومعارك طاحنة، فالشعراء انشغلوا بمناصرة الدين الجديد ورفع راياته في الآفاق، وخاض كثير منهم غمار الصراع على الخلافة.

وقد ظلت موضوعات ذلك الشعر داخلية، ولم تتعد نطاق القبيلة إلا نادرا، وهذا يشير الى استمرار اعتداد الشعراء القرشيين بأنفسهم، وشعورهم بالسيادة وأنفتهم من التوجه بمديحهم أو رثائهم الى غير أبناء قبيلتهم، والقرشيون الذين تجاوزوا بشعرهم نطاق قبيلتهم كانوا قادة ينشدون شعرا يثنون فيه على أتباعهم أو يرثون بعض من قتل من شيعتهم وأصحابهم.

وبقيت موضوعات شعر قريش في صدر الإسلام تفتقر الى شعر الوقوف على الأطلال ووصف الناقة والصحراء للأسباب التي أشير إليها في دراسة شعر قريش الجاهلي.[2] ولكن شعر قريش في صدر الإسلام ليس نسخة ثانية من شعرها الجاهلي، فقد غني في صدر الإسلام بشعر الفتوح ومناصرة الإسلام والاعتذار، وظهر أثر الإسلام جليا في الموضوعات القديمة كالحماسة والفخر والرثاء، وفي الفصل التالي توضيح لذلك.

---

(1) نسب قريش ص ١١٢.

(2) انظر هذا البحث ص ٢٠٥-٢٠٧.

الفصل الثاني

خصائص
شعر قريش في صدر الإسلام

-١-
القيم والمعاني

١ — القيم

اهتم الإسلام بتوجيه الشعر نحو قيمه وتعاليمه، ويظهر ذلك في القرآن الكريم والحديث الشريف، وفي أقوال وأفعال صدرت عن بعض كبار الصحابة، ولاسيما عمر بن الخطاب.

لقد أدان القرآن الكريم الشعر الماجن والآثم والكاذب، وحث الشعراء على الصدق والصلاح والانتصار من الأعداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿*والشعراء يتبعهم الغاوون* ألم تر أنهم في كل واد يهيمون* وأنهم يقولون مالا يفعلون* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، وانتصروا من بعد ماظلموا...*﴾.[1] وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم توضيح لتلك الآيات وتأكيد عليها، ومن ذلك قول الرسول: ﴿*من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر*﴾،[2] وفي قوله – وقد سأله كعب بن مالك: يارسول الله ماذا ترى في الشعر: ﴿*المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه*﴾.[3]

ولعمر بن الخطاب مواقف وأقوال تظهر اهتمامه بتخليص الشعر من شوائب

---

(١) الشعراء – الآيات ٢٢٤ – ٢٢٧.

(٢) العمدة ٢/١٧٠

(٣) الاستيعاب ص ١٣٢٥. وانظر للاستزادة (الاسلام والشعر ص ٤٦ – ٦٦).

الجاهلية، فقد هم بقطع لسان الحطيئة لهجائه المقذع للزبرقان بن بدر،[1] وهدد بجلد من يشبب بامرأة من الشعراء،[2] كما أظهر سروره بالشعر الموافق لتعاليم الإسلام، فقد سمع سحيم عبد بني الحسحاس ينشد:[3]

عميرةَ ودِّعْ إنْ تجهَّزتَ غادِيا — كَفَى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

فقال له: (لو قلت شعرك كله مثل هذا لأعطيتك عليه) وفي رواية ثانية: (لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك).

وثمة رواية تشير الى أن ولادة توجيه الشعر وجهة إسلامية كانت في مكة، وقبل هجرة الرسول الى المدينة، حيث مر عثمان بن مظعون الجمحي بمجلس من قريش، وفيهم لبيد بن ربيعة العامري، ينشدهم (فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

أَلاَ كلّ شيءٍ ماخلا اللهَ باطِلُ

فقال عثمان: صدقت. قال لبيد:

وكلّ نعيمٍ لامحالةَ زائِلُ

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لايزول).[4] وهذه المقولة تعد أول نظرة نقدية لقيم الشعر، تستمد حكمها من العقيدة الإسلامية.

أحدث الإسلام تأثيرا عظيما في القيم العربية، وكان ذلك التأثير أكثر وضوحا عند قريش لظهور الإسلام بين صفوفها ولصلتها الوثيقة بأحداث صدر الإسلام ولا عجب والأمر كذلك أن نجد أثر الإسلام ممتدا الى شعر بعض القرشيين قبل إسلامهم، فالقرشيون المشركون كانوا يسترقون السمع الى القرآن، ويعجبون به، ويجادلون في أمره، ويتأثرون به كما في قول هند بنت عتبة الأموية ترثي والدها الذي قتل ببدر، وتهدد المسلمين:[5]

يــاعينُ بَكّــي عُتبَــهْ — شــيخاً شــديدَ الرقَبَــهْ
يُطعــمُ يــوم المسْــغَبَهْ — يدفَــعُ يــوم المغْلَبَــهْ

---

[1] الخزانة ٣/٢٩٥.

[2] الاستيعاب ص ٣٧٨.

[3] الأغاني ٢٢/٣٠٤ - ٣٠٦.وانظر ديوان سحيم ص ١٦.

[4] سيرة ابن هشام ٢/١٤. ونسب موقف عثمان الى أبي بكر الصديق (الخزانة ٢/٢٥٦).

[5] سيرة ابن هشام ٢/٢٨٣. والحربة : الحزينة. والمنبعثة: سريعة السيلان. والسلهبة: الفرس الطويلة.

إنّـــــي عليـــــه حَرِبَـــــةْ ملهوفـــــــةٌ مُسْـــــــتَلَبَةْ

لَنَهْبِطَـــــنَّ يَـــــثْرِ بَـــــةْ بغـــــــارةٍ مُنْتَعِبَـــــــةْ

فيهـــا الخيـــول مُقْرَبَـــةْ كـــلُّ جـــــوادٍ ســــلهَبَةْ

فالظاهر أن عتبة أنشدت هذه الأبيات وهي تنظر الى سورة البلـد المكيـة، الى قوله تعالى: «ما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة* يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة».[1]

برزت القيمة الدينية في شعر قريش في صدر الاسلام، بل تصدرت القيم الـتي سادت في ذلك الشعر، والشواهد على ذلك كثيرة، ومنهـا قـول أبـي سـفيان ابـن الحارث بن عبد المطلب في يوم حنين:[2]

لقـد علمتْ أفنـاء كَعْـبٍ وعـامر غـداةَ حُنَـين حيـنَ عَـمّ التضَعْضُـع

بـأنّي أخـو الهيجـاء أركـبُ حدَّهـا أمـــامَ رســـول الله لا أتَتَعْتَـــعُ

رجـــاءَ ثـــوابِ الله والله واســـعٌ إليه تعالـــى كـــلُّ أمـــر ســـيرجعُ

فالشاعر أبرز قيمة القوة، وهو يفخر بشجاعته، ولكـن تلـك القـوة تتواضـع أمام قيادة الرسول، والرغبة بثواب الله، ومثل ذلك قول خالد ابن الوليد:[3]

اليـوم يـومٌ فـاز فيـه مـن صَـدَقْ لا أرهـبُ الموتَ إذا الموتُ طَـرَقْ

لَـأَروِيَنَّ الرمـحَ مـن ذوي الحَـدَقْ لَـأَهتِكَنَّ البَيـضَ هتكـاً والـدَّرَقْ

عسـى أرى غـداً مقـام مـن صَـدَقْ في جنّةِ الخُلْـدِ وألقَـى من سَـبَقْ

فقيمة البطولة غدت وسيلة لتحقيـق القيمـة الدينيـة الـتي ينشـدها خـالد بـن الوليد.

وهذبت القيمة الدينية قيمة العصبية القبلية كما في قول عبد الرحمن بـن أبـي بكر الصديق:[4]

أنـــا ابـــن عبـــد الله ذي المعـــالي والشـــرفِ الفـــاضل ذي الكمـــال

أبـــي المجيـــدُ الصـــادقُ الفِعـــال الديـــنُ هـــذا الديـــنُ بالفِعـــال

---

[1] البلد - الآيات ١٢ - ١٦.

[2] الطبقات الكبرى ٥٢/٤. وأتتعتع : أتردد.

[3] فتوح الشام ٢٦/١.

[4] المصدر السابق ٧٧/١.

فالشاعر يفخر بوالده، ولكنه يربط ذلك بشمائل أبـي بكـر، وهـو المعـروف بسبقه إلى الإسلام وبنصرته له. وجمع علي بن أبي طـالب بـين قيـم الديـن والقـوة والعصبية القبلية في قوله:[1]

أنـا علـيٌّ وابــنُ عبــد المطّلــبْ ... نحـنُ لَعَمْــرُ اللهِ أولَــى بــالكُتُبْ

منّـا النبيُّ المصطفــى غـيرَ كَـذِبْ ... أهــلُ اللــواء والمقــام والحُجُــبْ

نحـنُ نَصَرْنـاهُ علـى جُـلِّ العــربْ ... يأيُّهــا العبــدُ الغريــر المنتــدِبْ

وثمة أشعار تفتقر الى القيمة الدينية كقول الزبير بن عبد المطلب:[2]

متـى تَلْقَــني يَعْـدو بــبزّي مُقَلّـصٌ ... كُمَيْــتٌ بهيــمٌ أو أغــرُّ مُحَجَّــلُ

تــلاقِ امــرأً إنْ تَلْقَــهُ فبســيفهِ ... تُعَلِّمُــكَ الأيــامُ مـا كنــتَ تَجْهَــلُ

فالشاعر قصر مغانيه على قيمة القوة والبطولـة، وقـد يضـم الشـاعر العصبيـة القبلية الى القوة كقول علي بن أبي طالب:[3]

اِطْعَنْهُــمُ طعــنَ أبيــكَ تُحْمَــدِ ... لاخـيرَ في الحـربِ اذا لم توقَــدِ

بالمشرفِيِّ والقنا المُسَرَّدِ

وقد يقصر الشاعر قيمه على العصبيـة القبليـة الـتي ظلـت رواسـبها عالقـة في القلوب، ومن ذلك قول الوليد بن عقبة الأموي يحرض معاوية، ويغريه بعلي:[4]

واللهِ مـا هنـدٌ بـأمِّكَ إنْ مضَـى النَّـ ... ـهـارُ ولم يثـأر بعثمــانَ ثــائِرُ

أيقتــلُ عبــدُ القوم سَـــيِّد أَهْلِـهِ ... ولم تقتلـوه ليــتَ أمّـكَ عاقِــرُ

فالعصبية القبلية تقود الشاعر وهو يطلب من أقربائـه أن يثـأروا لابـن عمهـم عثمان على عادة الجاهليين، كما دفعته تلـك العصبيـة الى نعـت أعدائـه بالعبوديـة، وهم أحرار!! ومن العصبية القبلية التفاخر بالأنسـاب في قـول الفضـل بـن العبـاس اللهبي:[5]

---

(1) وقعة صفين ص ٢٧٢ - ٢٧٣. والغرير: المخدوع. والمنتدب: الداعي الى المبارزة.

(2) العقد الفريد ١/١٨١ - ١٨٢. والبز: السلاح. والمقلـص: الفرس المشرف الطويـل. والبهيم مـن الخيـل: مالاعيب فيه.

(3) مروج الذهب ٢/٣٦٧.

(4) الأغاني ٥/١٢٢.

(5) جمهرة اللغة ٢/٢٢٤.

هاشمٌ جَدُّنا فإنْ كنتِ غَضْبَى فاملئي وجهكِ الجميلَ خموشا

وأما القيمة المادية فقد تضاءل شأنها - وكان لها الصدارة في الجاهلية - في صدر الاسلام لعظمة الثورة التي أحدثها في تفكير الناس وأسلوب معاشهم، وقلما نجد شاعرا يظهر الاهتمام باكتساب المال كالوليد بن عقبة في قوله:[1]

يا باعَدَ اللهُ ما بَيْني وبينكمُ بني أُميَّةَ من قُرْبَى ومن نَسَبِ

مَنَ يَكْسبِ المالَ يَحفِرْ حول زُبْيَتِهِ وإنْ يكنْ عائلاً مولاهُمُ يَخِبِ

فالوليد يعلن عن سخطه على بني أمية، ويسأل الله أن يقطع صلته بهم لأن خيرهم انقطع عنه. ورويت لمعاوية بن أبي سفيان أبيات يذكر فيها قدوم عقيل بن أبي طالب عليه رغبة في العطاء.[2]

٢ - المعاني

أثرى الإسلام شعر قريش بالمعاني الجديدة; فهذا علي بن أبي طالب يفخر فيسمو الى طلب الثواب والجنة، في قوله:[3]

أُريدُ ثوابَ اللهِ لاشيءَ غيرُهُ ورضْوانَهُ في جنّةٍ ونعيم

ويمدح فيدعو الله أن يجزي الممدوح خيرا:[4]

جزى اللهُ عنّي والجزاءُ بكَفِّهِ ربيعةَ خيراً ماأعفَّ وأكْرَمَا

ويرثي بعض أصحابه فيدعو لهم بمثل ذلك، في قوله:[5]

جَزى اللهُ خيراً عُصْبَةً أسلمِيّةً صباحَ الوجوهِ صُرِّعوا حَوْلَ هاشِمِ

وقد كثر الدعاء بالخير في شعر الرثاء بخاصة.[6]

ومن المعاني الإسلامية التي أثرت شعر قريش التعزي بالقضاء والقدر كما في قول صفية بنت عبد المطلب ترثي الرسول.[7]

---

(١) نسب قريش ص ١٣٩. والزبية: الرابية التي لايعلوها الماء.

(٢) انظر الأخبار الموفقيات ص ٣٣٦.

(٣) معجم الشعراء ص ١٣٠.

(٤) العقد الفريد ٥/٢٨٣.

(٥) مروج الذهب ٢/٢٨٣. وهاشم : ابن عتبة بن أبي وقاص،استشهد في صفين.

(٦) انظر الطبقات الكبرى ٢/٣٢٦ و ٣٢٩ - ٣٣٠، وشرح ديوان الحماسة ص ١١٠٧.

(٧) الطبقات الكبرى ٢/٣٣٠.

كِـدْتُ أقضـي الحيـاة لّما أتـاهُ قَـدَرٌ خُـطٌ في كتـابٍ مَجيـدِ

وفي قول المهاجر بن خالد بن الوليد يرثي بعض بني مخزوم:[1]

طَفْنـاً وطاعونـاً منايـاهُـمُ ذلـكَ ماخـطٌ لنـا الكـاتِبُ

لقد اقتبس الشعراء المعاني الإسلامية من القرآن الكريم والحديث الشريف فالبيتان السابقان فيهما اقتباس من قوله تعالى: «كان ذلك في الكتاب مسطورا»،[2] ومن قوله: «وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّر، ولا يُنْقَصُ من عمره إلا في كتاب».[3]

ومن المعاني المأخوذة من القرآن الشطر الثاني من قول نوفل بن الحارث:[4]

وإنّ رسـولَ اللهِ يدعـو إلى التقـى وإنّ رسـولَ اللهِ ليـس بشـاعِرِ

فهو مأخوذ من قوله تعالى: «وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون».[5]

واستمد سعد بن أبي وقاص معاني قوله:[6]

فمـا الدنيـا بباقيـةٍ لِحَـيٍّ ولا حـيٌّ لـه فيهـا بقـاءُ

وكـلُّ سـرورها فيها غـرورٌ وكـلُّ متاعهـا فيهـا هبـاءُ

من قوله تعالى: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور».[7] وأما وعيد زينب بنت العوام لقاتلي أخيها الزبير في قولها:[8]

قَتَلْتُـمْ حـواريَّ النـبيِّ وصِهْـرَهُ وصاحِبَه فاستبشـروا بجحيـم

فمقتبس من قوله تعالى: «ويقتلون الذين يأمرون بالقِسط من الناس فبشـّرهم بعذاب أليم».[9]

---

(1) تاريخ الطبري ٤/٦٥.

(2) الإسراء – الآية ٥٨.

(3) فاطر – الآية ١١.

(4) الطبقات الكبرى ٤/٤٦.

(5) الحاقة – الآية ٤١.

(6) وقعة صفين ص ٧٦.

(7) آل عمران – الآية ١٨٥.

(8) جمهرة نسب قريش ١/٣٧٩.

(9) آل عمران - الآية ٢١.

ونمثل للأخذ من الحديث النبوي بقول معاوية بن أبي سفيان:[1]

وقدْ قالَ النبيُّ وحَدَّ حدّاً يحلُّ به من الناسِ الدماءُ
ثلاثٌ قاتِلٌ نَفْساً وزانٍ ومُرْتَدٌّ مَضَى فيه القضاءُ

فالبيتان نظم لمعاني قول الرسول: «لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك الجماعة».[2] ونجد في قول علي بن أبي طالب داعيا الى مصاحبة الأخيار وتجنب الأشرار:[3]

لاتصحبْ أخا الجهل وإيّاكَ وإيّاه
فكمْ من جاهلٍ آذى حليما حينَ آخاه

نجد تاثرا بقول رسول الله: «إنّما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إمّا أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة. ونافخ الكير: إمّا أن يحرق ثيابك و إما أن تجد ريحا خبيثة».[4]

وثمة شواهد كثيرة تدل على تأثر شعراء قريش بمعاني القرآن والحديث، وهذا التأثر يدل على عمق إيمان الشعراء، وعلى حفظهم للقرآن والحديث حفظا واعيا مكنهم من إثراء أشعارهم بمعان جديدة أغنت الشعر العربي وساهمت في تطوره.

ويستوقفنا هنا أثر البيئة التجارية في المعاني؛ فقد أطل ذلك الأثر في ركاب القيمة الدينية والمعاني الإسلامية، ومن ذلك قول نوفل بن الحارث بن عبد المطلب:[5]

لَعَمْرُكَ ما ديني بشيءٍ أبيعُهُ وما أنا إذْ أسْلَمْتُ يوماً بكافرِ

فالشاعر متمسك بدينه، وإسلامه ليس سلعة قابلة للمساومة. ومن هذا القبيل قول عبد الله بن الحارث السهمي:[6]

---

(1) وقعة صفين ص ٧٤.

(2) صحيح البخاري ٩/٦.

(3) نور القبس ص ١٦٨.

(4) صحيح مسلم ص ٢٠٢٦.

(5) الطبقات الكبرى ٤/٤٥.

(6) سيرة ابن هشام ١/٢٨٧. لايطبى بالجعائل : لايستمال بالرشوة.

فإنْ تَلكُ كـانتْ في عَـدِيٍّ أمانـةٌ   عديٌّ بن سَعْدٍ عن تُقـىً أو تَواصُـل
فقـد كنـتُ أرجـو أن ذلـكَ فيكـمُ   بحمـدِ الـذي لايُطَّبى بالجعائـــل

فالشاعر يحمد من لايستمال بالرشاوى، وتلك الفكرة تتصل بعالم التجارة الحافل بالرشاوى.

* * * * *

لقد شهد شعر قريش في صدر الإسلام تطورا في قيمه ومعانيه، فقد تبوأت القيمة الدينية قمة هرم القيم الاجتماعية، كما عظم اهتمام الشعراء بالقوة والبطولة، وذلك لارتباط أغلب ذلك الشعر بالصراع الديني والسياسي، وحد الإسلام من العصبية القبلية، والتوجهات المادية، ولكن العصبية القبلية كانت تطل أحيانا معلنة بقاء رواسبها في النفوس، وتعلق بعض القلوب بأهدابها.

وازدادت موضوعات شعر قريش في صدر الإسلام ثراء بالمعاني الإسلامية، وقد استمدها الشعراء من القرآن الكريم والحديث الشريف، فساهموا بذلك في إغناء الشعر العربي وتطوره.

-٢-

اللغـــــة

١ - الجانب المتحضر

امتدت المظاهر اللغوية المتحضرة لشعر قريش الجاهلي إلى صدر الإسلام، وهذا وضع طبيعي، فالعصران متصلان، وأغلب شعراء قريش في صدر الإسلام من المخضرمين. وهكذا اتسمت لغة قريش في صدر الإسلام بالوضوح، والميل الى السهولة والليونة غالبا، ونمثل لذلك بقول سعد ين أبي وقاص:[1]

هَرَبْـتُ بديـني والحـوادِثُ جَمّـةٌ   وفي الأرض أمـنٌ واسِـعٌ ومُعَـوَّلُ
فقلـتُ معـاذ اللهِ مـن شـرٍّ فتنـةٍ   لهـا آخـرٌ لايُسـتقالُ وأوَّلُ
ولـو كنـتُ يومـاً لامحالـةَ وافـداً   تبعتُ عليّـاً، والهوى حيثُ يُجْعَلُ

---

[1] وقعة صفين ٥٣٩.

ولكنّـني زاولـتُ نفسـاً شـحيحةً ... علـى دينهـا تـأبى علـيَّ وتَبْخَـلُ
فأمّنا ابـنُ هنـدٍ فالـتراب بوجْهـهِ ... وإنّ هــوايَ عـن هـواهُ لَأَمْيَـلُ

وبرز أثر تحضـر قريـش في البنيـة الصرفيـة للألفـاظ، فقـد جنـح الشـعراء الى تخفيف الهمزة غالبا، وإلى فكّ الإدغام، ومن الشواهد على تخفيف الهمزة قول نعـم بنت حريث المخزومية:[1]

غيـثٌ سـريعٌ اذا ماأزمـةٌ أَزَمَـتْ ... تَـبْري العظـام وتـبري قمـة الـراس

ومن الشواهد على عدم ادغام المتماثلين قول المهاجر بن خالد بن الوليد:[2]

أفنـى بـني رَيْطَـةَ فرسـانُهُمْ ... عشـرون لم يقصـص لهـمْ شـاربُ

والشواهد على تخفيف الهمز وفك الإدغام كثيرة، وقد مر بنا في شعر قريـش الجاهلي ما يماثلها ويغني عن ذكرها، وبيان أثرها في ليونة لغة قريش.

٢ – الجانب المعجمي

اهتم أصحاب المعاجم اللغوية بشعر قريش في صـدر الإسـلام مثلمـا احتفلـوا بشعرها الجاهلي، ونمثل لذلك بجمهرة ابن دريد، ومما جاء فيه: «حلم الأديـم يحلـم حلما اذا نغل ووقع فيه الحلم، واحدته: حلمة، وهي دويبـة تقـع في الأديـم فتأكلـه قبل الدباغ، فإذا وقع فيه لم ينتفع به، قال الشاعر الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

فإنّـكَ والكتـابَ الى عَلِـيٍّ ... كدابغـةٍ وقـد حَلِـمَ الأديـم»[3]

وجاء في الجمهرة أيضـا: «والخضـرة في شـيات الخيـل: غـبرة صافيـة تخـالط دهمة، ومنه قول الشاعر الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب:

وأنـا الأخضـرُ مـن يَعْرِفُنـي ... أخضرُ الجلْـدَةِ في بيت العَرَبْ»[4]

وقال ابن دريـد في جمهرتـه: «وتسـاجل الرجـلان: اذا تفـاخرا، وأصلـه مـن تساجلهما في الاستسقاء، وهي المساجلة، قال الفضل بن عباس....:

مـن يُسـاجلْني يُسـاجلْ مـاجداً ... يمـلأُ الدَّلْـوَ الى عَقْـدِ الكَـرَبْ[5]

---

[1] جمهرة نسب قريش – مخطوط ص ١٥٣/ب
[2] تاريخ الطبري ٦٥/٤
[3] جمهرة اللغة ١٨٨/٢
[4] المصدر السابق ٢٠٩/٢
[5] المصدر السابق ٩٤/٢

ومثل ذلك كثير في المعاجم، ودليل على أهمية شعر قريش اللغوية.

واحتفل مؤلفو كتب اللغة بشعر قريش أيضا، ومنهم المبرد في كتابه الكامل[1]، والقالي في أماليه، ومنها قوله: «جثا يجثو، وجذا يجذو: إذا قام على أطراف أصابعه، وأنشد النعمان بن [عدي] بن نضلة:

إذا شئتُ غنّتني دهاقينُ قريةٍ ... وصنّاجةٌ تجذو على كلِّ مَنْسِمِ[2]

وقد تسربت الى لغة قريش كلمات أعجمية،[3] ومنها (دهاقين) في البيت السابق فهي فارسية معربة، ومفردها (دهقان)، أي رئيس إقليم، ومن ذلك أيضا لفظة (الجوسق) في قول النعمان بن عدي:[4]

لَعَلّ أميرَ المؤمنينَ يَسوؤهُ ... تنادُمُنا في الجوسقِ المتَهَدِّم

ولفظة (السخت) في قول خالد بن الوليد:[5]

أنا ابن أشياخٍ وسَيْفِي السَّخْتْ

فالجوسق والسخت لفظان فارسيان معربان، فالجوسق: القصر. والسخت: الصلب الدقيق. وقيل أن لفظة (قومس) تعني الأمير بلغة الروم، وقد وردت في قول الفضل بن عباس:[6]

عبد شمس أبي فإنْ كنت غضْبى ... فاملئي وجهكِ الجميل خُموشا

وأبي هاشِمٌ هُمَا وَلَدَاني ... قَوْمَسٌ مَنْصِبي ولم يكُ خَيْشَا

إن انفتاح العرب - وقريش منها - على الأمم المجاورة أدخل ألفاظا أعجمية إلى العربية وقد سلك الشعراء بعض تلك الألفاظ في نظمهم بعد إخضاعها لقوانين لغتهم.

وأثّرَ الإسلام في لغة الشعر العربي، فاكتسب كثير من الألفاظ معاني جديدة

---

[1] انظر الكامل في اللغة ص ٨١٧.

[2] الأمالي ٢/١٢٠

[3] الألفاظ الأعجمية - ولاسيما الفارسية. وجدت في الشعر العربي القديم منذ الجاهلية بسبب العلاقات والاتصالات المتنوعة بين الأمتين.

[4] الاشتقاق ص ١٣٩.

[5] تاريخ الطبري ٣/٢٩٣.

[6] تاج العروس ١٧/١٩٣.والخيش : الرجل الدنيء.

وشاعت فيه الألفاظ الدينية، وقد كثرت في شعر قريش الألفاظ الخاصة بذات الله تعالى وبالرسول وصفاته، ومن الألفاظ الخاصة بذات الله: رب محمدٍ وأحمدَ والبريةِ والأنامِ والسماءِ والعبادِ والناسِ، وذو العزةِ، والوهابُ والرحمنُ، والخالقُ، وبارىء النسم، ومنزلُ الفرقانِ والقرآنِ;ومن الألفاظ الخاصة بالرسول وصفاته: المصطفى بالنور والحقِ والهدى والرشدِ، والمرتضى للبر والعدلِ والتقى والدينِ والإسلامِ، ونبي العدلِ والخيرِ، وسيدِ البشرِ والناسِ، وخاتم الرسلِ، وصفوة الله، وخير شخص، ونور البلادِ، والمباركِ والموفقِ، وذو التقى، وذو الرشادِ، والطاهرُ، والميمونُ، والنبي المطهرُ، ورحمةُ البرية وغير ذلك. والأشعار التي تزخر بمثل هذه الألفاظ كثيرة، ونمثل لها بقول عاتكةِ بنت عبد المطلب ترثي الرسول:[1]

أعينيَّ جودًا بالدموع السَّواجم ... على المصطفى بالنور من آل هاشم
على المصطفى بالحقّ والنور والهدى ... وبالرشد بعد المُنْدَبَاتِ العظائم
وسحًّا عليه وابكيا ما بَكِيتُمَا ... على المرتضى للمُحْكَماتِ العزائم
على المرتضى للبرّ والعدل والتقى ... وللدين والإسلام بعدَ المظالم
على الطاهرِ الميمون ذي الحلم والندى ... وذي الفضل والداعي لخير التراحم

وقد غنيت ألفاظ كثيرة بمعان جديدة مكتسبة من الإسلام كالنفخ بالصور، والوحي والآيات والتنزيل والقرآن والفرقان والصلاة وخمس العباد، وأمير المؤمنين وغيرها، وقد مرت بنا شواهد كثيرة على ذلك في الفصل السابق.

* * * * *

لقد ازدادت لغة قريش في صدر الإسلام تحضرا، فغلب عليها الوضوح والليونة بل لامست اللغةِ المحكية أحيانا كثيرة، وتسربت إليها ألفاظ أعجمية كما اهتم بها مؤلفو المعاجم وكتب اللغة، وغنيت بالألفاظ الإسلامية، وازدادت بفضل الإسلام ثراء وتهذيبا وتحضرا.

---

[1] الطبقات الكبرى ٢/٣٢٧.

-٣-

التصوير

١ - التصوير الجزئي

ظل التصوير في شعر صدر الاسلام أسير الإطار الذي رسم له في الجاهلية غالبا، فالشعراء نسجوا على منوال من سبقهم في أغلب الأحيان، بل أغار بعض الشعراء القرشيين على صور غيرهم فأخذوها، فتشبيه الرسول بنور يستضاء به في قول هند بنت أثاثة ترثي الرسول:[١]

قد كنتَ بدْراً ونوراً يُستَضَاءُ بِهِ ... عليكَ تُنزَلُ من ذي العزّةِ الكُتُبُ

مأخوذ من قول كعب بن زهير المزني يمدح الرسول:[٢]

إنّ الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به ... وصارمٌ من سيوفِ اللهِ مَسْلُولُ

والتشبيه في قول معاوية بن أبي سفيان:[٣]

ونطحنَهُمْ طحْنَ الرّحَى بثفالها ... وذاكَ بما أسْدَوا إليكَ قليلُ

نظير قول زهير بن أبي سلمى يصف الحرب:[٤]

فَتَعْرُكْكُمُ عَرْكَ الرحَى بثفالها ... وتَلْقَحْ كِشَافاً ثمّ تُنْتَجْ فَتُتْئِم

ومثل ذلك الأخذ يعد من السرقات الفنية التي تعيب صاحبها، لظهورها، وعجزها عن مجاراة الأصل أو تجاوزه.

لكن شعراء قريش ابتكروا صورا جزئية تعكس تفاعل الشعراء مع الأحداث السياسية، ومن ذلك هذا التشبيه الضمني في قول الوليد بن عقبة الأموي:[٥]

لَعَمْرُكَ لا أنْسَى ابنَ أروى وقَتْلَهُ ... وهَلْ يَنْسَيَنَّ الماءَ ماعاش شاربُه

فالوليد مهتم بمقتل عثمان، ولن ينسى ذلك أبدا، مشابها في ذلك حاجة

---

[١] المصدر السابق ٢/٣٣٢.

[٢] جمهرة أشعار العرب ص ١٥١.

[٣] وقعة صفين ص ٨٠. والثفال: جلد يجعل تحت الرحى ليقي الطحين من التراب. وأراد: طحن الرحى ومعها ثفالها.

[٤] شرح القصائد العشر ص ١٧٤. ولقحت الناقة كشافا: حمل عليها كل عام، وهذا أردأ النتاج.

[٥] الأغاني ٥/١٢٠. وابن أروى: عثمان بن عفان.

الانسان المستمرة الى الماء ما دام حيا.

لقد اتهم الحزب الأموي بني هاشم بالتواطؤ مع قتلة عثمان، ولذا رفض بنو أمية سعي بني هاشم الى مصالحتهم، وعبر الوليد بن عقبة الأموي عن تلك الحال بهذا التشبيه المناسب مخاطبا فيه بني هاشم:[1]

وإنّا وإيّاكُمْ وما كانَ مِنْكُمُ ... كَصَدْعِ الصّفَا لا يرأبُ الصدعَ شاعِبُهْ

واهتدى شعراء قريش الى صور منتزعة من بيئة قريش التجارية والحرفية ومن حياتها السياسية كما في قول الوليد بن عقبة مستنكرا المراسلات الجارية بين علي ومعاوية:[2]

فإنّكَ إذ تهدي الرسائلَ سادرا ... وتدعو عليّاً في الصحائف خاليا

كدابغةٍ ترجُو صلاحَ أديمِهَا ... وقد عادَ بعد الدّبغ والرّمّ باليا

فالصورة تعكس الواقع السياسي، والمعاشي في مكة التي اشتهرت منذ الجاهلية بدباغة الجلود والتجارة فيها. وتتكرر هذه الصورة في قول الوليد بن عقبة يخاطب معاوية أيضا:[3]

وإنّكَ والكتابَ إلى عليٍّ ... كدابغةٍ وقد حَلِمَ الأديمُ

ومن الصور المأخوذة من البيئة التجارية قول عبد الله بن الزبعرى يصف نفسه قبل إسلامه:[4]

حَيْرانُ يَعْمَهُ في ضلالَتِهِ ... مُسْتَورداً لشرائع الشّركِ

فقد استعار الاستيراد لشرائع الشرك، ولا يخفى تأثير التجارة في ظهور تلك الصورة كما لايخفى أثر العامل الديني فيها.

لقد أثرى الإسلام خيال شعراء قريش، ومن ذلك تشبيه جحود قريش لربها بجحود عاد ومدين وثمود في قول المبرق:[5]

فتلكَ قريشٌ تجحد الله ربَّها ... كما جَحَدَتْ عادٌ ومَدْيَنُ والحِجْرُ

---

(1) المصدر السابق ٥/١٢٠.

(2) حماسة البحتري ص ٣٥. والسادر: الحائر وغير المبالي بما يصنع.

(3) تاريخ الطبري ٤/٥٦٤.

(4) الاستيعاب ص ٩٠٣.

(5) نسب قريش ص ٤٠١. والحجر: منازل ثمود.

وحين أسلم أبو سفيان بن الحارث الهاشمي اعتذر بأبيات، ومنها:(١)

لَعمـرُكَ إنّـي يـومَ أحمـلُ رايـةً لتغلبَ خيلُ اللات خيلَ مُحَمّـدِ

لكـالمدْلجِ الحـيْران أظلـمَ ليلُـهُ فهـذا أوانُ حينَ أهـدِي وأهتـدِي

ومن الصور المشابهة قول عبد الله بن الزبعرى مظهرا الندم على ما سلف منه قبل اسلامه:(٢)

إذْ أُجـاري الشـيطانَ في سـنن الغَيِّ أنـا في ذاك خاسـرٌ مثبـورُ

فمجازاة الشيطان كناية مبتكرة عن الضلال، وهي مستوحاة من العقيدة الإسلامية.

واقتبس شعراء قريش صورا وردت في القرآن الكريم، ومن ذلك قول فاطمة بنت الرسول ترثي والدها:(٣)

اغبَـرّ آفـاقُ السـماء وكُـوِّرَتْ شَـمْسُ النهار وأظلـمَ العَصْـران

فالبيت يرمز الى هـول المصيبـة وعظمـة الخطـب، وقولهـا: «وكـورت شمس النهار» مقتبس من قوله تعالى: «وإذا الشـمس كـورت».(٤) ونجـد في قـول زينـب بنت العوام:(٥)

وعَطّشْـتُمُ عثمـانَ في جـوف دارهِ شربْتُمْ بشُرْب الهِيـم شـوبَ حَمِيـم

نجد تشبيها مقتبسا من قوله تعالى: «فشاربون عليـه مـن الحميـم * فشـاربون شرب الهيم».(٦)

تلك نماذج من الصور الجزئيـة، وفيهـا تقليـد للقدمـاء، واقتبـاس مـن القـرآن الكريم، ولكن أصالة الشعراء برزت في صور مبتكرة، تعكس واقع الأحـداث الـتي خاض الشعراء غمارها، كمـا تعكـس البيئـة القرشـية الخاصـة، التجاريـة والدينيـة، وتظهر قدرة الشعراء على تفهم القرآن الكريم والاستفادة منه.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٠٦. والمدلج : الذي يسير من أول الليل.

(٢) الاستيعاب ص ٩٠٢.

(٣) عيون الأثر ٢/٣٤٠.

(٤) التكوير – الآية ١.

(٥) جمهرة نسب قريش ٣٨٠/١.والهيم : الإبل التي يصيبها داء فلا تروى من الماء، والشوب : مايشاب، أي : يخلط ويمزج

(٦) الواقعة – الآيتان ٥٤ – ٥٥.

٢ - لوحات فنية

ثمة لوحات فنية تظهر اقتدار الشعراء القرشيين في صدر الاسلام على تقديم صور جزئية مترابطة، ورسم مشاهد متتابعة ومنسجمة، ومن ذلك قول عمرو بن العاص:[1]

ولو شهدتْ جُمْلٌ مُقامي وموقِفي ... بصفّينَ يوماً شابَ منها الذوائب

غداةَ أتى أهلُ العراق كأنّهمْ ... من البحر لجٍّ موجُهُ متراكِبُ

وجئنا إليهم في الحديدِ كأنّنا ... سحابُ خريفٍ زعزعتْهُ الجنائبُ

فقالوا: نرى من رأينا أنْ تُبايعوا ... عليًّا. فقلنا: بل نرى أنْ تضاربوا

فطارتْ إلينا بالرماح كماتُهُمْ ... فَطِرْنا إليهم والسيوف قواضِبُ

ولّما أرادوا أنْ يقوموا مُقامَنا ... أبينا عليهمْ أنْ تزولَ المناكِبُ

فالأبيات فيها عدة مشاهد متتابعة مثل شريط (سينمائي) مع ملاحظة سرعة العرض في الأبيات، فالبيت الأول استهلال يوحي بعنف ما سيأتي بعده، وكنى الشاعر عن ذلك بقوله: (شاب منها الذوائب)، وفي البيت إيحاء بأن الحق مؤتشب بالباطل، لاختلاط السواد في البياض في لفظة (شاب)، وصور عمرو في المشهد الثاني انطلاق أهل العراق إلى الحرب، وهم كاملوا العدة والعدد، جموعهم كبيرة، وصفوفهم متراصة، وألوانهم قاتمة، وجلبتهم عالية، وقد استطاع الشاعر أن يثير فينا القدرة على تخيل هذا المشهد بتشبيه جموع أهل العراق ببحر لجي، موجه متراكب، ثم انتقل الشاعر الى مشهد جديد، صور فيه تقدم أهل الشام نحو العراقيين على شكل مجموعات، وهم يلبسون الحديد، واستعان الشاعر لإبراز هذا المشهد بتشبيه جموع الشاميين بسحاب خريف زعزعته رياح الجنوب وتلا ذلك استعراض مشهد تفاوض الفريقين قبل الالتحام، وفيه حوار مقتضب، يحمل رأي الفريقين بالصراع، فالعراقيون يطالبون أهل الشام بمبايعة علي بالخلافة، وأهل الشام يرفضون ذلك، وكنى الشاعر عن رفضهم بعبارة (بل نرى أن تضاربوا) وفي البيت الخامس مشهدان متلاحقان: الأول: إسراع حملة الرماح من أهل العراق إلى الهجوم، والثاني: سرعة انطلاق فرسان الشام بسيوفهم القواطع الى المجابهة، وقد

---

[1] الحماسة الشجرية ١/١٩٩ - ٢٠٠. والجنائب :جمع للجنوب، وهي الريح المقابلة للشمال.

استعار الطيران للفريقين للتعبير عن خفة الحركة، وسرعة الانطلاق، وفي البيت الأخير صور عمرو تصميم العراقيين على الحاق الهزيمة بأعدائهم، وصمود أهل الشام لهم. وهنا توقف الشاعر عن متابعة عرض أحداث المعركة تاركا لمخيلة القارىء والمستمع تصور نهاية محتملة للمعركة، وهذا مما يطيل مدة تعلق النفوس بالأبيات.

لقد استطاع الشاعر استخدام الصور الجزئية، واستعان بالحركة واللون، والصوت، والحوار لرسم مشاهد سريعة متتابعة ومترابطة؛ ويضاف الى ذلك أن ترتيب المشاهد يوحي بإدانة أعداء الشاعر؛ فقد أظهر أصحاب علي بمظهر المعتدين حين أسند إليهم بدأ المعركة مع إخوانهم أهل الشام المسلمين.

وثمة لوحات فنية أخرى تبرز مقدرة الشعراء القرشيين على إخراج مشاهد لصور مترابطة ومنسجمة، ومنها قول علي بن ابي طالب يذكر نصر الهمدانيين له في صفين:[1]

ولّما رأيتُ الخَيلَ تُرْجَمُ بالقنا	نواصِيُها حُمْرُ النُّحور دَوَامي
وأعرضَ نقعٌ في السّماء كأنّه	عجاجةُ دَجْنٍ مُلْبِس بقَتام
ونادى ابنُ هندٍ في الكِلاع وحِمْيَر	وكِنْدَةَ في لَخْم وحيٍّ جذام
تيمَّمْتُ هَمْدانَ الذينَ هُم هُمُ	- إذا ناب خَطْبٌ - جُنّتي وسِهامي
فجاوبني من خيل هَمْدانَ عُصْبَةٌ	فوارسُ من هَمْدانَ غيرُ لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها	وكانوا لدى الهيجا كَشُربِ مُدَام

فالشاعر يعرض مشاهد من المعركة توحي بعنفها، وشدة وقعها، وفيها نرى القائدين: عليا ومعاوية يشرفان على سير الأحداث في المعركة، فمعاوية يحمس القبائل التي تقاتل معه، وعلي يتوجه إلى همدان يطلب نصرتهم، فيستجيبون إلى ندائه ويخفون إلى خوض لظى المعركة.

إن اللوحات الفنية في شعر قريش في صدر الإسلام اقتصرت على عرض مشاهد من المعارك التي خاض الشعراء غمارها، فأحسنوا تصويرها، ونقل أحداثها إلينا، وقصر تلك اللوحات على وصف المعارك لاغرابة فيه، وذلك لانشغال شعراء صدر الإسلام بالحروب والصراعات.

---

[1] العمدة ١/٣٤.

-٤-

بناء القصيدة

امتدت سمات بناء القصيدة لدى قريش في الجاهلية إلى صدر الإسلام، فالمقطعة هي الشكل الغالب، والقصائد قليلة، وعدد أبيات القصيدة لايتجاوز العشرة إلا نادرا وبذلك اقتصرت القصيدة على موضوع واحد، وسادها جو نفسي واحد، وقد أدى ذلك إلى افتقار القصيدة القرشية الى بعض سنن القصيدة الجاهلية كالمقدمة الطللية، ووصف الناقة، وتلك الصفات ترجع الى غلبة الارتجال، وطبيعة الحياة القرشية وضعف الملكة والتجربة الشعريتين لدى شعراء قريش بعامة.

ومن القصائد التي توضح هذه السمات قول أبي سفيان بن الحارث يرثي الرسول:[1]

أرقتُ فباتَ ليلي لايزولُ ... وليلُ أخي المصيبةِ فيه طولُ
وأَسعَدَني البكاءُ وذاك فيما ... أُصيبَ المسلمونَ به قليلُ
لقد عَظُمتْ مُصيبتنا وجلّتْ ... عَشِيّةَ قيلَ: قد قُبضَ الرسولُ
وأضحتْ أرضُنا مِمّا عراها ... تكادُ بنا جوانبُها تميلُ
فَقَدْنا الوحيَ والتنزيلَ فينا ... يَرُوحُ به ويغدو جبرَئِيلُ
وذاكَ أحقُّ ما سالتْ عليه ... نفوسُ الناس أو كربت تَسيلُ
نبيٌّ كانَ يجلو الشكَّ عنا ... بما يُوحَى إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالاً ... علينا والرسولُ لنا دليلُ
أفاطمُ إن جَزِعتِ فذاكَ عذرٌ ... وإنْ لم تجزعي ذاكَ السّبيلُ
فقبرُ أبيكِ سيّدُ كلِّ قبْرٍ ... وفيه سيّدُ الناسِ الرسولُ

فالشاعر قصر قصيدته على رثاء الرسول، فسادتها مشاعر التعظيم لرسالة الإسلام ولمبلّغها، وأحاسيس الحزن لافتقاد الرسول، وانقطاع الوحي.

وكثرت في صدر الإسلام المراسلات الشعرية السياسية بين الزعماء ولاسيما بين قادة الحزبين: الهاشمي والأموي، ومن ذلك أن علي بن أبي طالب بعث إلى

---

[1] الروض الأنف ٧/٥٩٣ - ٥٩٤.

الشام كتابا يطالب فيه معاوية بالبيعة، فعلم بذلك الوليد بن عقبة الأموي، فكتب إلى معاوية رسالة شعرية، قال فيها:[١]

مُعاويَ إنّ المُلكَ قد جُبَّ غاربُهُ ... وأنتَ بما في كَفّكَ اليومَ صاحِبُهْ

أتاكَ كتابٌ من عليٍّ بخطّةٍ ... هي الفَصْل فاخترْ سَلْمَهُ أو تحاربُهْ

ولا ترجُ عند الواترينَ مَوَدَّةً ... ولا تأمَن اليومَ الذي أنت راهِبُهْ

فحاربْهُ إنْ حاربتَ حربَ ابن حُرَّةٍ ... وإلّا فسلم لاتدِبّ عقاربُهْ

فإنّ عليّاً غيرُ ساحِبِ ذَيلِهِ ... على خُدعةٍ ما سَوّغَ الماءَ شاربُهْ

ولا قابلٌ مالا يُريدُ وهذه ... يقوم بها يوماً عليكَ نوادِبُهْ

ولا تَدَعَنّ المُلكَ والأمرُ مُقْبلٌ ... وتطلبُ ماأعيتْ عليكَ مذاهبُهْ

فإنْ كنت تنوي أنْ تجيب كتابَهُ ... فَقُبِّحَ مُمْليه، وقُبِّحَ كاتِبُهْ

فألق إلى الحيِّ اليمانينَ كلمةً ... تنالُ بها الأمرَ الذي أنت طالبُهْ

تقول: أميرَ المؤمنين أصابَهُ ... عدوٌّ ومالاهُمْ عليه أقاربُهْ

أفانينُ: منهم قاتِلٌ ومُحَضِّضٌ ... بلا تِرَةٍ كانت، وآخرُ سالِبُهْ

وكنتُ أميرا قبلُ بالشام فيكم ... فحسبي وإيّاكم من الحقّ واجبُهْ

فجيئُوا ومنْ أرسَى ثبيراً مكانه ... نُدافعُ بحراً لاتُرَدُّ غواربُهْ

فأقْلِلْ وأكثرْ مالها اليومَ صاحِبٌ ... سواكَ فصَرّحْ لستَ مِمّنْ تُواربُهْ

لقد استهل الشاعر قصيدته (رسالته) بمخاطبة معاوية وتذكيره بأمرين: اضطراب الملك (الخلافة)، واقتدار معاوية على التملك لو استعان بسلطانه في بلاد الشام، ثم برهن الشاعر على صحة ماذهب إليه، فالتقارب بين علي ومعاوية محال، فعلي وتر الأمويين، وهو يخادع معاوية حتى ينال منه، ولذا يجب على معاوية أن يطلب الممكن (الخلافة)، وأن يدع المحال (التفاهم مع علي)، ثم بين الشاعر لمعاوية السبيل الموصل إلى الهدف، فدعاه إلى الاعتماد على أهل اليمن في الشام، وإلى تحزيبهم معه، ورسم الشاعر خطة دعاية، قوامها إقناع أهل اليمن بشرعية محاربة علي، وبأحقية معاوية بالولاية عليهم، ثم ختم الوليد رسالته بمحاولة أخيرة لإغراء

---

(١) وقعة صفين ٥٣ – ٥٤. وجُب :قطع. والغارب : ما بين سنام الجمل الى عنقه. والغوارب : أعالي الموج. وتوارب: تخادع وتخاتل.

معاوية بالخلافة، ولدفعه الى المجاهرة في حرب علي، وذلك في البيت الأخير، وهو:

فأقلِلْ وأَكْثِرْ مالها اليوم صاحِبٌ ... سواكَ فَصَرِّحْ لستَ مِمَّنْ تُوارِبُهْ

إن الرسالة السياسية الشعرية تتجمع أفكارها الجزئية حول موضوع واحد، ويبرز فيها الجانب العقلي، واستخدام البراهين والأدلة للإقناع.[1] وهذا الصنف من القصائد يضاف إلى الأسباب التي ذُكرت، وطَبعتْ القصيدة القرشية بالقصر والوحدة الموضوعية والنفسية، والافتقار الى المقدمة الطللية ووصف الناقة والارتحال عبر الصحراء.

-٥-

النقائض

ازدهر فن النقائض في غمرة الصراع بين مكة والمدينة في عصر البعثة النبوية، وكان بين المهاجرين القرشيين شعراء نقضوا أشعارا لقرشيين مشركين، ونمثل لذلك بقول عمرو بن عبدود العامري يخاطب المسلمين، وقد اجتاز الخندق، في غزوة الأحزاب.[2]

ولقد بَحَحْتُ من النِّدا ... ء بجمعِكُمْ، هل من مبارزْ؟
ووقفتُ إذْ جَبُنَ المُشَـ ... ـجِّعُ مَوْقِفَ القِرْنِ المُناجزْ
وكذاكَ إنّي لم أزَلْ ... مُتَسَرِّعاً قبلَ الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ في الفَتَى ... والجودَ من خَيْرِ الغرائِزْ

فبرز إليه علي بن أبي طالب، وهو ينشد مناقضا:

لاتَعْجَلَنَّ فَقَدْ أتا ... كَ مُجيبُ صوتِكَ غيرَ عاجزْ
ذو نِيَّةٍ وبَصِيرَةٍ ... والصِدْقُ مُنْجي كلَّ فائِزْ
إنّي لأرجُو أنْ أُقِيـ ... ـمَ عليكَ نائحةَ الجنائِزْ
مِنْ ضَرْبةٍ نجلاءَ يَبْـ ... ـقَى ذِكْرُها عند الهزاهِزْ

وحين انتهى الصراع بين مكة والمدينة تطامن فن النقائض الى أن وقعت الفتنة

---

(١) سنجد في الصفحات التالية شواهد كثيرة على ذلك.

(٢) الروض الأنف ٣١٦/٦ - ٣١٧. والهزاهز: تحريك البلايا والحروب والناس.

الكبرى، فاستعاد قوته، ومكانته.

وفي خضم الصراع على الخلافة ازدهرت النقائض ذات الطابع السياسي، وقد تضمنت آراء أصحابها في مقتل عثمان، وفي الخلاف بين علي ومعاوية، واتخذت تلك النقائض شكل رسائل شعرية غالبا، ونذكر من ذلك أن معاوية كتب الى سعد بن أبي وقاص يستميله، وأردف كتابه بشعر قال فيه:[1]

ألا يا سعدُ قد أظهرتَ شكاً ... وشكُّ المرء في الأحداثِ داءُ
على أيِّ الأمور وقفتَ حقّاً ... يُرَى أو باطلاً فَلَهُ دواءُ
وقد قالَ النبيُّ وحدَّ حدّاً ... يحِلُّ به من الناس الدّماءُ
ثلاثٌ: قاتلٌ نفساً وزان ... ومرتَدٌّ مَضَى فيه القَضَاءُ
فإنْ يكن الإمام يلمُّ منها ... بواحدةٍ فليس له ولاءُ
وإلاّ فالتي جئتمْ حرامٌ ... وقاتِلُهُ وخاذِلُهُ سَواءُ
وهذا حُكْمُهُ لاشَكَّ فيهِ ... كما أنّ السماءَ هي السّماءُ
وخيرُ القول ماأوجزتَ فيه ... وفي إكثاركَ الداءُ العياءُ
أبا عمرو ودعوتكَ في رجال ... فجازَ عِراقِيَ الدَّلْوَ الرِّشاء
فَأَمّا إذْ أبيتَ فليس بيني ... وبينكَ حرمَةٌ ذهبَ الرّجاءُ
سوى قولي إذا اجتمعتْ قريشٌ ... على سَعْدٍ من اللهِ العَفَاءُ

فأجاب سعد معاوية بكتاب، أردفه بشعر نقض فيه قصيدة معاوية، وهو قوله:[2]

معاويَ داءُكَ الداءُ العياءُ ... فليس لنا تجيءُ به دواءُ
طَمِعْتَ اليومَ فيَّ يابنَ هِنْدٍ ... فلا تطمعْ فقد ذهبَ الرّجاءُ
عليكَ اليومَ ماأصبحتُ فيه ... فما يَكفيكَ من مِثْلِي الإباءُ
فما الدنيا بباقيةٍ لِحَيٍّ ... ولا حيٌّ له فيها بقاءُ
وكلُّ سرورها فيها غُرورٌ ... وكلُّ متاعها فيها هَبَاءُ
أيدعوني أبو حسن عليٌّ ... فلمْ أرْدُدْ عليه بما يشاءُ

---

[1] وقعة صفين ص ٧٤ - ٧٥. والإمام : عثمان بن عفان. وجاز عراقي الدلو الرشاء. أراد: انقطع الأمل.

[2] المصدر السابق ص ٧٥ - ٧٦ وما يكفيك من مثلي الإباء : الذي يكفيك مني الإباء.

وقلتُ له: اعطني سيفاً بصيراً — تمرُّ به العداوةُ والولاءُ
فإنّ الشرَّ أصغره كبيرٌ — وإنّ الظهرَ تُثْقِلُهُ الدماءُ
أتطمعُ في الذي أعيا عليّاً — على ما قد طَمِعْتَ به العَفاءُ
ليومٌ منه خيرٌ منكَ حيّاً — ومَيْتاً أنتَ للمرء الفداءُ
فأمّا أمرُ عثمان فَدَعْهُ — فإنّ الرأيَ أذهبَهُ البَلاءُ

والنظر في قصيدة معاوية يوقفنا على حنكته السياسية، فقد عرض موقفه من الصراع على الخلافة عرضا منطقيا، واستعان بالحديث الشريف لتبرير موقفه، وإدانة خصومه واستمالة الناس إليه، كما لم يغفل التهديد والترغيب. وأما نقيضتها (قصيدة سعد) فتوحي بأن سعدا يرى في معاوية رجلا يطلب مغانم الحياة الدنيوية، ولذا رفض الانضمام إلى معسكر معاوية، وهو رفض مشروع، يستند الى قوله تعالى: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»،[1] وكذلك أعلن سعد أنه رفض الانضمام الى معسكر علي أيضا معبرا بذلك عن موقفه الحيادي، ولكنه لم يستطع إغفال تعاطفه مع عليّ، ففضله على معاوية، وأنهى سعد قصيدته بدعوة معاوية الى ترك الحديث في أمر عثمان، فعظمة المصيبة أفقدت العقول القدرة على الحكم الصائب فيه، وبذلك أحسن سعد التخلص من الإجابة المباشرة عن أسئلة معاوية. ومن الواضح أن سعدا لم يكتف بنقض أفكار معاوية، بل نقض كثيرا من عباراته وقوافي أبياته مظهرا بذلك مقدرة شعرية لاتخفى في فن النقائض.

واتخذ الحوار بين الحزبين: الهاشمي والأموي وسائل مختلفة، وكانت النقائض الشعرية بالمراسلة من أبرز تلك الوسائل، ومن ذلك أن عمرو بن العاص بعث، بناء على طلب معاوية، برسالة الى عبد الله بن العباس يدعوه فيها الى المهادنة والسلم، ونبذ دعوات المتعصبين، وختم عمرو رسالته بشعر قال فيه:[2]

طالَ البلاءُ وما يُرْجَى له آس — بعدَ الإلهِ سوى رفق ابن عبّاس
قولا له قولَ منْ يرضَى بحَظْوتِهِ — لاتَنْسَ حظّكَ إنّ الخاسِرَ الناسِي
يا بنَ الذي زَمْزَمٌ سقيا الحجيج له — أَعْظِمْ بذلك من فخر على الناس

[1] آل عمران – الآية ١٨٥.

[2] وقعة صفين ص ٤١١ – ٤١٢. ويساوره : يواثبه. والأخياس: الأشجار الكثيرة الملتف. والنوكى: الحمقى.

كـلٌّ لصاحبـهِ قِـرْنٌ يُسَـاورُهُ | أُسْدُ العرين أُسُـودٌ بـينَ أخيـاس
لو قِيْسَ بينهم في العُـرْبِ لاعتدلـوا | العَجْـزُ بـالعَجْز ثـمّ الـراسُ بـالراس
انظر فِدىً لكَ نفسـي قَبْـلَ قاصمـةٍ | للظهـر ليـس لهـا راق ولا آسِـي
إنّ العراقَ وأهـلَ الشـام لـن يجـدوا | طَعْـمَ الحيـاةِ مـع المسـتَغْلق القاسِـي
بُسْـرٌ وأصحـابُ بُسْـر والذيـن هُـمُ | داءُ العـراق رجـالٌ أهـلُ وسـواس
قـومٌ عُـراةٌ مـن الخـيراتِ كلُّهُـمُ | فمـا يُسَـاوَى بـه أصحابُـهُ كاسِـي
إنّي أرى الخيرَ في سِلْم الشـآم لكُـمْ | و اللهُ يَعْلَـمُ مـا بالسِّـلْم مـن بـاس
فيهـا التُّقـى وأمورٌ ليس يَجْهَلُهَـا | إلا الجَهـولُ ومـا النُّوكَـى كأكيـاس

وقد اطلع ابن عباس علي بن أبي طالب على رسالة عمرو، فقال علي: أجبه، وليرد عليه شعره الفضل بن العباس، فإنه شاعر، فاستجاب الفضل لذلك، وأجاب عمرا مناقضا:[1]

يا عمرو حَسْبُكَ من خَدْع ووسواس | فاذهبْ فليس لداء الجهل من آسِي
إلاّ تواتُـرَ طَعْـن في نحوركُـمُ | يُشْجي النفوسَ ويَشفي نخوةَ الـراس
هـذا الـدواءُ الـذي يَشْفي جماعتكُمْ | حتّـى تطيعـوا عليّـاً وابـنَ عبـاس
أمّـا علـيٌّ فـإنَّ اللهَ فضّلَـهُ | بفضل ذي شـرفٍ عـال علـى النـاس
إنْ تَعقِلـوا الحـربَ نعقلْهـا مخيَّسَـةً | أو تبعثوهـا فإنّـا غـيرُ أنْكـاس
قـد كـانَ منّا ومنكـمْ في عجاجتهـا | مـالا يُـرَدُّ وكـلٌّ عُرْضَـةُ البـاس
قَتْلَـى العراقِ بقتلَـى الشـام ذاهبـةٌ | هـذا بهـذا ومـا بـالحقّ مـن بـاس
لابـاركَ اللهُ في مصـر فقـد جَلَبَـتْ | شـرّاً وحظكَ منها حُسْـوَةُ الكـاس
ياعمـرو إنّـكَ عـار من مغارمهـا | والراقصـاتِ ومن يوم الجَزَا كاسـي

لقد أتهـم الفضـل عمـرا بـالخداع والجهـل، وأظهـر فضـل علـي، واستعداد الهاشميين لمتابعة الحرب، كما غمز الفضل قناة عمرو، فاتهمـه بمحاربـة علي طمعا بولاية مصر، ثم هدده بالعقاب يوم الجزاء.

ومن النقائض السياسية بين الحزبـين مـا وقـع بـين الفضـل بـن عبـاس اللهـبي

---

[1] المصدر السابق ص ٤١٣ - ٤١٤. وللفضل أيضا قصيدة أخرى ينقض بها أبياتا لمعاوية (وقعة صفين ص ٤١٦ - ٤١٧).

الهاشمي، والوليد بن عقبة الأموي.[1] وثمة نقائض اتخذت طابع الفخر والحماسة، ومن ذلك أن محمد بن عمرو بن العاص قال يوم صفين شعرا ومنه:[2]

لو شَهِدَتْ جَمْلٌ مقامي وموقفي بصفّين يوما شاب منها الذوائبُ
غداةَ غدا أهلُ العراق كأنّهم من البحر موجٌ لُجُّهُ مُتراكِبُ
فقالوا: نرى من رأينا أنْ تُبايعوا عليّاً، فقلنا: بلْ نرى أنْ تُضاربُوا

فرد عليه محمد بن علي بن أبي طالب مناقضا بقوله:[3]

لو شَهِدَتْ جُمْلٌ مقامَكَ أبصرَتْ مقامَ لَئيم وَسْطَ تلكَ الكتائبِ
أتذكُرُ يوماً لم يكنْ لك فَخْرُهُ وقد ظهرتْ فيها عليكَ الجلائبُ
وأعطيتمونا ما نَقِمْتُمْ أَذِلةً على غير تقوى الله، والدِّينُ واصِبُ

وثمة نقائض وقعت بين شعراء من حزب واحد، واتخذت طابع العتاب والنصيحة، ومما يروى في ذلك أن عمار بن ياسر قاتل في صفوف علي وقتل في صفين، فرأى كثير من المسلمين أن مقتله حجة لعلي على معاوية لأن عمرو بن العاص كان قد أذاع أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فأظهر معاوية الاستياء من عمرو، فامتعض عمرو وأراد ترك معاوية الذي روى في عمار مثل الذي رواه عمرو فيه، وقد أنشد عمرو في ذلك قوله لمعاوية:[4]

تُعاتبني أنْ قلتُ شيئا سمعتُهُ وقد قلتَ لو أنصفتني مثله قبلي
أنعلُكَ فيما قلتَ نعلٌ ثبيتَةٌ وتزلَقُ بي في مثل ما قلته نَعْلي
وما كان لي عِلمٌ بصفّين أنّها تكون وعمّارٌ يَحُثُّ على قتلي
فلو كان لي بالغيبِ عِلمٌ كَتمتُها وكابدتُ أقواما مراجلُهم تغلِي
أبى اللهُ إلاّ أنّ صدرَكَ واغِرٌ عليَّ بلا ذنبٍ جَنيتُ ولا ذَحْلِ
سوى أنّني والرّاقصاتِ عَشِيَّةً بنصرِكَ مَدْخُول الهوى ذاهلُ العقلِ
فلا وضعَتْ عندي حصانٌ قِناعها ولاحملتْ وجناءُ ذِعلِبةٌ رَحْلي
ولا زلتُ أدعَى في لؤَيّ بن غالبٍ قليلاً غَنائي لا أُمِرُّ ولا أُحْلي

---

[1] انظر هذا البحث ص ٢٣٢-٢٣٣.

[2] وقعة صفين ص ٣٧٠ - ٣٧١.

[3] المصدر السابق ص ٣٧١. والجلائب : العبيد يجلبون من بلد الى غيره. والدين واصب: طاعته دائمة واجبة أبدا.

[4] المصدر السابق ص ٣٤٥ - ٣٤٦. والذحل :الحقد والعداوة.والوجناء : الناقة الشديدة. والذعلبة : الناقة السريعة.

إن الله أرْخَى من خِناقِك مَرَّةً ونلتَ الذي رَجَّيْتَ إنْ لم أزرْ أهلي
وأتركْ لك الشام الذي ضاق رُحْبُها عليكَ ولم يَهْنِكْ بها العيش من أجلي

فأجابه معاوية مناقضا ومعتبا:[1]

آلآنَ لما ألقتِ الحربُ بَرْكَها وقام بنا الأمرُ الجليلُ على رجل
غمزتَ قناتي بعد ستين حِجَّةً تِباعاً كأنّي لا أُمِرُّ ولا أُحْلي
أتيتَ بأمر فيه للشام فِتنةٌ وفي دون ماأظهرته زَلّةُ النعل
فقلتُ لك القولَ الذي ليس ضائراً ولو ضرّ لم يضرركَ حَمْلُكَ لي ثقلي
فعاتبتني في كلّ يوم وليلةٍ كأنّ الذي أُبليك ليس كما أبلي
فيا قَبَّحَ الله العتاب وأهْلَهُ ألم تر ما أصبحتُ فيه من الشُّغل
فدعْ ذا، ولكنْ هل لك اليوم حيلةٌ تردُّ بها قوماً مراجلُهم تَغْلي
دعاهم عَلِيٌّ فاستجابوا لدعوةٍ أَحَبَّ إليهم من ثرا المال والأهْل
إذا قلتُ هابوا حومةَ الموتِ أرقلوا الى الموتِ إرقالَ الهلوكِ الى الفحل

فلما أتى عمرا شعر معاوية أتاه، فأعتبه، وصار أمرهما واحدا.

* * * * *

لقد أعطى الصراع على الخلافة فن النقائض إمكانية الازدهار في صدر الإسلام، فغلب على ذلك الفن الجانب السياسي والجدية في عرض الأفكار والوحدة الموضوعية. وكان الشعراء القرشيون عماد ذلك الفن،[2] وهذا بخلاف ما رأيناه في شعر قريش الجاهلي، فأكثر النقائض فيه لم تنحصر بين شعراء قريش بل كانت بينهم وبين شعراء يثرب غالبا.

ولما كانت الخلافة هي محور النقائض في صدر الإسلام فقد سادت فيها القيمة الدينية، واستعان الشعراء بالقرآن والحديث، والحجاج المنطقي للإقناع بآرائهم، ولإنكار حجج خصومهم، وساعد على ذلك التراسل بالأشعار، فالكتابة تمنح العقل مجالا رحبا للظهور، وإبراز الأفكار.

---

(1) المصدر السابق ص ٣٤٦. وأبليك : استخبرك. والإرقال : الإسراع. والهلوك من النساء : الفاجرة المتساقطة على الرجال، أو الحسنة التبعل لزوجها.

(2) من النادر أن نجد شاعرا غير قرشي ينقض شعرا قرشيا في صدر الإسلام، ومن ذلك النادر نقض أبي أيوب الأنصاري أبياتا بعث بها اليه معاوية بن أبي سفيان (وقعة صفين ص ٣٦٧ - ٣٦٩).

الخاتمـــــــة

أقرت العرب لقريش بالتقدم عليها في كل شيء عدا الشعر، فإنها كانت لاتقر به حتى كان عمر بن أبي ربيعة وأضرابه في العصر الأموي، فأقرت العرب لقريش بالشعر أيضا، ولم تنازعها شيئا.[1] وجاءت هذه الدراسة لتزيح غبار القرون عن شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، فأعادت النظر في حكم النقاد القدماء الجائر على ذلك الشعر بالضعف، فهو حكم يشوبه التعصب الديني والقبلي بشكل ظاهر.

لقد غمط النقاد القدماء شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، ولعل انتماء أكثرهم لغير قريش تسبب في عدم احتفالهم بذلك الشعر، ولكن ابن سلام الجمحي القرشي بالولاء اهتم بشعر قريش في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، فذكر فيه تسعة شعراء قرشيين، وصفهم بالبراعة،[2] وقد وضعهم بحق بعد شعراء يثرب، وقدم بذلك حكما غير مباشر بتقدم قريش على شعر القرى العربية عدا يثرب، وخالف بذلك بعض كبار نقاد الشعر كأبي عبيدة الذي أهمل شعر قريش في قوله: «واجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف».[3]

وأثر العامل الديني في غمط شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام، فأكثر ذلك الشعر وأنضجه قيل في محاربة المسلمين، وفي الصراع على الخلافة، ولا يعقل أن يشيد النقاد القدماء، وهم مسلمون، بشعر قيل في محاربة الله ورسوله والمسلمين وفي الصراع على الخلافة، وهو صراع مزق الأمة وشتت شملها. وهذا حكم عام لايقلل منه أن بعض النقاد أشادوا أحيانا ببعض المقطعات من شعر قريش، ومن ذلك إشادة الأصمعي بأبيات للحارث بن هشام المخزومي قالها في الاعتذار عن فراره يوم بدر، وإشادة خلف الأحمر بأبيات لهبيرة بن أبي وهب

---

[1] انظر الأغاني ٧٤/١.

[2] ص ١٩٥ - ١٩٦.

[3] الاستيعاب ص ٣٤٥.

المخزومي اعتذر فيها عن فراره في غزوة الخندق.[1] ولعل سبب الإشادة في الحكمين أن موضوع الشعر فيهما لايمس المسلمين، بل يذكر انتصارهم على المشركين.

ويضاف الى ماسبق أن مقاييس نقد الشعر عند القدماء أثرت في التحامل على شعر قريش، فهي مقاييس استنبطت من الشعر الجاهلي البدوي، وطبقت على شعر قريش الحضري، فشعراء قريش أهملوا سنن القصيدة الجاهلية، وكان شعرهم لينا، وقصائدهم قصيرة، وهذا دليل على أصالة شعر قريش وصدقه فهو وليد بيئة خاصة، بيئة مكة التجارية الدينية الحضرية المتميزة، ثم بيئة يثرب المشابهة.

* * * * *

اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تكون في أربعة أبواب، واشتمل كل باب منها على فصلين.

أما الباب الأول فكان دراسة لقبيلة قريش، وفيه تعرفنا نسب قريش ومنازلها، ونشاطها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ومجمل معارفها، ولاسيما الدينية، وكان الحديث عن قبيلة قريش في الجاهلية مطولا، ولكنه أبرز القبيلة بشكل أفاد في فهم شعرها ودراسته.

وأما الباب الثاني فكان موضوعه توثيق شعر قريش، وفيه عرفنا أسباب النحل والصنع في شعر قريش، كما عرفنا نماذج من الشعر المنحول والمصنوع، ثم تعرفنا مصادر ذلك الشعر، وسبل الإفادة منها بشكل دقيق أو قريب من ذلك.

وأما الباب الثالث فكان دراسة لشعر قريش في الجاهلية، وفيه تعرفنا موضوعاته وخصائصه، وقد تبين من دراسة موضوعاته بروز شعر السياسية والحماسة والرثاء والفخر، فأكثر شعر قريش قيل بدافع إعلاء شأن القبيلة، والحفاظ على مصالحها الاقتصادية ومكانتها الدينية، ولاسيما حين احتدم الصراع بين شعراء قريش والأنصار بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. وقد لوحظ على موضوعات شعر قريش الجاهلي أنها لم تتجاوز إطار القبيلة إلا نادرا، فالشاعر القرشي يأنف أن يمدح أو يرثي غير أبناء قبيلته، كما لوحظ افتقار

---

[1] انظر عيون الأثر ١/ ٢٩٠ - ٢٩١ - الاستيعاب ص ١٩٦٤.

ذلك الشعر الى موضوعات مألوفة في الشعر الجاهلي كالوقوف على الأطلال، ووصف الناقة والرحلة عبر الصحراء وغير ذلك.

وفي دراسة خصائص شعر قريش الجاهلي تبين امتلاكه خصوصية في ترتيب القيم الاجتماعية، فقد برزت فيه القيمة المادية والاهتمام بالدين، وتلونت موضوعاته بمعان منتزعة من الواقع الاقتصادي والجغرافي والديني والاجتماعي الذي عاشت فيه قريش، وكان شعرها الجاهلي شاهدا على بداية مرحلة جديدة، مرحلة الانتقال من مجتمع متحضر يعيش على التجارة واستثمار الأموال بشكل رئيس، وتسود فيه القيمة المادية. ومن خصائص ذلك الشعر تحضر لغته، فهي تميل الى الليونة والوضوح، وكذلك اهتمام اللغويين به، وتضمنه ألفاظا استخدمت في معان لم تثبتها المعاجم العربية، كما ظهرت فيه الألفاظ الدينية.

وابتدع شعراء قريش صورا طريفة كما ترسَّمُوا خطى من سبقهم من الجاهليين، فأخذوا بعض صورهم، وجنحوا الى الحسية. والقصائد في شعر قريش الجاهلي قليلة وغير مطولة، ويرجع ذلك الى الارتجال، وسكن القبيلة المستقر في واد غير ذي زرع، واشتغالها بالتجارة، وضعف تجارب الشعراء، وقد حاول بعض الشعراء القرشيين التجديد في بناء القصيدة فَدَلوا على أصالتهم وصدق تجربتهم الفنية وقدرتهم الإبداعية.

وساهم شعر قريش الجاهلي في بناء فن النقائض وتطويره، فكانت النقائض بين شعراء مكة والمدينة من صور الصراع بين القديم (الأدب الجاهلي) والجديد (الأدب الإسلامي)، وقد أظهر شعراء قريش قدرتهم على مجاراة شعراء يثرب سادة الشعر الحضري آنذاك.

وأما الباب الرابع فكان دراسة لشعر قريش في صدر الإسلام، وفيه تعرفنا موضوعات ذلك الشعر وخصائصه. لقد أنشد شعر قريش في تلك الفترة بدوافع سياسية إسلامية، واقترن بصراعات حادة ومعارك طاحنة لرفع راية الإسلام أو لمناصرة فريق آخر في مسألة الخلافة. وقد ظلت موضوعات ذلك الشعر داخلية، ولم تتعد نطاق القبيلة إلا نادرا، ولكنها غنيت بشعر الفتوح، ومناصرة الإسلام والاعتذار، كما ظهر أثر الإسلام واضحا في الموضوعات القديمة كالحماسة والرثاء والفخر والغزل.

وشهد شعر قريش في صدر الإسلام تطورا في قيمه ومعانيه، فقد رجحت القيمة الدينية، وعظم اهتمام الشعراء بالقوة والبطولة، وحّد الإسلام من غلواء القيمَة المادية والعصبية القبلية، وازدادت موضوعات ذلك الشعر ثراء بالمعاني الإسلامية، فالشعراء القرشيون أكثروا الأخذ عن معاني القرآن الكريم والحديث الشريف، فساهموا بإثراء معاني الشعر العربي وتهذيبها.

وازدادت لغة شعر قريش تحضّرا وثراء بالقرآن والحديث، فكثرت فيه الألفاظ الإسلامية كما كانت صور القرآن معينا اقتبس منه شعراء قريش، فزينوا شعرهم بصور مقتبسة منه، ودلّوا بذلك على عمق تأثرهم بالدين الجديد. وقد ظلت قصائد ذلك الشعر قليلة وقصيرة للأسباب المذكورة في الباب السابق، ويضاف إليها في صدر الإسلام كثرة الرسائل الشعرية بين قادة الحزبين: الهاشمي والأموي، وقد تميزت القصائد بوحدة الموضوع والافتقار إلى بعض الموضوعات المألوفة في الشعر العربي كالمقدمة الطللية ووصف الناقة والرحلة عبر الصحراء.

لقد شهد صدر الإسلام ازدهار فن النقائض، وساعد على ذلك الصراع على الخلافة، فغلب على النقائض الجانب السياسي، وسادت فيها القيمة الدينية واستعان الشعراء (قادة الأحزاب) بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وبالحجج المنطقية للوصول إلى الإقناع بآرائهم، والى إنكار مزاعم الأعداء ودحضها.

* * * * *

آن لترحالي مع شعر قريش في الجاهلية وصدر الإسلام أن ينتهي، وقد هون علي متاعب الترحال حب الكشف الذي يغري كل رحالة بالانطلاق نحو هدفه. آمل أن تكون هذه الدارسة إضافة جديدة الى دراسات الشعر العربي القديم، ومساهمة موفقة في خدمة أدب أمتنا العربية الخالدة، وتاريخها المجيد، وحسبي أني قدمت ما أستطيع، و لله الحمد من قبل ومن بعد.

فاروق أحمد اسليم

فهرس المصادر والمراجع

أ – المصادر

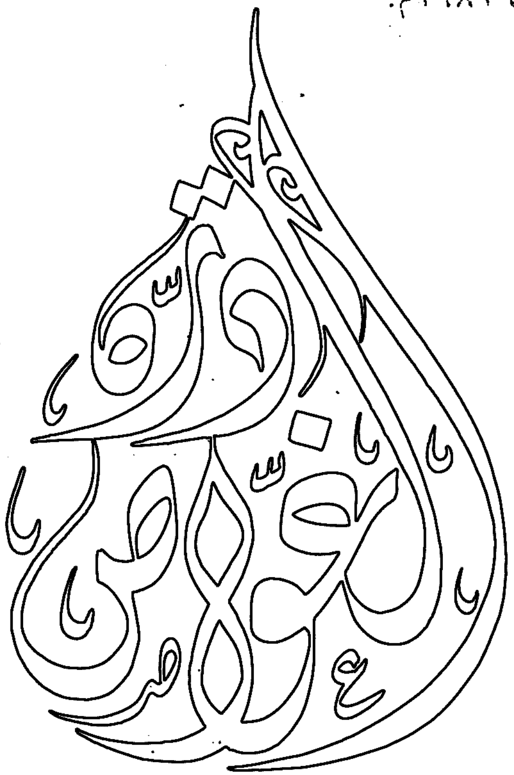
١. القرآن الكريم
٢.أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس، مكة، ١٣٥٢ - ١٣٥٧ هـ.
٣. الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار، تحقيق سامي مكي العاني، بغداد، ١٩٧٢م.
٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مصر، مطبعة الفجالة، بلا تاريخ.
٥. الاشتقاق، ابن دريد الأزدي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر، ١٩٥٨م.
٦. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ، مصورة مكتبة المثنى بغداد.
٧. الأصنام، ابن الكلبي، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية ١٩٢٤م.
٨. الأضداد، محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، الكويت، ١٩٦٠م.
٩. الأغاني، الأصفهاني، طبعة دار الكتب (الأجزاء من ١ الى ١٦) وطبعة الهيئة العربية العامة للتأليف والنشر بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم (الأجزاء من ١٧ الى ٢٤).
١٠.أمالي الزجاجي، أبو لقاسم الزجاجي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط١، ١٣٨٣هـ.
١١.الأمالي، أبو علي القالي، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦م
١٢.أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، علي بن الحسين المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، ١٩٥٤م.
١٣.أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق محمد حميد الله، مصر، ١٩٥٩م.
١٤.الأنساب المتفقة، القيسراني، ليدن، ١٨٦٥م.
١٥.إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون (السيره الحلبية) لعلي بن برهان الدين الحلبي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٦٢م

١٦. أيمان العرب في الجاهلية، النجيرمي، تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٤٣هـ.
١٧. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط١، ١٩٤٨ - ١٩٥٠م
١٨. تاج العروس، الزبيدي، مطبعة حكومة الكويت.
١٩. تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعارف، ط٢.
٢٠. تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، دمشق، دار إحياء علوم الدين، ١٣٩٤هـ.
٢١. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري، مطبعة بولاق، ١٣٢٣ - ١٣٢٩هـ.
٢٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
٢٣. جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، بيروت، دار المسيرة، ١٩٨٣م.
٢٤. جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، تحقيق ليفي بروفنسال، مصر، دار المعارف، ١٩٤٨م
٢٥. جمهرة اللغة، ابن دريد الأزدي، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٥هـ.
٢٦. جمهرة نسب قريش، الزبير بن بكار تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، مكتبة دار العروبة، ١٣٨١هـ، ومخطوط يتضمن قسما لم ينشر.
٢٧. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، مصر، ١٩٠٥م.
٢٨. حذف من نسب قريش، السدوسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٦٠م.
٢٩. حماسة البحتري، تحقيق كمال مصطفى، مصر، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٩م.
٣٠. الحماسة البصرية، البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٤م.
٣١. الحماسة الشجرية، ابن الشجري، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٠م.
٣٢. حماسة الظرفاء، أبو محمد بن عبد الله الزوزني، تحقيق محمد جبار المعيبد، بغداد، دار الحرية، ١٩٧٧ - ١٩٧٨م.
٣٣. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (الخزانة)، البغدادي، تحقيق عبد السلام

هارون، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
٣٤.دلائل النبوة، أبو نعيم الأصفهاني، حيدر آباد، ١٣٢٠هـ.
٣٥.ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد حسين، مصر، ١٩٥٠م.
٣٦.ديوان جرير، تحقيق نعمان محمد أمين طه، مصر، دار المعارف، ١٩٧١م.
٣٧.ديوان سحيم، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م.
٣٨.ديوان علي بن أبي طالب، القاهرة، مطبعة الحجر، ١٩٢٦م.
٣٩.ذيل الأمالي والنوادر، القالي، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦م.
٤٠.الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، مصر، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨م.
٤١.السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧١ - ١٩٧٦م.
٤٢.السيرة النبوية - ابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٥م
٤٣.شرح اختيارات المفضل بن محمد الضبي، صنعة التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية في دمشق، ١٩٧١ - ١٩٧٢م.
٤٤.شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٦٦م.
٤٥.شرح القصائد العشر، صنعة التبريزي، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، ١٩٦٩م.
٤٦.شعر ضرار بن الخطاب الفهري، جمعه وحققه فاروق أحمد اسليم، الرياض، دار أمية، ١٤١٠ هـ.
٤٧.صحيح البخاري، مطابع الشعب، مصر، ١٣٧٨ هـ.
٤٨.صحيح مسلم، وقف على طبعه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الجزء الرابع، ط٢، ١٩٧٢م.
٤٩.طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مصر، دار المعارف، ١٩٥٢م.
٥٠.الطبقات الكبرى، ابن سعد، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م.
٥١.العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق أحمد أمين وزميليه، القاهرة، ١٩٤٩م.

٥٢.العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٥م.
٥٣.عيون الأثر في فنون المغازي والسير، ابن سيد الناس، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٣٥٦هـ.
٥٤.عيون الأخبار، ابن قتيبة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥ - ١٩٢٨م.
٥٥.فتوح البلدان، البلاذري، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٥٦.
٥٦.فتوح الشام، الواقدي، مصر، دار العهد الجديد، ١٩٥٥م.
٥٧.فتوح مصر وأخبارها، ابن أبي الحكم القرشي المصري، تحقيق هنري ماسيه، مطبعة مجلس المعارف الفرنساوي، ١٩١٤م.
٥٨.الفهرست، ابن النديم، القاهرة، مطبعة الاستقامة، بلا تاريخ.
٥٩.القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٠٦هـ.
٦٠.الكامل في التاريخ، ابن الأثير، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥م.
٦١.الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، المبرد، تحقيق زكي مبارك، مصر، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٣٦م.
٦٢.لسان العرب، ابن منظور، مصر، ١٣٠٠هـ.
٦٣.المؤتلف والمختلف، الآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م.
٦٤.مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مصر، دار المعارف، ١٩٤٨م.
٦٥.مجمع الأمثال، الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ١٩٥٩م.
٦٦.المحبر، ابن حبيب، تحقيق إيلزه ليمتن شتيتر، حيدر آباد، ١٩٤٢م.
٦٧.المردفات من قريش، المدائني، تحقيق عبد السلام هارون، سلسلة نوادر المخطوطات: المجلد الأول، المجموعة الأولى، القاهرة، ١٩٥١م.
٦٨.مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، بيروت، دار الأندلس، جـ٢، ١٩٦٥م.
٦٩.المعارف، ابن قتيبة، تحقيق سالم الكرنكوي، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ.
٧٠.معجم البلدان، ياقوت الحموي، بيروت، دارة صادر، ١٩٧٧م.

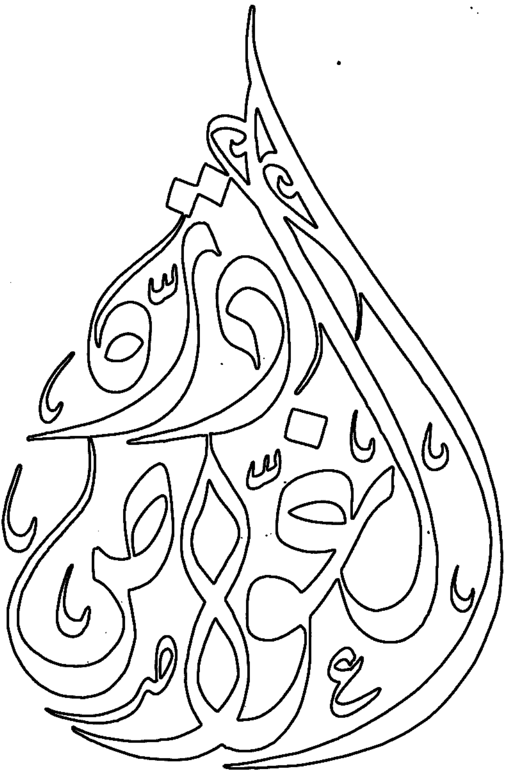
٧١.معجم الشعراء، المرزباني، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠.
٧٢.معجم ماستعجم، البكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ١٩٤٥ - ١٩٥١م.
٧٣.المغازي، الواقدي، تحقيق مارسدن جونسن، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٦م.
٧٤.نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، دار الكتب المصرية، ١٩٢٩ - ١٩٥٥ م.
٧٥.نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب، القلقشندي، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩م.
٧٦.نور القبس المختصر من المقتبس، اليغموري، تحقيق رودلف زلهايم، فيسبادن فرانس شتانير، ١٩٦٤م.
٧٧.الوحشيات، أبو تمام، تحقيق عبد العزيز الميمني، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م.
وقعة صفين، نصر بن مزاحم المنقري، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٨١م.



ب - المراجع

١ - أدب الحديث النبوي، بكري شيخ أمين، دار الشروق، ١٩٧٣م.
٢ - الإسلام والشعر، سامي مكي العاني، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٣م.
٣ - أسواق العرب في الجاهلية و الاسلام، سعيد الأفغاني، دمشق، ١٩٣٧م.
٤ - الأصول الفنية للشعر الجاهلي، سعد إسماعيل شلبي، مكتبة غريب، ط٢، ١٩٨٢م.
٥ - الأعشى شاعر المجون والخمرة، محمد آلتونجي، حلب، ١٩٧٩م.
٦ - تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، الجزء الأول، ترجمة عبد الحليم النجار، مصر، دار المعارف، ١٩٧٤م.
٧ - تاريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٥م.
٨ - تاريخ العرب قبل الإسلام، أحمد هبو، جامعة حلب، ١٩٧٩ - ١٩٨٠م.
٩ - تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بغداد، ١٩٥٠ - ١٩٥٨م.
١٠ - تاريخ العرب القديم، توفيق برو، حلب، دار القلم، ١٩٧٣م.
١١ - تيارات ثقافية بين العرب والفرس، أحمد محمد الحوفي، مصر، ط٣، ١٩٧٨م.
١٢ - الحب في التراث العربي، محمد حسن عبد الله، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٩٨٠م.
١٣ - الحيرة ومكة وصلتهما بالقبائل العربية، كستر، ترجمة يحي الجبوري، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.
١٤ - دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران، الرياض، ١٩٧٧م.
١٥ - دراسة في سيرة النبي، عبد العزيز الدوري، بغداد، ١٩٦٥م.
١٦ - الدولة العربية الكبرى، توفيق برو، حلب، دار القلم، ١٩٧٣م.
١٧ - الشعر الجاهلي: مراحله واتجاهاته الفنية، سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م.
١٨ - العصر الجاهلي، شوقي ضيف، مصر، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٥م.
١٩ - عصر النبي عليه السلام، محمد عزة دروزة، بيروت، ١٩٦٤م.
٢٠ - في الأدب الجاهلي، طه حسين، مصر، دار المعارف، ط١٠، ١٩٦٩م.

٢١- في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م.
٢٢- قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار وزميله، القاهرة، دار مصر للطباعة، ١٩٥٨م.
٢٣- قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي، وهب رومية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨١م.
٢٤- قضايا الشعر الجاهلي، علي العتوم، الأردن، ط١، ١٩٨٢م.
٢٥- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، ١٩٥٦م.
٢٦- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٨ - ١٩٧٣م.
٢٧- من لغات العرب - لهجة هذيل، عبد الجواد الطيب، منشورات جامعة الفاتح، بلاتاريخ.
٢٨- النقد الأدبي الحديث، محمد غنيمي هلال، بيروت، دار الثقافة ودار العودة، ١٩٧٣م.



فهرس الموضوعات



